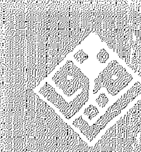


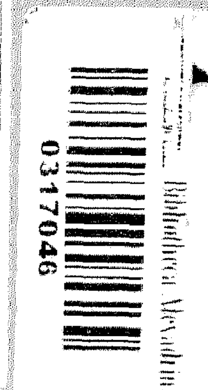
مختارات قصصية

١٩٤٧ - ١٩٩٢



المشروع القومي للترجمة





تأليف: جابريل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم: علي إبراهيم علي منوفي

مراجعة: صلاح فضل

246



المشروع القومى للترجمة

جابرييل جارثيا ماركيث

«مختارات قصصية»

(١٩٤٧-١٩٩٢)

تأليف

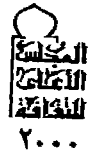
جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم

على إبراهيم على منوفى

مراجعة

صلاح فضل



٢٠٠٠


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدخل

لا يجد القارئ أو الباحث صعوبة شديدة عندما يحاول الاطلاع على بعض جوانب الإبداع الأدبي - خاصة السرد القصصي الروائي والقصة القصيرة - في أمريكا اللاتينية أيًا كانت لغة الدراسة أو الأعمال الأدبية (فقد ترجم الكثير من هذه الإبداعات القصصية إلى العديد من لغات العالم) وتتحول سهولة الاطلاع إلى الطريق الصعب عندما يلاحظ الباحث والقارئ معًا أن البحث مسلط في الحقبة الأخيرة على الرواية الأمريكية اللاتينية - باستثناء البرازيلية - ابتداء من الأربعينيات من هذا القرن وحتى اليوم مروراً بأقصى درجات الازدهار خلال الستينيات والذي ربما يرجع إلى عوامل كثيرة منها ما يتعلق بالبنية القصصية وما طرأ عليها من تغير، ومنها ما يتعلق بالتجريب المستمر سواء على مستوى اللغة المستخدمة في السرد أم على المستوى التقني، ومنها الإلحاح المستمر من جانب المبدع على حقه في ابتكار واقعه التخيّلي الخاص به وطرائقه في سبر أغوار الواقع القريب والمعاش، ومنها التنويع الشديد في الموضوعات التي يتم تناولها[1] هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى أشار إليها بعض الباحثين، يتعلق بعضها بسياسة دور النشر في أمريكا اللاتينية وأسبانيا.

إلا أن هذه الوفرة في المراجع والدراسات حول هذه الفترة تعاني فقراً واضحًا عندما يتعلق الأمر بالقصة القصيرة سواء من الناحية النظرية أو فيما يتعلق بالدراسات التي تتناول هذا الإنتاج بأبعاده المختلفة.

لكن إذا ما كان علينا أن نقارن بين القصة القصيرة فى أسبانيا – من حيث دائرة الانتشار والصعوبات الجمة التى يواجهها الكاتب الإسبانى عندما يحاول نشر مجموعة قصصية[٢] وتلك التى يواجهها واحد من الكتاب فى أمريكا اللاتينية، لفاز الثانى على الأول من حيث قلة الصعوبات وسعة دائرة الانتشار. ومع ذلك فالأمر الهام الذى لم يبرزه النقد الأوروبى حتى الآن بالشكل المطلوب، هو المكانة التى تتبوؤها القصة القصيرة فى إطار تطوّر وازدهار فن السرد القصصى فى تلك البقعة من العالم، وربما كان السبب فى ذلك سوء الفهم الذى لا يعتمد على سند من الواقع والذى يتلخص فى أنه على مدى سنوات طويلة أُريد للقصة القصيرة أن تظهر على أنها النوع الأدبى التابع، أو الجزء المكمل للرواية رغم أنها فى حقيقة الأمر لا تقوم بهذا الدور أو ذاك فهى نوع أدبى له ملامحه الخاصة يرتفع صوته مدوياً ويطالب بإعادة تصنيف المادة القصصية[٣].

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية هى أوفر حظًا – رغم العقبات – عنها فى أسبانيا خصوصاً عندما نقوم بالمقارنة بينهما خلال فترة الخمسينيات والستينيات. وهذا لا يرجع إلى فقر أو قصور فى العملية الإبداعية بين الأدباء الأسبان، وإنما يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادتهم مثل مساحات الحرية السياسية والأيديولوجية المتاحة وقلة دور النشر المستعدة لطبع المجموعات القصصية، هذا بالإضافة إلى قلة المجلات الأوروبية التى كانت مستعدة لنشر مثل هذه الأعمال الأدبية، وسيطرة الرقابة ... الخ[٤].

توجد ملاحظة أخرى متعلقة بمعالجة القصة القصيرة ضمن باب السرد القصصى بصفة عامة حيث لا يكاد أحد يتطرق لها، وإن حدث

ذلك فإننا نجد أنه من الناحية العملية مثلما توجد تيارات وتوجهات متنوعة في الرواية هناك "ترجمة لها في ميدان القصة القصيرة"(٥) ويُرجع البعض هذا النوع من التداخل في المعالجة – رغم الاختلافات البنيوية بين هذا النوع الأدبي وذاك – إلى " التطور الشكلي للرواية الذي لم يتم إلا من خلال القوالب الخاصة بالقصة القصيرة، كما أن هذه الأخيرة كانت الورشة الأولى التي تعلم فيها العديد من الروائيين، إذ كان عليهم مواجهة كيفية خلق لحظة إبداعية"(٦).

نظرية القصة القصيرة

كما سبق القول هناك القليل من الإسهامات في ميدان التنظير للقصة القصيرة بصفة عامة ورغم ذلك يمكن أن نبرز ثلاثة من القصاصين من أمريكا اللاتينية عبروا إما بشكل فيه نوع من التفصيل، عن رؤيتهم وهم أوراثيوكيروجا **H.Quiraga** وخوليو كورتاثار**J.Cartazar** وإنريكي أندرسن إمبرت **E.A.Imbert**.

أ- أوراثيوكيروجا:

كانت لهذا الكاتب العملاق إسهاماته الإبداعية التي أثرت ميدان القصة القصيرة من خلال تأليف العديد منها. وفيما يتعلق بالجانب النظري يتفق الكثير من النقاد على تأثره بالملاحظات التي كتبها آلان بويه "إذ تعلم منه التقنيات التي تجعل القصة القصيرة نوعًا أدبيًا مستقلاً"(٧) كما جاءت إسهاماته التنظيرية في مقالين موجزين يحمل أولهما العنوان التالي: "دليل كاتب القصة القصيرة المتكامل" أما الآخر فيحمل عنوانًا مشابهًا: "الحيل التي يتبعها كاتب القصة القصيرة" ولا

يخفى على القارئ النغمة الهزلية فى العنوانين المذكورين. وربما كان أبرز ما ذكره كيروجا فى مقاليه المذكورين مشكلة بداية القصة القصيرة وأن على الكاتب المبدع حقًا أن يضع فى اعتباره أن الهدف منذ البداية هو أن يعرف المقصد الذى يرمى إليه فالكلمة الأولى يجب أن تكتب وعينها على النهاية. وهناك نقطة أخرى تتعلق بالتفاصيل فالمجال أمام كاتب القصة القصيرة ليس متسعًا مثلما هو الحال فى الرواية وبالتالى عليه أن يلجأ إلى ذلك الإيجاز المتمثل فى تلك الجماليات الحقيقية والتفاصيل التى تتضمنها قصته وبحيث تكون ضرورية. ويضاف إلى ما سبق ما يسمى "بالجو العام المصغر" الخاص بالشخصيات وأن يأخذ الكاتب بأيدى شخصياته ويظل على هذا الوضع حتى النهاية وبحيث لا ترى تلك الشخصيات أى شىء آخر إلا الطريق المرسوم لها(٨).

هناك عناصر أخرى جوهرية وهى التكثيف ورسم الشخصيات وكلها تفصح عن التأثير الفاعل للعلاّمة الأمريكى آلان بويه.

ب - خوليو كورتاثار:

أجرى الكثير من النقاد والصحفيين العديد من الحوارات مع كورتاثار وتحدث كثيراً وباستفاضة عن الكثير من جوانب الإبدا ع الأدبى سواء بالنسبة للرواية أو القصة القصير:(٩) وسوف نعرض هنا لمقال مطول نشر له أكثر من مرة بعنوان : "بعض جوانب القصة القصيرة"(١٠) وينوه فى البداية إلى أن التنظير شىء والعمل الأدبى شىء آخر "فلا يمكن لأى تعليق نظرى أن يحل محل العمل الأدبى، وأن تعليقاته النظرية ترتبط أساسًا بمفهومه عن العالم وبطبيعة إبداعه الأدبى "الواقعية السحرية" والقصة القصيرة تخلو من كل ما يعتبر إضافة أو حشواً، فلا

يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يلجأ إلى حيلة تراكم العناصر" فالزمن ليس فى صالحه والطريق الوحيد الذى عليه أن يسلكه هو العمل فى العمق أى أخذ قطاع رأسى. كما أنه لا توجد موضوعات جيدة وغير جيدة" فإما أن تكون القصة كذلك (جيدة) أم لا. ومع هذا فالموضوع لابد أن يكون به غموض "يشع شيئًا ما يتجاوز حدوده البسيطة" ولا يمكن أن يكون للمنطوق معنى إلا إذ ربطناه "بالتكثيف والتوتر" فهذان العنصران لا يشيران إلى الموضوع فحسب بل إلى المعالجة الأدبية وإلى التقنية المستخدمة فى تطويره. وفيما يتعلق بالتناول أو المعالجة يرى أنها تكسب الموضوع رحابة تتجاوز الواقع الظاهرى، الأمر الذى تحدث تأثيره الفعال فى المتلقى. ثم يتناول بعداً آخر يمكن أن ينطبق سواء على الرواية أو القصة القصيرة ألا وهو الخاص بالقارئ ذلك "الكائن السلبى والأقل حرصًا ويقظة" فما يكتبه المؤلف ليس بالضرورة أن يستثير القراء ومن يظن هذا يكون كمن يرى ابنه جميلاً ويعتقد أن الآخرين يرونه كذلك. ومن أجل الوصول إلى التأثير فى القارئ لابد وأن تتوفر "الحرفية والمهنية" فى المؤلف والتى يتمثل أحد جوانبها فى خلق هذا الجو، الذى يشير إلى قصة عظيمة، ويدفع القارئ إلى مواصلة جهد القراءة ويملك عليه لُبّه ويعزله عما حوله ثم يعود به بعد ذلك إلى الواقع بعد أن أصبح أكثر ثراء وعمقًا أو ربما أكثر جمالاً. إنهما عنصرا التكثيف والتوتر حيث تتضافر العناصر الشكلية والتعبيرية لتعطى صورة مرئية ومسموعة أكثر أصالة ونفاذًا. ومعنى التكثيف فى القصة القصيرة "استبعاد كافة الأفكار أو المواقف الوسيطة والبعد عن الحشو أو المراحل الانتقالية التى غالبًا ما نراها فى الرواية". ويصر كورتاثار كثيرًا على ضرورة المعاناة وإلا أصبحت القصة مجرد ممارسة أسلوبية ليس إلا.

د- إنريكى أندرسون إمبريت :

منذ فترة طويلة وهذا الأستاذ الجامعى والقصاص والناقد ينشر تأملاته بشأن القصة القصيرة (١٩٥٩) وقد جمع آخر هذه التأملات بعد تطويرها فى كتاب "القصة القصيرة: النظرية والتقنية" وهو كتاب يتضمن ثمانية عشر فصلاً يتعلق بعضها بالأدب بصفة عامة ويتعلق البعض الآخر بفن القصة القصيرة متناولاً إياه من جوانب مختلفة سواء منها ما يتعلق بالمؤلف أو الراوى والتنويعات المختلفة للراوى وكذلك القارئ وتصنيف وجهات النظر وموقف الراوى والحدث والحبكة وعنصر الزمن فى الأدب والأزمنة النحوية. وقد قمنا بترجمة ذلك الكتاب الذى نشر ضمن مشروع الترجمة الذى يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

إطلالة على تاريخ

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية

كثيرة هى الدراسات التى تتناول تاريخ الأدب فى أمريكا اللاتينية - وخاصة الإنتاج الروائى- خلال الحقبة التى أشرنا إليها سابقًا. ويختلف المنظور من دراسة لأخرى، فهناك من يتناول الإنتاج الأدبى فى كل دولة على حدة، وهناك من يأخذ فى الاعتبار العناصر الخاصة بنظرية الأجيال، وفى هذا المقام نجد أن تلك الفترة تضم فى آن واحد إسهامات "ما لا يقل عن خمسة أجيال"[١١] وهناك دراسات أخرى تتناول هذه الفترة طبقًا للتيارات الأدبية السائدة وتفريعاتها المختلفة. وهناك من يقوم بدراسة كل أديب على حدة متناولاً أعماله ومراحل تطورها رابطًا إياها إما بجيل أو تيار أو بلد أو حقبة زمنية معينة. والحقيقة أن العملية ليست

من السهولة بمكان فاللفظة "أمريكا اللاتينية، تعني ببساطة إنتاج خمس وعشرين دولة وتعني أيضًا الأدب البرازيلي. ومع هذه الكثرة هناك اختلاف بين ظروف كل دولة، ومساحة الحريات المتاحة، ومدى صلة الأديب بالواقع، ومدى إطلاعه على الثقافات الأخرى، سواء الأجنبية - وخاصة الأوروبية - أو المحلية الضاربة بجذورها فى أراضى هذه المنطقة من العالم قبل وصول الأسبانيين وباقى الجنسيات إليها . لكن هذه العقبات لا تعنى استحالة العمل على إيجاد رؤية بانورامية يمكن من خلالها الاطلاع على أبرز جوانب الإبداع الأدبى وخاصة فى دائرتى الرواية والقصة القصيرة، فكل الدراسات مهما بلغت درجة الجزئية فيها تصب فى بوتقة بانورامية رغم الصعوبات القائمة.

يتفق معظم النقاد على أن النهضة بدأت فى ميدان السرد الروائى مع عقد الأربعينيات، إذ يمكن أن يرى التغيير فى التخفى التدريجي عن الاهتمام بوصف الطبيعة والمشاهد الريفية، وكذلك بدأ هناك تباعد عن أدب الإدانة المباشرة للمشاكل الاجتماعية الأكثر إلحاحًا. لكن ما الذى كان هناك فى أمريكا اللاتينية من تيارات أدبية قبل هذا العقد التاريخى ؟ لا نريد أن نعود للوراء كثيرًا ونبدأ القصة من خلق آدم فهذا ليس مجالها لكن علينا أن نشير إلى وجود المدرسة الرومانسية والتى تمثلت إحدى ملامحها فيما يطلق عليه "لوحات العادات **Cuadros de costumbres** " حيث الوصف والتركيز عليه، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل فى النسيج الإبداعى. ولما كانت الرواية - نظرًا لطبيعتها - يمكن أن تستوعب هذا الخلل فقد كانت ملامحه أقل "لكنها أكثر بوضوح فى القصة القصيرة"(١٢).

وبعد الرومانسية ظهرت مدرسة أدبية أخرى هى مدرسة الحداثة **El modernismo** حيث كان هناك جيلان أسهما فى تطويره بما

فى ذلك القصة القصيرة. وأول هذين الجيلين هو ذلك الذى يتزعمه كل من خوسيه مارتى Marti لومانويل جوتيرث ناخيرا M.G. Nagera وروبين داريو R. Dario وأمادو نربو .. A. Nervo أمل الجيل الثانى فنذكر منهم ليوبولودولوجونس L. lugones وإنريكى لويس ألبوخار -E.L. Albu jar وأوراثيوكيروجا . H. Quiroga والاطلاع على إنتاج هذا الجيل الثانى يؤكد التنوع الشديد وبالتالى يصعب تحديد التيارات والاتجاهات المتعددة التى أخذ يسير فيها هذا النوع الأدبى(١٣) القصة القصيرة – الأمر الذى يؤكد أن إرهاصات التغيير والتحديث بدأت منذ وقت مبكر وقبل عقد الأربعينيات.

ربما كان جوتيرث ناخيرا أحد الذين كانت لهم إسهاماتهم الإبداعية فى هذا النوع الأدبى إذ صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "حكايات هشّة" (١٨٨٣) ويلاحظ فيه "وجود تعليقات تصدر عن الراوى وكثرة علامات التعجب والجمل الاعتراضية التى يجرى من خلالها حوار بين الراوى والقراء الأمر الذى يطيل الخيوط الرئيسية للسرد (...) كما يلاحظ أن الراوى أحياناً أخرى يتقدم بشروح وتفسيرات قاطعة وأحياناً ما يتدخل فى الموضوع الأمر الذى يؤذى بالأسس التى تقوم عليها القصة القصيرة"(١٤) إلا أن البعد الخاص باللغة الرنانة والجزالة فى الألفاظ وسعة الخيال والثراء اللغوى غير المعهود أمام الفقر الواضح فى لغة المدرسة الطبيعية، كل ذلك كان هو الجانب الإيجابى فى هذه المدرسة ويمكن أن يرى ذلك بوضوح فى اللغة التى عليها كتاب "أرزق Azul لروبين داريو الذى يتضمن عدداً من القصص القصيرة. أدت المبالغة فى هذا الجانب الإيجابى – اللغوى أدت المبالغة فيه أيضًا إلى إصابة النص بالإرهاق من كثرة الأخيلة والصور والألوان التى تظهر فى تكوينات لا نهائية.

هذه الفترة السابقة التى عاشتها القصة القصيرة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إنما تمثل المرحلة السابقة على مرحلة الازدهار التى أخذ السرد القصصى فى أمريكا اللاتينية يعيشها ابتداء من عقد الأربعينيات، حيث تم التخلص التدريجى من عيوب مدرسة الحداثة وأخذ الكثير من الكتاب يتباعدون عن المباشرة فى تناول الواقع ولم تعد هناك موضوعات محرمة وأخذ المبدعون يجربون أنماطًا قصصية جديدة، وكثر الاتصال بالمدارس الأوروبية والأمريكية وأخذت عيون الكتاب تطوف وتجول فى تلك الأرض الخصبة بإيحاءاتها وثقافتها الأصلية، وأصبحنا نرى أمام أعيننا "واقعية جديدة" أو "قصة جديدة". وأطلق على هذه الواقعية أحيانًا مصطلح "الواقعية السحرية" El realismo magico وهو مصطلح أطلقه فرانز روه Franz Roh عام ١٩٢٥ على أحد التوجهات الفنية اللاحقة على المدرسة التعبيرية، فهو نوع من الواقعية الجديدة التى تحاول رصد ما هو دائم، أى ماهية الواقع، على نوع من المعايشة بين الواقعية والبعد السحرى الذى يتجاوز حدود الواقع. وفى عام ١٩٤٨ أطلق الناقد A. Uslar Pietri هذا المصطلح على تيار قصصى فنزويلى فحواه الثورة على الصيغ المغرقة فى الواقعية. واعتبارًا من هذا التاريخ أصبح له انتشار غير مسبوق رغم أن تطبيقاته كان بها تعسف واضح. ورغم ذلك يمكن القول أنه يتفق مع سمات "الواقعية الجديدة" إذ تتم محاولة تجاوز الواقع وإضافة بعد آخر له "السحرى وما هو عجيب وغامض". هذا البعد الآخر يحاول رصد عناصر الواقع" الآخر" بطريقة استعارية وهو ما يمكن أن يطلق عليه ما تحت جلد الواقع، الجانب الذى أهملته المدرسة الواقعية[١٥].

وهناك مصطلح آخر هو الواقعية العجيبة Lo real maravilloso الذى استخدمه أليخو كاربينتو عندما نشر قصته "مملكة هذا العالم" عام

١٩٤٩ حيث يشير إلى وجود فوارق بين ماهية ما هو عجيب على الطريقة السريالية فى شطحاتها الأدبية والكتابة الأتوماتيكية واللجوء إلى اللاشعور وما هو عجيب على الطريقة الأمريكية اللاتينية فهو واقع من نوع خاص تشكل بعض الأحداث الغامضة والعجيبة جزءًا لا يتجزأ من نسيجه، وقد أشار جارثيا ماركيث إلى هذه النقطة فى أكثر من حوار أجرى معه وسوف نعرض له فى حينه.

وقد أشرنا سلفًا إلى أنه مهما حاول النقاد رصد بعض التيارات الأدبية فى إطار الواقعية "الواقعية الاجتماعية والواقعية النفسية والواقعية السحرية – وهى الأكثر شيوعًا بتفريعاتها وتنويعاتها المختلفة – والواقعية البنائية والاتجاهات التجريبية بما فى ذلك مضاد القصة an-tinovela ... الخ فإن من الصعوبة بمكان الإلمام الشامل بها، كما أن من طبيعة المبدعين رفض الدخول فى إطار ما يسمى بالجيل أو التيار أو الزمالة .. ربما رغبة منهم فى التميز والتفرد. إذن المحاولة لا تعدو مجرد رسم خطوط عامة ورصد ما يمكن أن يسمى بالظواهر مع الأخذ فى الاعتبار السمات المميزة لكل مبدع يدخل فى إطار هذه الظاهرة أو تلك.

القصة القصيرة عند جارثيا ماركيث

قبل أن نبدأ معالجة القصة القصيرة عند ماركيث تجدر الإشارة هنا إلى بعض آرائه وتصوراته عن الإبداع القصصى عامة ورؤيته للواقع المحيط وفكرته عن الالتزام، فهذه جميعها تسهم بشكل كبير فى إلقاء الضوء على إبداعاته فى ميدان القصة القصيرة خاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار وحدة العالم القصصى، بتطوراته المختلفة، سواء فى القصة القصيرة أم الرواية عند جارثيا ماركيث.

من المعروف عن ماركيث أنه كاتب له توجهه الاشتراكى مثله فى ذلك مثل معظم الكتاب فى أمريكا اللاتينية، ومن المعروف عنه أنه واحد من الذين صفقوا للثورة الكوبية ١٩٥٩، وهو صديق لفيدل كاسترو. "أريد أن يصبح العالم اشتراكيًا - يقول ماركيث - وأظن أنه سيصبح كذلك عاجلاً أم آجلاً". لكن من يقرأ العبارة التى بين الأقواس قد يخرج بنتيجة مفادها أن أدب جارثيا هو أدب "ملتزم" وهذه لفظة أدخلت عليها العديد من التنويهات. الالتزام بماذا؟ نجد لماركيث تحفظات على أدب الالتزام وخاصة ما يسمى بالرواية الاجتماعية فهو توجه لم يؤت بثمرة أو يؤدى إلى نتائج كبيرة، كما أن "الناس فى أمريكا اللاتينية ينتظرون من الرواية ما هو أكثر من فضح الاضطهاد والظلم، فهم يعرفون ذلك لدرجة الملل منه". "إن الكثير من أصدقائى النشطين سياسيًا والذين يعيشون فى إطار شعورهم بإملاء معايير الكتابة على المبدعين إنما يتخذون موقفًا رجعيًا لأنهم يضعون قيودًا على الحرية الفنية. وأعتقد أن رواية تتخذ الحب كموضوع لها نفس الأهمية التى لأية رواية أخرى، فواجب الكاتب - واجب الثورى إن شئنا قول ذلك - هو أن يكتب بشكل جيد[١٦]. أما الواقع فهو مصدر الفن لديه وهو النبع الأصيل الذى يستقى منه المبدعون أعمالهم. والواقع فى أمريكا اللاتينية يوضح لنا، من خلال الحياة اليومية، أنه ملئ بأشياء غير مألوفة، ومن هنا يمكن أن ندرك سر مقولته: "لا تحوى رواياتى سطرًا واحدًا لا يستند للواقع"[١٧] فوجود غير المألوف وغير المعقول - الذى لا تستطيع العقلانية الأوروبية أن ترصده - يرجع بالنسبة لجارثيا ماركيث إلى عناصر كثيرة، فالجد والجدة من جليقية (أسبانيا) كانا يرويان له حكايات كثيرة تتعلق بما هو غير مألوف فى أمريكا، وحكايات ما وراء الطبيعة من الموروثات الجليقية. ويرجع أيضًا إلى إرث إفريقى وخاصة على السواحل الكولومبية المطلة على

منطقة الكاريبى[١٨]. ويؤكد ماركيث إلى أن رحلته إلى أنجولا (١٩٧٨) كانت تجربة من أروع التجارب لديه. أضف إلى ما سبق، من جذور أسبانية وأفريقية تدخل كجزء من نسيج ذلك الواقع المشار إليه، هناك مفاهيم وعقائد السكان الأصليين فى المنطقة. كل ذلك شكل قدرة على النظر إلى الواقع بطريقة سحرية لدى السكان[١٩].

يشير مرات عديدة إلى تأثير جدته عليه فى فن القص والحبكة القصصية وتداخل وتناغم خيوط الواقع الذى لا يرصده العقل وهو الجزء الآخر أو البعد الآخر من الواقع الذى لا يمكن رصده إلا من خلال جرعة إيمانية هى جزء أساسى من وعى الإنسان بما حوله، والمكمل للعقل وما يرصده. وفى هذا المقام يلاحظ من يقرأ الإبداع السردى لهذا المؤلف - الرواية والقصة القصيرة - أنه الراوى - يرفض بشدة أن يكون العقل وحده هو المصدر الوحيد لتفسير الواقع. وربما كان ذلك مرجعه إلى تمادى بريق الفلسفة الوضعية فى أوروبا وإلى ذلك التنوع والسحر فى عالم الواقع الذى يرصده الكتاب فى أمريكا اللاتينية.

ولجارثيا ماركيث رؤية خاصة بالحوار كعنصر من عناصر تكوين العملية السردية. والملاحظ قلة الحوار - كعنصر فنى فى الكثير من أعماله، فالحوار الشفهى فى اللغة الأسبانية له وقع خاص يختلف عنه فى الكلام المكتوب "إن حواراً جيداً فى الحياة اليومية لا يكون بالضرورة جيداً فى الأعمال القصصية، لهذا قليلاً ما أستخدمه"[٢٠]. وترتبط التقنية واللغة عنده بموضوع الكتاب، فاللغة المستخدمة فى قصصه القصيرة ورواياته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" و"الساعة المشئومة" والكثير من مكونات المجموعة القصصية "جنازة الأم الكبرى" تتسم بأنها لغة موجزة ومحكمة وواقعية ولا تستهدف سوى التأثير. أما اللغة فى "خريف

البطريارك" فهى فى رأيه – أكثر الروايات التى ألفها اعتماداً على الفنون الشعبية وأقربها إلى الموضوع والعبارات والأغانى التى تتردد فى منطقة الكاريبى. وهناك جمل لا يستطيع أن يفهمها سوى سائقو سيارات الأجرة [٢١].

نشرت لجارثيا ماركيث أربعة مجموعات قصصية أولاها بعنوان: "عينا كلب أزرق" وتضم إحدى عشرة قصص قصيرة يرجع تاريخ كتابتها إلى الفترة من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٥، أما المجموعة الثانية فتحمل العنوان التالى : "جنازة الأم الكبرى" وهو عنوان إحدى قصص المجموعة كما هو الحال فى المجموعة الأولى، لكن هذه المجموعة التى تضم ثمانى قصص كتبت كلها خلال عام ,١٩٦٢ أما المجموعة الثالثة فتحمل عنوان واحد من أطول القصص القصيرة – إن جاز ذلك التعبير – وهى الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرنديرا وجدتها القاسية"، وهى تضم سبع قصص كتبت خلال الفترة من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٨٢، وهذه المجموعة تحمل عنواناً مغايراً – أى ليس له صلة بأى من العناوين التى تتضمنها : "اثنتا عشرة قصة فى ترحال"، وذلك للإشارة إلى حالة الترحال والسفر والتعديل التى تعرضت لها قصص تلك المجموعة الأخيرة وقصص أخرى لم تر النور، إذ يشير ماركيث فى تقديمه لهذه المجموعة الأخيرة – والتى ترجمنا منها أربعة من هذه القصص – إلا أنه قد دون ملاحظات لعدد أربع وستين موضوعاً. ومع ذلك "فإن فكرة كتابة هذه الموضوعات المشار إليها بشكل متوالٍ ومن خلال الالتزام بوحدة الإيقاع الداخلى والأسلوب إنما يمثل مغامرة مثيرة إذا ما تمكنت منها"[٢٢]. كما يؤكد أن المجموعات الثلاث السابقة لا تربط بينها وحدة عضوية، فكل قصة مستقلة عن الأخرى ولها لحظة إبداعها الخاصة بها[٢٣]. ومع ذلك فإن القصة القصيرة فى إجمالى إنتاجه

القصصى تمثل جزءًا من الوحدة العضوية لعالمه القصصى، والذى بدونه لا يمكن أن ندرك ملامح البدايات الأولى لهذا الإبداع أو المراحل المختلفة التى مر بها طوال حياته الحافلة بالثراء الإبداعى. وإذا ما كان ماركيث ينظر إلى إنتاجه القصصى كجزء من إجمالى الإنتاج القصصى لكتاب الرواية والقصة القصيرة "فليس هناك خمسة من الكتاب يكتبون خمس روايات، بل إنهم يكتبون رواية واحدة فى عدة مجلدات". فلا عجب إذن أن تكون المجموعات القصصية جزءًا من هذه القصة التى أسهم بها ماركيث فى تناول أحد جوانب الواقع المعاصر فى أمريكا اللاتينية.

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق جزئية بسيطة أخرى، وهى أننا نرى الكثير من الشخصيات تعاود ظهورها من جديد سواء فى هذه القصة أو تلك الرواية، وكأننا بذلك أمام عالم يتحرك فى أرجائه "أفراد أسرة واحدة يجيئون ويذهبون"[٢٤] بينما تأخذ الحياة سيرها المعتاد فى ماكوندو تلك القرية الخيالية التى صورها الكاتب فى "مائة عام من العزلة".

وإذا ما كان ماركيث قد تحدث عن بعض قصصه القصيرة – الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريნديدا وجدتها القاسية – ويقول بأنها "تمرينات على البيانو كوسيلة للوصول إلى الأسلوب الذى استخدمه فى الكتاب الجديد (صحيفة **Triunfo** - نوفمبر ١٩٧١)، فإنه يشير فى سياق آخر، وبعد ذلك بعشرين عامًا إلى أن الجهد الذى يبذل فى كتابة قصة قصيرة كبير للغاية وكأن المرء مقبل على كتابة رواية"[٢٥] إنها عملية إبداعية تأخذ فى اعتبارها كافة العناصر التقنية الخاصة بالقصة القصيرة كنوع أدبى. إلا أن الطول والقصر بالنسبة لعدد صفحات كل قصة أمر نسبى، فقد وصل عدد صفحات قصة "الحكاية العجيبة والحزينة ... " إلى ثمان وأربعين صفحة.

هناك أمر آخر يتعلق برؤية جابريل جارثيا ماركيث للقصة القصيرة. والحقيقة أنه لم يسهم بشكل مباشر فى التنظير لهذا النوع الأدبى، وأن كانت له بعض التنويهات والتلميحات التى تتناول القصة القصيرة فى سياق أحاديثه الكثيرة مع الصحفيين أو النقاد، فالقصة القصيرة عنده ليس لها عدد معين من الصفحات أو كيفية البداية أو ما هى خاتمة القصة أو التكثيف... إلى آخر تلك الملامح والمواصفات التى يرددها العديد من النقاد منذ أن نشر آلان بويه ملاحظاته عن القصة القصيرة. "فالقصة القصيرة - يقول ماركيث - ليس لها بداية ونهاية : إما أن تكون أو لا تكون. وإذا لم تأت فإن الخبرة الشخصية وخبرة الآخرين تعلمنا أنه من الأفضل بدء كتابة القصة من جديد أو تناولها من منظور آخر وإلا فإن سلة المهملات هى مآلها "[٢٦] وهو فى هذا الموقف يذكرنا برؤية أوراثيو كيروجا التى عرضنا لها قبل ذلك بشكل موجز والتى تتعلق بنظرية القصة، كما أنه - ماركيث - يتسق مع ما يردده دائمًا من معارضته وضع قواعد منظمة للكتابة أو الثبات وعدم التغيير والتجريب، فذلك معناه الموت للكاتب.

وتتسم القصص القصيرة لجارثيا ماركيث بالبساطة وعدم التعقيد فى البناء الفنى، مثلها فى ذلك مثل رواياته التى حازت شهرة واسعة - وهو فى هذا يعتبر استثناءاً أو شيئًا غير عادى، إلا أن كتاباته لها تأثيرها العميق حتى قبل أن ينال هذا القسط العظيم من الشهرة.

كما أن هذه القصص تمثل لدى بعض الكتاب والنقاد المدخل لعالمه القصصى، فبعد نشر قصصه: "الورقة الذابلة" (١٩٥٥)"ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" (١٩٦١) "والساعة المشئومة" (١٩٦٢) نشر بعد ذلك مجموعته القصصية "جنازة الأم الكبرى" وهى مجموعة لها صلة

بالروايات الثلاث المشار إليها، كما أنها، رغم سطحيتها الظاهرية، تحوى سخرية مرة من أمومة "الأم الكبرى" ومن الخطابة والطنطنة الرسمية التى يلجأ إليها بعض الصحفيين فى كولومبيا. وتلا ذلك الشهرة التى حازتها روايته: "مائة عام من العزلة" وكان بعدها فى حاجة إلى أخذ قسط من الراحة أو البحث عن أسلوب جديد فى الكتابة من خلال التجريب والتطرق إلى أنماط قصصية مختلفة وذلك حتى يصل إلى الأسلوب الأمثل للبدء فى المشروع الضخم الذى أخذ يعد له، وهو روايته "خريف البطريارك" فكانت مجموعته "الحكاية العجيبة والحزينة لطبيبة القلب ..." هى ثمرة هذا الجهد الذى فكر فى توجيهه فى البداية - إلى الأطفال، لكن لم تسر الأمور كما أراد. أما مجموعته. "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" فهى الوحيدة التى أشار إليها على أنها المجموعة القصصية التى كان يصبو إلى كتابتها (٢٧).

هذه المختارات القصصية

تضم هذه المختارات اثنتا عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى: "عينا كلب أزرق" و"الإذعان الثالث" و"ليلة طيور الكروان"، وثلاث أخر تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى: "قيلولة الثلاثاء" التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق، و"الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" و"جنازة الأم الكبرى" أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين: "الموت الدائم فيما وراء الحب" وقصة "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندیدا وجدتها القاسية". أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" على اعتبار أنها جزء من نسيج فكر فيه المؤلف

بعناية وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التى تدور حول رؤية جارثيا ماركيث - أو إن شئت الدقة الراوى - للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل فها هم مجموعة من المصيفين من الدول الاسكندنافية الذين وصلوا إلى أحد الشواطئ فى إقليم قطالونيا (أسبانيا) لقضاء جزء من عطلة الصيف (قصة : ريح الشمال) يحاولون إجبار أحد الفتيان من ذوى الجذور الكاريبية على الذهاب معهم إلى إحدى القرى الكائنة على الشاطئ الأسباني والتى كان قد فر منها نظرا لأن ريح الشمال تهب عليها كل عام وتصيب أهلها بالفزع وتؤدى إلى الموت دونما سبب عقلانى مقنع. الشاب يرفض وهم يصرون. رفض الشاب مؤسس على عقيدة لديه تربى عليها فى الكاريبى، أما إصرار مجموعة الشباب من السويديين والسويديات فهو مؤسس على مفاهيم عقلية محضة لا تتلاقى فى كثير أو قليل مع عقيدة الفتى، وتشير الجملة الأولى فى هذه القصة إلى النهاية المأساوية التى تتسق مع عقيدة الفتى "رأيته مره واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة. كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى".

وها هو الراوى فى قصة "الصيف السعيد للسيدة فوريس" لا يتجاوز عمره حين وقعت تلك الأحداث تسع سنوات يشير إلى أن هذه المربية التى تعاقد والده معها على مرافقته هو وأخيه فى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط أثناء شهر أغسطس بينما يقوم الأبوان برحلة بحرية تطوف بموانى البحر الأبيض المتوسط، هذه المربية لا تستطيع أن تدرك حالة الفزع التى أصابت الطفل الأصغر حينما رأى أحد الثعابين البحرية "أبو مرينا" معلقاً على باب المنزل وكأنه تعويذة غجرية. كما أن رفض أخى تناول هذا النوع من السمك ليس له ما يبرره - عندها - ذلك أنه كان طعام علية القوم كما أنها سمكة تمثل أحد الحيوانات الأسطورية

وبالتالى يجب أن تعامل بتقدير. كما أن الوالد يتعرض لانتقادات حادة من قبل الابن فهو "أحد كتاب منطقة الكاريبى كثير الخيلاء قليل الألمعية. وكان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله، كما كان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية، وفرض على نفسه وهمًا هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه". كما أن هذه المربية تمثل النظام الذى يصل إلى درجة من الميكانيكية القاهرة فهناك ساعات محددة لتناول الطعام والاستيقاظ من النوم والخلود إلى السرير ومشاهدة برامج معينة والجلوس على المائدة بطريقة خاصة، وقبلها السير بدون صوت مسموع، وهناك ترتيب محدد فى الأطباق التى تقدم حتى عدد مرات المضغ لكل لقمة يتناولها. كل هذا يدخل فى صراع وتعارض مع مفاهيم سائدة فى الكاريبى ويدخل أيضًا فى صراع مع عقليات نشء فى طور التكوين.

أما البعد الآخر للجو العام الذى يربط بين قصص المجموعة الأخيرة فهو نقد - أحيانًا مباشر وأخرى غير مباشر- للأنظمة السياسية فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا، خاصة فترة حكم الجنرال فرانكو. ففى قصته : "رحلة طيبة يا سيدى الرئيس" يتناول البعد الإنسانى لحياة هؤلاء اللاجئين من أبناء الكاريبى فى أوروبا وحياة العوز والفقر وشغلهم للوظائف الهامشية فى المجتمع الأوروبى وحياة أناس آخرين هم أولئك الرؤساء الذى خلقتهم أنظمة أخرى أكثر طغيانًا. هؤلاء المخلوعين لا يصلحون لأى شىء فى الحياة حتى لشغل منصب الرئاسة، لكن إذا سمحت لهم الفرصة سوف يعودون لممارسة الدور الذى فشلوا فى القيام به، فها هو الرئيس السابق يبعث برسالة إلى "هومير وزوجته لاثارا" من بنى وطنه اللّذين ساعداه فى لحظات مرهفة يخبرهم فيها وقد بلغ الخامسة والسبعين "أنه يرغب فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس

حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله"... إنه نوع من التفاخر التعس بأنه لم يمت فى سريره وإنما وافته المنية وهو يكافح فى سبيل قضية "عادلة".

وهناك خيط آخر يسير ليس بشكل موازٍ ولكنه جزء من نسيج القصة ألا وهو ما عليه أهل الكاريبى وأهل الشرق من إيمان بقراءة الطالع سواء على الطريقة الشرقية، قراءة الفنجان أو اللجوء إلى فتح "الكوتشينة"، أو إلى غير ذلك من وسائل قراءة المستقبل يستوى فى ذلك من كان رئيس دولة ومن هو من عامة الشعب "لاثارا" التى تمارس تلك المهنة خاصة مع علية القوم بحثًا عن لقمة العيش.

أما قصته: "جئت لأتصل بالتليفون فقط" فهى سيدة من أصل مكسيكى تعيش فى أسبانيا وتتعطل سيارة الأجرة التى كانت تقودها متجهة بها إلى برشلونة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع" وتحاول العثور على وسيلة للاتصال بزوجها فتعثر على أوتوبيس خاص ملىء بسيدات يتم اقتيادهن إلى مستشفى للأمراض العقلية وسط الغابات وهو مبنى كان ديراً فى الأصل، فتعامل على أنها واحدة من نزيلات المستشفى، وتحاول بكل جهدها التخلص من هذا العذاب وتلك المعاملة، وتتمكن من الاتصال بزوجها بالتليفون فيحضر لكنه لا يستطيع إخراجها فقد أقنعه مدير المستشفى بأنها مجنونة وعندها هوس بالتليفون والبحث عنه للخلاص، وعند ذلك تحدث القطيعة الفعلية بينهما فقد انضم بذلك إلى صفوف القهر والظلم والطاغوت التى لا يصلح معه أى شىء من محاولات التجميل مثل ذهاب الزوج كل يوم سبت للتسرية عن النزيلات من خلال ألعابه البهلوانية. فالكارثة أكبر من محاولة تجميلها أو البحث عن الأسباب الموضوعية – ظاهريًا – التى تعلن عن وجودها ولا يصلح أى شىء معها إلا زوالها.

وإذا كانت قصص ماركيث تتسم بالبساطة فهى غالبًا بساطة ظاهرية تحوى فى داخلها رموزًا معينة وواضحة، فهذه القصة "جئت لأتصل بالتليفون فقط" تبدأ بتلك العبارة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع، وعندما كانت تسافر وحدها وهى تقود سيارة مستأجرة تعرضت سيارة ماريا لويث ثربانتس لعطل فى صحراء "مونيغروس" فهل ذلك المساء الممطر من أمسيات الربيع يعنى إشارة واضحة الظروف إلى التى سبقت الانقلاب العسكرى الذى قاده الجنرال الراحل فرانكو ضد الجمهورية الثانية التى علق عليها الكثير من عامة الشعب الأسبانى آمالاً عريضة للخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية التى عاشتها البلاد فى أواخر أيام ألفونسو الثالث عشر؟ وهل العطل الذى أصاب السيارة هو ذلك الانقلاب؟ كما أن الدير الذى تم تحويله إلى مستشفى للأمراض العقلية هل كان يمثل النظام الفرنكوى وبالتالى لم يكن هناك من حل إلا ذهابه وتحول البلاد إلى الحياة الديمقراطية بعد أن ترك النظام ندبًا وجروحًا غائرة؟

إن المتأمل لكل أو لأغلب الإنتاج القصصى لماركيث سوف يجد صراعًا دائرًا بين عنصرين فيهما إما تضاد كامل أو شبه كامل، فها هى العقلية الأوروبية التى تعتمد على العقل كسبيل وحيد لتفسير كل شىء والتى تدخل فى صراع مع عقلية أخرى ترى العقل ضروريًا لكن ليس الطريق الوحيد لفهم كل ما يدور وتفسير جوهره. هناك صراع بين قوى الطغيان وقوى الحرية. هناك صراع بين الأغنياء والفقراء بين الفن والمادية، بين لحظة المخاض الغنى والحاجة اليومية للوفاء بلقمة العيش. فها هى قصة "الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" تعكس لنا تلك الصراعات. إن أحداثها تدور فى فترة زمنية لا تتعدى الثمانية عشرة ساعة ابتداء من الانتهاء من صناعة "إبداع" أعظم وأجمل قفص للطيور

فى العالم. ويتم استخدام عنصر الزمن هنا بطريقة تقليدية. ينتهى بلتثار من صناعة القفص بعد أن قضى خمسة عشر يوماً يسهم فيها كثيراً فى إنجاز هذا الإبداع الفنى ولم يحلق ذقنه ولم يكن ينام بطريقة طبيعية. وإذا كانت زوجته مغتاظة لأنه أهمل العمل فى الورشة من أجل كسب لقمة العيش، فقد ذهب عنها الكدر فها هى القرية كلها تتحدث عن ذلك الإبداع الفنى العظيم وها هى الناس تتوافد من كافة أرجاء القرية لمشاهدة هذه التحفة الفنية. هذا هو نوع من الرضا الداخلى الذى سرعان ما ترجمته بمفاهيمها العملية إلى محاولة للبحث عن الرخاء المادى، فعندما سألت زوجها "كم ستطلب ثمناً له؟ قال: لست أدرى سوف أطلب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين. فردت عليه: عليك أن تطلب خمسين فلقد سهرت ليال طويلة خلال هذين الأسبوعين، كما أن القفص كبير وأعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى". ليست انتهازية، ولكنها محاولة للخروج من عنق الزجاجة مثلما كان يتخيل بلتثار عندما ذهب فى المساء إلى البار بعد أن سلم القفص لابن "شيبى مونتيل" دون مقابل، وأخذ يحلم وهو برفقة الصحاب والجيران بأنه سوف يقوم بصناعة أقفاص كثيرة وجميلة ويبيعها للأغنياء ليستولى على شىء من أموالهم ويصبح هو الآخر بدوره غنياً. كان الجميع يحيطون به على أساس أنه يمثل الأمل فى الخروج من وهدة الفقر والعوز والانتقام من الأغنياء الذين فقدوا الإحساس بالحياة وبمن حولهم. شيبى مونتيل ممنوع بأمر الأطباء من الانفعال - هذه ليست حياة - وهو حريص بشكل يجعله ينام القيلولة دون استخدام المروحة الكهربائية لا لتوفير الطاقة الكهربائية بل لما هو أخطر من ذلك وهو ألا يغيب عن سمعه أى شىء مما يحدث فى المنزل. لا يرضخ أبداً أمام تلهف ابنه على ملكية أجمل قفص فى العالم، وعندما يترك بلتثار القفص للطفل بلا مقابل،

وخجلاً منه يحتج ذلك الغنى بقوله متعجبًا : "ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى". هذا الغنى كان عليه أن يرعى الفن ولم يفعل ، كان عليه أن يكون على مستوى المسئولية نحو الآخرين ولم يفعل، أما بلتثار - فقد أخذته العزة، ودعا رفاقه إلى تناول البيرة وإلى سماع جهاز الموسيقى لمدة ساعتين. ولما لم يكن معه من النقود ما يكفى، استدان وترك ساعته رهنًا ، وظل فى البار حتى ساعة متأخرة من الليل وقد انفض عنه الصحاب، وبينما هو متوجه إلى المنزل ويسير مترنحًا شعر بمن يحاول أن ينتزعه من حذاءه وكأن البشر تحولوا إلى جوارح تلتهم الجيف، ومع ذلك لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته ألا وهو الحلم بالتميز وتقدير المجتمع والعيش فى بحبوحة.

وإذا كانت الفئة الاجتماعية التى ينسب إليها خوسيه مونتيل تعيش حالة استنفار من الفقر والفقراء وبعداً عن الحياة وخوفًا على أموالهم، فإن الطبيب المثقف يقف عاجزًا أمام الوفاء بما وعد به زوجته بالحصول على القفص فهو لا يملك الكثير من المال مثل خوسيه مونتيل لكنه رجل يقدر الفن وأهله كثيراً، فقد أطرى على القفص لدرجة أنه قال: "يكفى أن يوضع القفص وسط الأشجار ليغنى" وأطرى على بلتثار قائلاً : "كان من الممكن أن تكون مهندساً بارعًا"

ولقد صور الراوى استحالة حصول الطبيب على القفص وأنه لم يرض بغيره بديلاً وإن فقده، بأن أخذ "يجفف عرق رقبته مستخدمًا منديلاً وهو يتأمل القفص فى صمت ودون أن يحرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل سفينة أخذت طريق السفر".

عندما يقوم ماركيث برسم ملامح الشخصيات يلجأ إلى ما هو ضرورى للغاية وذلك بغية خدمة الهدف المقصود، هذه الطريقة ضرورة

ملحة فى القصة القصيرة نظراً لأن الإيجاز والتكثيف من السمات الرئيسية لها. وقد رأينا رسم ملامح الشخصيات فى القصة التى أشرنا إليها، ويمكن أن نراه بوضوح أيضاً فى قصته "قيلولة الثلاثاء" فالمرأة يبدو أنها طاعنة فى السن وذلك لبروز "العروق الزرقاء فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه" فهى عبارة عن كتلة صغيرة ليس بها أية جماليات. هذه هى الأوصاف الجسدية، أما الملبس فهو شديد البساطة عبارة عن "فستان يشبه ملابس القساوسة" أما ملامح الفقر البادية على الشخصية فقد تمثلت فى شنطة صغيرة من الجلد اللامع وقد تقشرت. إنها امرأة هادئة مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر، تركب عربة الدرجة الثالثة التى تجرها قاطرة تنفث دخانها الملىء بذرات الفحم التى تدخل من نوافذ عربة القطار. طعامها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطعة بسكويت مسكرة. تمسح عرق وجهها بمسحة بأصابعها. لكنها شخصية قوية لها فلسفتها فى الحياة قامت بهذه الرحلة كنوع من تكريم ابنها الذى أصيب بطلق نارى وهو يحاول أن يسرق أحد المنازل فى تلك القرية بعد أن أعيته الحيل فى الحصول على لقمة العيش بطريقة شريفة. لم يكن الابن يفعل فى نظرها إلا الواجب المنوط به نحو إعالة أسرته رغم تعارض ذلك مع القوانين والأخلاقيات التى يخفى عليها رجال الدين. وأمام هذا الموقف استطاعت الأم بمفردها أن تواجه كافة أهل القرية التى لم يذكر جارثيا ماركيث اسمها فهى مثل كل القرى بأنماط مبانيها وما فى داخلها من أثاث.

بقى لنا أن نشير إلى بعد آخر من الأبعاد التى تتجلى فى السرد القصصى لجابريل جارثيا ماركيث. ويمكن أن نذكر نموذجاً لها فى "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندیدا وجدتها القاسية"، فرغم

أن القصة طويلة إذ تبلغ فى بعض طبعاتها ثمان وأربعين صفحة فإن العبارة الأولى تفصح عن فحوى ما سيدور على سطورها. كما لوحظ انتقال الراوى فجأة من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم فى مرحلة معينة من مراحل سرد هذه القصة. فالبعد الأسطورى يكاد يغزو كل شىء فيها، فالجدة قاسية القلب لدرجة لا تصدق، وهى ضخمة الجثة كأنها سبع البحر "يسبح فى حمام من الرخام" والحفيدة إيريندا لها قدرة عجيبة على أن تسحر البشر كافة بجاذبيتها الجنسية وهى قادرة على أن تنادى بأعلى صوتها الداخلى فيسمعها البطل - عليس - وهو على بعد كيلو مترات منها، وهى قادرة على أن تضاجع آلاف الرجال إلا أنها تحتفظ بطهارة القلب. الجدة هى تلك المرأة التى عندما تصارع البطل عليس يخرج الدم منها بلون أخضر - شىء لا يصدق - هى أيضًا "السيدة" أو "الهانم" - إن صح القول - وذلك فى إشارة واضحة إلى تأثير قصص الفروسية فى أوروبا العصور الوسطى وخاصة القصة الأسبانية "أماديس دى جَولاَ" حتى زوجها كان اسمه "أماديس" تبلغ درجة الأسطورية فيها أن الفتاة تنام وهى تمشى، وتؤدى بعض الأعمال المنزلية. هذه الفتاة لها قدرة عجيبة على تفسير الأحلام التى تلعب هنا دورًا هامًا فى استحضار الماضى البعيد خاصة تلك التى تحلم بها الجدة، وكذلك فى التنبؤ بالمستقبل، وليس هذا فقط بل هناك وصل حميم بين حياة الوعى وحياة اللاوعى، فكلاهما مكمل للآخر، فعلاقات النوم عند الجدة هى أنها تبدأ تتحدث بصوت عال عن أمور حدثت وتحدث وسوف تحدث. هناك أيضًا عالم المهربين والقدرة العجيبة على زراعة برتقال به قطع الملس، والمنزل الملىء بالساعات التى كانت فى حاجة إلى ما لا يقل عن ست ساعات لضبطها وملئها.

إنها قصة تعكس تناغمًا عجيبًا بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية.. وتناغمًا عجيبًا فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الأسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذى هو السر الأساسى - بالإضافة إلى عناصر أخرى - فى تلك الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية.

هوامش:

1- Galvez - Marina "H. critica de la lite. Hispanica" (33)
Taurus - Madrid 1992 - pags 51 - 52 - 53 - 54

2- د. على إبراهيم منوفى، "القصة القصيرة فى أسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية - مكتب الحسينى - القاهرة - ١٩٩٥,

3- P Walker Enrique Pupo
La trayectoria Y significacion del cuento Hispanamericano
- (El cuente Hispano. Ante la critica. Castalia Madrid p 1981
pags 9 - 10.

4- Martinez cachero J.Ma -
Historia de la novela espanola entre 1936 y 1975
Castalic- Madrid pag. 198 y ss.

5- Galvez - Marina op cit pag 17

6- W.E Epupo op. cit. pag 11

7- Alazraki - Jaime "Relectura de H. Q. (el cuento H. ante la critica op. cit pag 64.

8- Valcarlal - Carmen de Mora enlas.
" Teoria y practica del cuento relatos ds Julio Cortazar..
Escuela de estudios hispano americanas (C.S.IC.)
Sevilla 1982 pag 23 ys.

9- Par ej : Bermejo , Ernesto Gonzalez
Conversacianes con cortazar
Editoial Hermes - Mexico 1978

10- Cortazar Julio
"Algunas aspectos del cuento"
Cuadernos Hispano- americanos n- 255
Marzo 197 - page 403 - 416

11- Galvez - Marina, op. cit. Pag 14 y 15

12- W. E. pupo op. cit. Pag 10

13- Munoz Antonia "Notas Sobre Los rasgos formales del cuento modernista. El cuento hispano americana ante la critica" op. cit pag. 53

14- Ibid pag 54

15- Galvez - Marina op. cit. Pag 150 - 151

16- د. حامد أبو أحـمـد، "قراءات فى أدب أسبانيـا وأمريكا اللاتينية" عرض تلخيص لتلك التوجهات فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب - الهـيئـة المصرية العـامـة للكتاب - القـاهرة ١٩٩٣ - ص ١٧١ والصفحات التى تليها.

17- "جـابريل جارثـيا مـاركيـث" ترجمـة إبراهيم وصـفى - طلاس للدراسات والتـرجمة والنشر - دمشق، الـطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٢٦ (ملاحظة) قمنا بنقل النص المترجم بتصرف.

18- نفس المصدر ص ٧٧

19- نفس المصدر ص ١١١ - ١١٣

20- نفس المصدر ص ٧١

21- نفس المصدر ص ٧١

22- Doce Cuentes peregrinos - Mondadori Barcelona - Segunda edicion 1992 pag 14

23- Ibid pag 14

24- Alazraki J. op. cit. Pag 66

25- Doce Cuentes .. op. cit pag. 14

26- Ibid pag 15

27- Ibid pag 15



الإذعان الثالث

(١٩٤٧)

ها هو ذلك الضجيج مرة أخرى، إنه الضجيج البارد والقاطع والرأسى الذى يعرفه كثيرًا، غير أنه جاء هذه المرة أكثر حدة وألمًا وكأنه، بعد انقطاعه عدة أيام، بدا وهو غير معتاد عليه.

كان الضجيج يطوف فى أرجاء الجمجمة بصوت واخذ ومكتوم. كأنه خلية نحل وضعت بين الجدران الأربعة لرأسه. يزداد الضجيج ويعلو فى أشكال حلزونية متتابعة، ويضربه بعنف لدرجة تهتز معها فقرات عمود الظهر اهتزازًا غير منتظم وغير متسق مع الإيقاع الطبيعى لجسده. لقد اختل شىء ما فى هيكله كإنسان ثابت البنيان. وهذا الشىء كان يؤدى عمله بانتظام "فى المرات السابقة" إلا أنه يدق الرأس من الداخل بعنف بضربات قوية ومكتومة من خلال عظام يد هيكل عظمى، وكأنه يذكره بكافة منغصات الحياة.

واتته الرغبة الغريزية فى إطباق قبضتى يديه والضغط على الصدغين اللذين تبرز منهما الشرايين الزرقاء والمحمرة بدرجة تتوافق مع ضغط الأمل الذى لا يتوقف. كم كان بوده أن يمسك بكفى يديه ذلك الضجيج الذى كان يحفز اللحظة مستخدمًا إبرة حفر ماسية. وصدرت عنه حركة كأنه قط

ألیف انكمشت عضلاته عندما تصوره، وكأن أركان دماغه الساخنة والمفزوعة تطارده. كان سيمسك به. لا. كان جلد الضجيج ناعمًا لا يكاد يُحسّ. إلا أنه على استعداد للسيطرة عليه مستخدمًا استراتيجيته التى تعلمها جيدًا والضغط عليه طويلاً وبشكل حاسم كأنه إنسان فقد الأمل، ولن يسمح للضجيج أن يدخل مرة أخرى عبر أذنيه. وأن يخرج من فمه ومن كل مسامه أو من عينيه اللتين قد تهتزان بشدة عند خروجه، وربما تفقدان الرؤية وهما تحدقان فى هروب الضجيج من أعماق ظلمته الكئيبة. لن يسمح له بالاستمرار فى الضغط بعنف على زجاج العين المطحون، وعلى البريق الصادر عنها وعلى الجدار الداخلى للجمجمة. هكذا كان ذلك الضجيج، لا يتوقف وكأنه طفل يضرب رأسه فى حائط أسمنتى، مثله فى ذلك مثل تلك الضربات الموجعة التى توجه ضد المكونات الثابتة فى الطبيعة. لكنه لن يخيفه مرة أخرى إذا ما استطاع حصاره وعزله. ثم تقليص تأثيره والضغط عليه هذه المرة بشكل حاسم. وبعد ذلك يقوم بكل ما أوتى من قوة بالإلقاء به على البلاط، وأن يطأه برجليه بعنف حتى لا يستطيع الحراك حقيقة، ثم يقول وهو يلهث إنه استطاع قتل الضجيج الذى كان يؤرقه ويصيبه بالجنون، وها هو الآن مُلقى على الأرض كأنه شىء مهمل مات موتًا كاملاً.

لكن كان من المستحيل عليه أن يضغط على صدغيه، إذ انكمش ذراعاه حتى أصبحا ذراعى قزم. هما ذراعان ممتلآن

صغـيران. حاول أن ينفض رأسـه فتمكن مـن ذلك وعندئذ ظهر الضـجيج بمزيد من الـقوة داخل الجـمجـمة الـتى تصلبت وكبـر حجـمها وأصـبحت ثقـيلة جدًا بفضل قـوة الجاذبيـة. كان ذلك الضجيج قويًا وثقيلاً لدرجة أنه إذا ما تمكن منه وقضى عليه فكأنه يقوم بنزع أوراق وردة من رصاص.

كـان يشعـر بذلك الضـجيج "فى المرات الـسابقـة" بنفس الإلحاح، مثلما حدث له يوم أن مات لأول مرة، عندما رأى الجثة وأدرك أنها جثته.

أحس بأنه غير ملمـوس، ولا يحتل حيزًا، وغيـر موجود. كان جـثة بالفعل، وكان يشـعر بمرور الوقت على جسـده الشاب السـقـيم. ازدادت وطأة الجو المخـيم فى المنـزل كله كأنه امـتـلأ بالأسـمنت عن آخره. وفـى وسط هذه الكتلة - التى ترك فـيهـا الأشياء وكأنه جو ملىء بالهواء - كان موضوعًا هناك بعناية داخل التابوت الأسـمنتى الصلب والشفاف. كان "ذلك الضـجيج" فى تلك المرة داخل رأسـه. يشعـر آنذاك بأن باطن قـدميـه بعيـدتان وباردتان. وفى الجانب الآخر من التـابوت توجد مخدة، ذلك أن الصندوق كان لا يزال كبيرًا علـيه وكان من المناسب ملاءمة وضع الجسد المـيت لملبسه الجديد والأخـير. لقد لفوه بالقـماش الأبيض وربطوا فكه لرأسه بواسطة منديل، يشعـر بأنه وسيم وهو ملفوف فى كفنه، بدرجة مميتة.

كان مسجّى فى نفسه ومجهزًا للدفن، ومع ذلك كان يعرف أنه لم يكن ميتًا، وإذا حاول النهوض لاستطاع ذلك بكل سهولة ولو بشكل "روحى" لكن لم يكن الأمر يستحق، إذ كان من الأفضل أن يترك نفسه ليموت هناك، يموت "بالموت" إذ كان ذلك داءه. لقد قالها الطبيب مباشرة لوالدته منذ زمن :

- سيدتى : إن طفلك مريض بداء خطير : إنه ميت، ثم واصل قائلاً، لكن سنفعل كل ما فى وسعنا للحفاظ على حياته فيما بعد الموت، وسوف نتمكن من أن تستمر وظائفه العضوية من خلال نظام معقد للتغذية الذاتية، وما سوف يتغير فقط هو تلك الوظائف الدافعة أى الحركة الطبيعية، سوف نعرف مسار حياته من خلال النمو الذى سيسير فى طريقه المعتاد، إنه مجرد "موت حى" هو موت فعلى وحقيقى.

كان يتذكر الكلمات ولكن بشكلٍ فيه إبهام، وربما لم يسمع هذه الكلمات أبدًا ولم تكن إلا بدعًا من وحى خياله عندما ترتفع حرارة جسمه بسبب حمى التيفود.

أى عندما يلفه الهذيان، وعندما يقرأ تاريخ الفراعنة المحنطين، وعندما ترتفع حرارته، كان يشعر بأنه بطلها، وفى هذه المرة بدأ يعترى حياته نوع من الفراغ. وعندها لم يكن باستطاعته تمييز أو تذكر ماهية الأحداث التى تنسب إلى حالة الهذيان وماهية الأحداث التى تنسب لحياته العقلية، ولهذا داخله شك فى هذه

اللحظة، فربما لم يتحدث الطبيب أبدًا عن هذا "الموت الحى" الغريب. إنه غير منطقى وغير متسق، أى ببساطة ملىء بالتناقض، وهذا ما جعله يشك فى أنه ميت بالفعل وكان موته منذ ثمانية عشر عامًا.

ومنذ تلك اللحظة - كان يبلغ السابعة عندما توفى - أمر أمه بأن تصنع له تابوتًا صغيرًا من الخشب الأخضر، أى تابوت لطفل، غير أن الطبيب أمر بأن يصنع صندوق أكبر حجمًا يتسع لجسد إنسان بالغ. ذلك أن التابوت الصغير يمكن أن يعوق النمو، ويصبح ميتًا معوجًا أو حيًا غير طبيعى - أو لأن إيقاف النمو سوف يحول دون ملاحظة التحسن. فما كان من الأم إلا العمل بالنصيحة واللجوء إلى صناعة صندوق خشبى كبير يصلح لجثة شاب بالغ ووضعت فيه ثلاث مخدات عند القدمين لملء الفراغ الموجود.

وسرعان ما بدأ نموه داخل الصندوق لدرجة أنه كلما مر عام كانت المخدات تُفرغ من بعض ما بها من الحشو لإيجاد مساحة للنمو. قضى وهو على هذا الحال أعوامًا كثيرة، ثمانية عشر عامًا (كان عمره الآن خمسة وعشرون عامًا)، ووصل نموه إلى طول قامته الطبيعى، لقد أخطأ الطبيب والنجار فى تقديريهما وبالتالى كان التابوت كبيرًا بحوالى نصف متر عن المطلوب، إذ تصوروا أن قامته ستكون مثل قامة والده الذى كان يشبه العملاق، لكن لم

يكن كذلك، فالشيء الوحيد الذى ورثه عنه هو أنه كث اللحية. كانت لحيته زرقاء غزيرة واعتادت أمه أن تحلقها له حتى تراه بشكل جميل وهو فى تابوته. كانت تلك اللحية الزرقاء تضايقه بشدة أيام القيظ.

لكن كان هناك أمر آخر يزيد من قلقه: إنه ذلك الضجيج، إنها الفئران. فمنذ طفولته كانت الفئران من أشد الحيوانات التى تثير فزعه. كانت تلك الحيوانات القذرة قد جاءت تتحسس رائحة احتراق الشمع الموضوع عند قدميه، وقرضت ثيابه، وكان يعرف أنها سرعان ما ستقرضه هو وتأكل جسده، تمكن من رؤيتها ذات يوم. كانت خمسة فئران مليئة بالحياة، ناعمة الملمس، تصعد إلى التابوت من خلال أرجل المائدة وتأخذ فى التهامه، وعندما ستدرى والدته بما يجرى فلن يتبقى منه إلا البقايا والعظام الجامدة والباردة.

وأكثر ما يثير فزعه لم يكن التهام الفئران له، فسوف يظل يعيش من خلال هيكله، بل إنه الفزع الغريزى الذى كان يشعر به تجاه تلك الحيوانات الصغيرة. كان يقشعر جلده لمجرد التفكير فى هذه المخلوقات غزيرة الشعر التى تصول فى أنحاء جسده وتسرى فى جلده وتلمس شفتيه بقوادمها الباردة. وقد وصل أحدها إلى أهدابه وحاول قرض القرنية، رآه ضخمًا وفظيعًا وهو يحاول جاهدًا أن يقرض شبكية العين. وعندئذ اعتقد موتًا جديدًا واستسلم بالكامل لوشوك السقوط.

تذكر أنه قـد وصل سن البلوغ، فقد أصـبح عمره خمـسة وعـشرين عـامًا، وكـان هذا يعنى أنه لن ينمـو أكثـر من ذلك، وأصبحت ملامحه ثابتة وجـادة، لكن عندما يشفى فقد لا يتمكن من الحديث عن طفولته، لم يعش طفولته. . فقد قضاها ميتًا.

كان اهتمام الأم به بالغاً خلال المرحلة الانتقالية من الطفولة إلى اليفـاعة. إذ اهتـمت بنظافة التابوت والحـجرة نظافـة كاملة، فكانت تغيـر الزهور فى المزهريات وتفتح النوافـذ كل يوم ليدخل الهواء الرطب. ويا له من رضا يعتلى وجـهها عندما كانت تراجع المقاس، فبعـد كل مرة يتضح لها أنه نما عدة سنتيـمترات . كان يظهر عليها رضا الأمومة عندما تعرف أنه حى، واهتمت أيضًا بألا يكون هناك غرباء فى المنزل. إذ كان من الغريب، وغير المناسب، أن يكون هناك مـيت موضـوع فى حـجرة منزل لأعـوام طويلة. كانت امرأة متفـانية، لكن سرعان ما أخذت تشعر بـثبوط الهمة. فـقد رآها فى الأعـوام الأخـيرة وهى تنظر بتـعـاسة إلى شـريط المقاس، فطفلها لم يعد ينمو. ولم يطرأ أى تغيير على نموه خلال الشهـور التالية. كـانت أمه تدرك أنه من الصعب عليـها فى هذه اللحظة مراقبـة الحياة فى ميتـها العزيز. كانت تخـشى أن تصحو ذات يوم وقد أصـبح ميتًـا "بالفعل" . وربما لهذا السـبب استطاع رؤيتهـا وهى تقتـرب من التابوت بحـرص وتشم رائحة جـسده. كانت قد أخذت تعيش أزمة إحساس بالتعاسة، ففى الفترة الأخيرة

لم تعد تهتم به لدرجة أنها لم تكن تقيس الجثة، إذ عرفت أنه لن ينمو كثيراً.

كان يعرف أنه مات "بالفعل" ويدرك ذلك من خلال ذلك الهدوء الذى يلف جسده. تغير كل شىء بشكل غير ملائم، فالنبض الواهن الذى كان يشعر به قد ذهب الآن وكان يشعر بالثقل وأن هناك قوة تناديه بشدة وتجذبه إلى المواد الأولية للأرض. بدت قوة الجاذبية أن تأثيرها الآن لا مناص منه، كان ثقيلاً كأنه جثة قائمة لا تدحض غير أنه كان أكثر راحة فى هذا الوضع لدرجة أنه لم يكن عليه أن يتنفس ليعيش موته.

وعبر الخيال ودون أن يلمس نفسه تحسس أعضاء جسده واحداً واحداً، كانت رأسه هناك ترقد على مخدة غير طرية، وقد مالت إلى اليسار قليلاً. تصور فمه وهو مفتوح بعض الشىء بسبب التيار الخفيف البارد الذى يملأ حنجرته بحبات الثلج. كان مشقوقًا كأنه شجرة عمرها خمسة وعشرون عامًا. وربما حاول إقفال فمه. فقد انحل قليلاً رباط المنديل الذى يحيط بفكه. لم يتمكن من وضع نفسه جيداً أو اتخاذ "وضع" بحيث يبدو ميتًا مهندم الشكل. فالعضلات والأعضاء لم تعد تستجيب بدقة لنداء جهازه العصبى. لم يكن ذلك الطفل الذى كان منذ ثمانية عشر عامًا حيث كان يتحرك بالشكل الذى يرتضيه. شعر بذراعيه ملقيين بشكل أبدى وملتصقتين بحوائط التابوت المبطنة، أما بطنه

فقد تصلبت كأنها لحاء شجرة جوز. وها هى هناك ساقاه كاملتان كأنهما مؤشر على وصوله إلى سن البلوغ. كان جسده مسجى يملؤه ثقل، غير أنه لا تبدو عليه علامات الضيق، وكأن الدنيا توقفت فجأة، ولم يقم أحد بكسر حاجز الصمت. كأن كل رئتين على ظهر الأرض قد توقفتا عن التنفس حتى لا تعكر الهدوء الناعم للهواء. كان يشعر بالسعادة كأنه طفل استلقى على ظهره فوق الحشائش الغضة والكثيفة، وأخذ يتأمل سحابة وهى تمر مبتعدة عبر سماء ما بعد الظهيرة.. كان سعيداً رغم أنه كان يدرك أنه ميت وأنه مسجى بشكل أبدى فى الصندوق المغطى بالحرير الصناعى. كان يشعر بشفافية كبيرة. لم يكن مثل الحالة السابقة، بعد موته الأول، حيث كان يشعر بأنه فى علبة وأنه فظ. الشموع الأربعة التى أشعلوها من أجله والتى كانت تتغير كل ثلاثة أشهر أخذت تتآكل وتخبو وخاصة عندما لم تعد لها جدوى. شعر بأنه بجوار أزهار البنفسج الرطبة التى وضعتها أمه ذلك الصباح، شعر بتلك الرطوبة فى الورود وفى أزهار السوسن.

لكن هذه الحقيقة الرهيبة لم تجعله يشعر بأى قلق، بل على العكس، كان يشعر بالسعادة هناك وهو وحده مع وحدته. أما شعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدرى؟ كان من الصعب التفكير فى نفس اللحظة التى كان القادوم يهوى فيها على المسامير لتدخل فى الخشب الأخضر

فيزداد حفيف التابوت على أمل يقينى بأن يصبح من جديد شجرة خضراء. جسده الآن مشدود بقوة لنداء الأرض. فسوف يوارى فى حفرة رطبة وطينية وطرية وفوقه سوف تكون هناك أربعة أمتار مكعبة ثم يقوم اللحادون بالدمدمة. لا. هناك لن يشعر بالخوف، فذلك هو استمرار لموته وهو الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة.

لن تتبقى فى جسده أية حرارة فسوف يعترى البرد الأبدى نخاعه، وسوف يتجمد كل شئ حتى نخاع العظام - يا لها من راحة عندما يتعود على حياته الجديدة ميتًا.. ومع ذلك ففى يوم من الأيام سوف يشعر أن بنيته القوية سوف تنهار. وعندما يحاول استدعاء ومراجعة كل واحد من أعضائه فلن يجد أيًا منها. وسوف يشعر أنه ليس له شكل محدد كما سيعرف، ويستسلم لذلك، لقد فقد الملامح الكاملة التى تدل على بلوغه خمسة وعشرين عامًا وتحول إلى حفنة تراب ليس لها شكل معين أى بدون أى هوية هندسية.

إنه فى التراب التوراتى للموت. وربما قد يشعر حينذاك بنوع من الحنين، بألا يكون جثة لها ملامحها، بل جثة متخيلة ومجردة ولها ملامح فى المخيلة الباهتة لأقربائه. وسوف يعرف آنذاك أنه سوف يصعد عبر الخاصية الشعرية فى شجرة تفاح وسوف يستيقظ وقد أخذ الجوع بعضه كأنه طفل استيقظ ذات

صباح من أيام الخريف. سوف يعرف أنه فقط وحدته العضوية وهذا ما كان يحزنه، فهو ليس مجرد ميت عادى، بل هو مجرد جثة.

قضى آخر ليلة وهو يشعر بسعادة، مرافقًا جثته :

لكن عندما دخلت أشعة الشمس فى اليوم التالى عبر النافذة المفتوحة شعر أن جلده اعترته طراوة جديدة. أخذ يرقب الموقف هنيهة، كان ساكنًا ومتصلبًا. ترك الهواء يسرى فوق جسده، لم يشك لحظة واحدة فى وجود "الرائحة". فأثناء الليل أخذت الجيفة تحدث أثرها. إذ أخذت أعضاء جسمه فى التفكك والتحلل مثل جثث كل الموتى. كانت "الرائحة" هى رائحة لحم نتنة تذهب ثم تعاود المجىء بقوة. لقد تحلل جسده بفضل حرارة الليلة السابقة: نعم. كان يتحلل وقد تأتى أمه فى غضون ساعات قليلة لتقوم بتغيير الزهور وسوف تتعرض عن قرب لسياط اللحم المتعفن. وعندئذ سوف يحملونه إلى موته الثانى بين باقى الأموات.

لكن سرعان ما قام الخوف بتسديد طعنة له فى الظهر. الخوف يا لها من كلمة عميقة وذات دلالة، ها هو خائف يعتريه خوف "ملموس" وحقيقى. إلام يرجع ذلك؟ كان يفهم ذلك جيداً وكان لحمه يرتعش: ربما لم يكن ميتًا، فقد وضعوه هناكِ فى ذلك الصندوق الذى يشعر به الآن طريًا ومبطنًا ومريحًا

لدرجة كبيرة، ثم قام شبح الخوف وفتح له نافذة الواقع: كانوا سيدفنوه حيًا

لا يمكن أن يكون ميتًا، ذلك أنه كان يعى كل شيء : الحياة التى تدور أحداثها من حوله بكل ما فيها من همهمة. وكذلك بالرائحة الدافئة التى تحملها أشعة الشمس التى تنفذ عبر النافذة المفتوحة وتختلط "بالرائحة" الأخرى. كان يعى جيدًا ببطء، سقوط المياه فى البحيرات وبصرير الجدجد الذى قبع فى الركن وظل يصدر أصواته ظنًا منه أنه الفجر كان مستمرًا.

كان كل شيء يشعره بأنه لم يمت ما عدا "الرائحة" لكن كيف له أن يعرف أن تلك الرائحة هى المنبعثة منه؟ فربما نسيت أمه تغيير المياه فى الأوانى ليلة البارحة، وبذلك كانت سيقانه تتعفن. وربما كانت تلك رائحة الفأر الذى جلبه القط ووضعه إلى جواره فأخذت الحرارة تحدث تأثيرها فيه. لا، لا يمكن أن تكون هذه الرائحة صادرة عن جسد.

كان سعيدًا مع موته منذ بضع لحظات لظنه أنه ميت، فالميت يمكن أن يكون سعيدًا مع وضعه الذى لا مناص منه. لكن الحى لا يمكن أن يُذعِن حتى يدفن حيًا. ومع ذلك لم تكن أعضاؤه تستجيب لندائه. لم يكن قادرًا على التعبير وهذا ما كان يفزعه. إنه أكبر شيء يثير فزعه فى الحياة والموت. قد يدفنوه حيًا. يمكن أن يشعر وأن يعى أنهم يدقون المسامير فى النعش يمكن أن يشعر

بالخواء فى الجسد الذى يحمله الأصدقاء على أكتافهم بينما يتعاظم عنده الكدر وفقدان الأمل مع كل خطوة فى الجنازة.

سوف يحـاول النهوض ولكن بلا جـدوى وأن ينادى بأعلى صوته الذى ذهب وأن يضرب النعش المظلم والضـيق حتى يعرفوا أنه كان لا يزال حياً وأنهم كانوا سيـدفنونه حيًا. من غير المجدى، ها هى أعـضاؤه لا تسـتـجيب لـلنداء العاجل والأخـيـر لجهـازه العصبى.

سمـع ضجيـجًا فى الحـجرة المجـاورة. هل هو نائم؟ هل كانت حيـاة الميت هذه كابوسًا؟ لكن ضجيج الأوانى لم يسـتمر، شـعر بالحـزن وربما أصـابه الكَدَر لذلك. كم كـان يود لو أن كل أوانى الدنيـا كلها تـنكسر بضـربة واحـدة هناك إلى جواره حـتى يستيقظ من أجل قضية خارجية ذلك أن إرادته فشلت تمامًا.

لكن لا. لم يكن ذلك حلمًا، كان واثقًـا أنه لو كان كذلك فلـم تكن لتفشل المحاولة الأخيرة للعودة إلى الواقع. قد لا ينهض مرة أخـرى، كان يشعر بطراوة التـابوت، أما الرائحة فقـد عادت الآن بمزيد من القـوة، بل بكل قـوة لدرجـة أنه كـان يشك أنهـا رائحته هو، كان يود لو يرى أقرباءه قـبل أن يبدأ فى التحلل، أما منظر اللحم المتعفن فـجعله يشعر بالتقزز، وسـوف يهرب الجيران مفـزوعين من النعـش وقد وضعـوا المناديل على أفواهـهم. وقد يتقـيئون. لا. ليس هذا. كان من الأفـضل أن يدفنوه. كان من

المستحب الخروج من هذا الموقف بأقــصى سرعة. وهو نفسه يريد أن يتخلص من جثته. كان الآن يشعر بأنه ميت بالفعل أو أنه حى ولكن بشكل غيــر ملحوظ، الأمور تستــوى فى هذا المقام. وعلى أى الأحوال فقد كانت "الرائحة" هناك ولا تزال.

وســوف يستــمع مــذعنًا لآخــر الصلوات وأخــر العبــارات اللاتينيــة التى يرددها خــدم الكنيــســة. وسوف ينفــذ البــرد المليئ بالتراب وعظام المقابر إلى عظامه، وربما يتضاءل بعض الشىء تأثير هذه "الرائحة" النفاذة. ومن يدر فربما يؤدى حلول اللحظة - إلى خروجه من هذه الظلمة. عندما يشعر أنه يقوم فى عرقه، فى تلك المياه الكثيفة اللزجة مثلما حدث له ذلك قبل مولده وهو فى رحم أمه، فقد يكون حيًا.

لكن سيكون مذعنًا للموت فربما مات إذعانًا.

عينا كلب أزرق

(١٩٥٠)

نظرت إلىّ عندئـذ. كنت أظن أنهـا تنظر إلىّ لأول مـرة، وبعد ذلك، فعندما استدارت من خلف الشمعدان، كنت لا زلت أشعر بنظرتهـا الناعمة البراقة على أكـتافي وخلف ظهرى. عندئذ أدركت أننى أنا الذى كنت أراهـا لأول مرة. أشـعلت سـيجـارة وابتلعت الدخان القوى الفظ قبل أن أدور بالمقعد حتى يستند إلى واحدة من الأرجل الخلفـية. وبعد ذلك رأيـتها هناك، مـثلما هو الحال فى كل الليالى، تقف إلى جوار الشـمعدان، ترمقنى. وظل كلانا لبضع دقائق لا يفعل أكثر من هذا: ينظر كلانا للآخر، أنظر أنا إليهـا من على الكرسى الذى جـعلته يثبت علـى إحدى أرجله الخلفية، أما هى فواقفـة تسند يدها الطويلة بهدوء على الشمعدان وتنظر إلى. كنـت أنظر إلى أهدابهـا المضـاءة مـثل كل الليـالى، وعندئذ تذكـرت العبارة المـعهودة عندمـا قلت لها : "عـينا كلب أزرق" فقالت لى "أبدًا" خرجت عن المدار المألوف وهى تتنهد : "عينا كلب أزرق. كتبتُ هذه العبارة فى كل مكان" .

رأيتها وهى تتـجه صوب التسريحة ورأيتـها من خلال المرآة المستـديرة وقد أخذت تنظر إلى الآن والضـوء يذهب ويجىء بدقة حسابية. رأيتـها وهى تواصل النظر إلى بعينيها الكبيـرتين كأنهما

الجمـرات المتقدة ! كانـت تنظر إلى وهى تفتح الصندوق الصغـير المطعم بالصدف الوردى. رأيتها وهى تضع المسـحوق على أنفها. وعندمـا انتهت أغلقت الصندوق ثم نهـضت واتجهت من جـديد صـوب الشمـعدان وهى تقـول : "أخـشى أن يحلم أحد بهـذه الحجـرة ويبـعثـر حاجـياتى" وفـوق الشعلة مـدت يدها الطويلة والمرتعشة، والتى كانت تقوم بتدفئتها قبل الجلوس إلى التسريحة. وقالت : "أنت لا تشعر بالبرد" فقلت لها "أحيانا" فقالت لى : "يجب أن تشعر به الآن" وعندئذ أدركت لماذا لم أتمكن من البقاء وحدى فى المقعـد. كان البرد هو الذى يؤكد لى حقيـقة وحدتى، فقلت : "الآن أشـعر به وهذا غريب ذلك أن اللـيلة كانت هادئة وربما كنت ملتفًا جيداً بالمـلاءة" . فلم تجب ثم أخذت تتحرك بعد ذلك متـوجهة نحـو المرآة، أما أنا فعـدت للاستدارة على المقـعد معطيًـا ظهرى إياها. كنـت أعرف ما تفـعله دون أن أراها. كنت أعـرف أنها عـادت لتـجلس إلى المرآة من جـديد وهى تنظر إلى ظهـرى الذى كان لديه مـتسع مـن الوقت ليصل إلى عـمق المرآة ويلتـقى بنظراتها، التى كـانت لديها هى الأخـرى الوقت الكافى للوصول إلى عمق المرآة، والعودة من جـديد قبل أن يتوفر الوقت لليد فى البدء بالعودة مرة أخرى، لتلتـقى بالشفاه، الموضوع عليها اللون الأحمـر القانى، مع أول حركـة دوران لليد فى المرآة. كنت أرى أمامى الحائط الأملس الذى يشـبه مرآة أخرى لكنها معـتمة، ولم أكن أراها - وهى تجـلس خلف ظهـرى - لكنـى أتصـورها

وكأنها قد وضعت مرآة مكان الحائط. فقلت لها : "أراك" ورأيت في الحائط كأنها رفعت ناظريها، وأن ظهري و رأسي وأنا جالس في عمق المرآة، متوجهان صوب الحائط، وبعد ذلك رأيتها وهي تخفض أهدابها مرة ثانية وتظل عيناها ثابتتين في محاجرها ، ولم تنبس بكلمة. أما أنا فعدت لأقول "أراك" فعادت هي لترفع ناظريها وهما في محجريهما ثم قالت : "مستحيل" . فسألت لماذا؟ فقالت، وعيناها ثابتتان في مكانهما : "ذلك أن وجهك متجه صوب الحائط" . عندئذ استدرت بالمقعد، وكنت أمسك بالسيجارة بين شفتي، وعندما أصبحت أمام المرآة، كانت هي تقف خلف الشمعدان من جديد. ها هي الآن تقترب بكفيها من اللهب كأنهما جناحا دجاجة مفرودين في حالة الشواء. أما وجهها فكان يرى من خلال أصابعها "أعتقد أنني سأتعرض لبرد شديد. لابد أن هذه الليلة جليدية" . ودارت بوجهها بعض الشيء حتى أصبح في صورة جانبية، أما جلدها المحمر فقد اعتراه حزن مفاجئ. "افعلي شيئًا حيال هذا" قلت فقامت هي بخلط ملابسها قطعة تلو الأخرى بادئة بالقطع العلوية. فقلت لها "سوف أوجه رأسي للحائط" فقالت "لا. فأنت على أي الأحوال سوف تراني مثلما رأيتني وظهرك لي" ولم تكد تنتهي من عبارتها حتى أضحت شبه عارية وأخذ اللهب يلعق جلدها النحاسي الممتد. "لطالما وددت أن أراك هكذا دومًا وقد امتلأ جلد بطنك بالتجاعيد وكأنما اخترقته عدة رصاصات" . وقبل أن أدرك

أننى أتعثر فى العبارات التى أتفوه بها أمام عريها سكنت هى بلا حراك وأخذت تدفئ نفسها على نار الشمعدان وقالت : "أحيانًا أتصور أننى من معدن" صمتت لحظة. تغير وضع اليدين على اللهب بعض الشىء فقلت "فى أحلام عشتها أحيانًا شعرت أنك لست إلا تمثالاً صغيراً من البرونز قائم هناك فى ركن فى أحد المتاحف. ولهذا ربما تشعرين بالبرد" فقال "عندما أنام على جانبى الأيسر حيث القلب أشعر أحيانًا أن جسدى مفرغ وأن جلدى عبارة عن إحدى الرقائق وعندئذ يضربنى الدم بعنف من الداخل وكأن هناك من ينادينى بطرقات بعقد أصابعه على بطنى أشعر حينئذ بصوتى النحاسى وأنا فى السرير. كأننى مثلما قلت : " من رقائق معدن" ثم ازداد اقترابها من الشمعدان فقلت "كم بودى لو أسمعك" فقالت "إذا ما التقينا ذات مرة فضع أذنك على ضلوعى عندما أنام على جانبى الأيسر وسوف تسمع رنينى. لطالما رغبت أن تفعل ذلك ذات مرة" سمعتها وهى تتنفس بعمق عندما كانت تتحدث وقالت إنها ظلت لسنوات تفعل نفس الشىء، فقد كرست حياتها لتلتقى بى فى عالم الواقع من خلال هذه الجملة المتفق عليها : "عينا كلب أزرق" وكانت تسير فى الشارع وهى تردد ذلك بصوت مرتفع، ولم تكن إلا وسيلة للحديث إلى الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتفهمها. "أنا التى آتى إلى أحلامك كل ليلة وتقول لك هذا : عينا كلب أزرق" وقالت بأنها كانت تذهب إلى المطاعم وتقول للعاملين هناك قبل أن تطلب ما تريد : "عينا

كلب أزرق" لكن الشباب كانوا يعيرونهـا الاحترام والتوقير، لكن دون أن يتذكـروا ولو لمرة أنهم قالوا هذا فى أحـلامهم. ثم تكتب بعد ذلك على المـناديل الورقية وتقـوم باستخـدام السكين لتكتب نفس العـبـارة على دهان الموائد: "عـينا كلب أزرق"، وكـذلك وعلى الزجاج المترب للمحطات. وعلى كل المبـانى العامة. كانت تخط بسـبابتهـا "عينا كلـب أزرق" وقالت إنها ذات مـرة دخلت محـلاً لبيع المنظفات والعطور ولاحظت وجـود نفس الرائحة التى أحست بـها فى حجـرتها ذات ليلة بعـد أن حلمت بأنهـا معى. "لابد أنه قـريب" أخـذت تفكر وهـى تنظر إلى البـلاط الجـديد اللامع للمحل وعندئذ اقتربـت من البائع وقالت له : أحلم دائمًا برجل يقول لـى : "عينا كلب أزرق" وقالت بأن البـائع نظر إلى عينيها وقال إننى فى حاجة لأجد الرجل الذى قال لى هذه العبارة فى الحلم" فما كان من البائع إلا أن أطلق العنان لضحكاته وتحرك إلى الجانب الآخـر من الحاجـز أما هى فظلت تحمـلق فى البلاط اللامع النظيف وتشـعر بالرائحة. ثم فـتحت شنطتهـا وركعت ثم أخرجت إصبع أحمر الشفاه ذى اللون الأحمر القانى وكتبت على البلاط بحـروف كبيرة "عـينا كلب أزرق" فعاد البـائع من جديد وقال لهـا "لقد اتسخ البلاط بسبـبك يا آنستى" وسلم لها خـرقة قماش مبلله وقال لهـا "عليك بتنظيفه" فقالت، وهى لا تزال إلى جـوار الشمـعدان، بأنـها قـضت عصـر اليـوم كله وهى جالسـة

القرفصاء وتقوم بغسل البلاط وتردد "عينا كلب أزرق" حتى تجمع الناس حولها على الباب وقالوا بأنها مجنونة.

وعندما انتهت من الكلام كنت قابعًا فى الركن وأنا أقوم بإحداث التوازن فى المقعد. فقلت "إننى أحاول أن أتذكر كل يوم العبارة التى أجدك بها. وأعتقد أننى لن أنساها غدًا، ومع ذلك فقد قلت نفس الكلام ثم نسيت عند استيقاظى ما هى الكلمات التى أجدك بها" فقالت "أنت نفسك ابتكرتها منذ أول يوم" فقلت لها "لقد اخترعتها لأننى رأيت عينيك كأنهما جمرتان لكننى لا أتذكرها أبدًا فى اليوم التالى" أما هى فقد ظلت إلى جوار الشمعدان وقبضت كفيها وتنفست بعمق: "آه لو تذكرت اسم المدينة التى كتبت تلك العبارة فيها".

كانت أسنانها المطبقة على بعضها البعض تتلألأ من جراء اللهب. فقلت: "يطيب لى أن ألمسك الآن، فرفعت وجهها حيث كانت تتأمل الشعلة. ورفعت النظرة المشتعلة التى تحترق مثلها ومثل يديها. أما أنا فشعرت أنها رأتنى فى ذلك الركن الذى أجلس فيه وأنا أتأرجح على المقعد" وقالت "لم تقل لى أبدًا هذه العبارة" فقلت "أقولها الآن وهذه حقيقة"، فطلبت سيجارة وهى تجلس على الجانب الآخر من الشمعدان. واختفت بقايا السيجارة من بين أصابعى وكنت قد نسيت أننى أدخن. قالت "لست أدرى لماذا لا أتمكن من تذكر المكان الذى كتبت فيه العبارة" فقلت لها

"وهو نفس السبب الذى ينسينى الكلمات صباح اليوم التالى" فقالت بصوت حزين "لا. أحيانًا ما أشعر أننى حلمت بذلك أيضًا" نهضت من مقعدى وسرت متوجهًا نحو الشمعدان. كانت هى بعيدة بعض الشىء أما أنا فظللت أسير وأنا أحمل السجائر والكبريت فى يدى ولم أتجاوز الشمعدان، فمددت يدى لها بالسيجارة فأمسكت بها بين شفتيها ثم مالت لتشعلها من اللهب قبل أن أتمكن أنا من إشعال عود الكبريت وقلت "لابد وأن هذه العبارة مكتوبة فى مدينة ما فى هذا العالم: "عينا كلب أزرق". وإذا ما تذكرتها غدًا سوف أذهب إلى هناك بحثًا عنك. عادت لترفع رأسها من جديد وقد أشعلت سيجارتها وهى فى فمها "عينا كلب أزرق" قالتها وهى تتنهد وتتذكر وقد مالت السيجارة نحو ذقنها. وأقفلت، بعض الشىء، إحدى عينيها. ثم استنشقت الدخان بعد ذلك وقد أصبحت السيجارة بين إصبعيها وصاحت "لقد تغير الأمر، الآن أصبحت أشعر بالدفء" قالتها بنبرة فيها دفء وهروب، وكأنها لم تنطق بذلك حقيقة بل كأنها دونتها على ورقة ثم اقتربت بها من اللهب بينما أنا أقرأ: "أنا أشعر - وكأنها تمسك بما بقى من الورقة بين السبابة والإبهام وتطوحها وهى تشتعل، أما أنا فقد قرأت "بالدفء" قبل أن تحترق الورقة تمامًا وتسقط على الأرض وقد انكمشت وصغر حجمها وتحولت إلى رماد لا قيمة له، فقلت "هذا أفضل، فأحيانًا أشعر بالخوف وأنا أراك هكذا ترتعشين إلى جوار الشمعدان".

كنا نرى بعضنا البعض منذ عدة سنوات. وأحيانًا عندما نكون سويًا. كان هناك أحد ما يترك ملعقة صغيرة تسقط فتحدث رنينًا نستيقظ على أثره. وشيئًا فشيئًا أخذنا ندرك أن صداقتنا مرهونة بالأشياء والأحداث البسيطة. كانت لقاءاتنا تنتهى دومًا بهذا الشكل، أى بسقوط ملعقة صغيرة فجراً.

وعندما وصلت إلى جانب الشمعدان كانت ترمقنى. أتذكر أنها كانت تنظر إلىّ قبل ذلك بنفس الطريقة فى ذلك الحلم البعيد الذى قمت فيه بجعل المقعد يلف على الأرجل الخلفية. ووجدت نفسى أمام امرأة مجهولة ذات عينين رماديتين. وفى ذلك الحلم سألتها لأول مرة "من أنت؟" فقالت لى "لا أتذكر" فقلت لها "لكن أعتقد أننا رأينا بعضنا قبل ذلك" فقالت غير مبالية : "أعتقد أننى حلمت ذات مرة بك فى نفس هذه الحجرة" فقلت لها "هو ذاك، الآن أتذكر الموقف" فقالت "يا له من أمر عجيب حقًا لقد التقينا فى أحلام أخرى".

أخذت من السيجارة نفسين، أما أنا فظللت على حالى ساكنًا أمام الشمعدان عندما أخذت أرمقها فجأة. نظرت إليها نظرة غطتها من أعلى إلى أسفل. وكانت لا تزال من النحاس. لكنه ليس المعدن الصلب والبارد، بل إنه نحاس أصفر وطرى وقابل للتطويع. وعدت لقول هذه العبارة "أود لو ألمسك" فقالت "إنك تغامر بفقدان كل شيء" فقلت "لا يهم الآن، يكفى أن يتقلب

كل منا على المخـدة فنلتـقى مرة أخـرى" ومددت يدى من فـوق الشمعـدان. لكنها لم تتحرك وعـادت لتقول "إنك تغامـر بفقدان كل شيء" قالتهـا قبل أن أتمكن من ملامستهـا" وإذا ما استدرت وأنت خلف الشـمعـدان فربما نسـتيـقظ فزعـين، ومن يدرى أين سيكون هذا فى أى مكان من العالم. لكنى عدت أصر "لا يهم" فقـالت "إذا ما تقلبنا على المخدة فـسوف نلتقـى من جديد لكنك سوف تنسـى ذلك عندما تستـيقظ. وأخـذت فى التحـرك صوب الركن. وظلت هى فى المؤخـرة تقوم بتـدفئة يديهـا على اللهب. ولـم أكد أصل إلى المقعد حـتى سمعتها تقول "عندمـا أستيقظ فى منتصف الليل ينتـابنى الأرق وأنا فى سريرى وكأن قـماش المخدة إبر تخزنى فى ركـبتى وأظل هكذا حـتى الصباح : "عـينا كلب أزرق".

عندما وضعت وجهى صوب الحائط "ها هى تباشير الصباح - قلت هذه العـبارة دون أن أنظر إليـهـا - فعندمـا دقت الثانيـة صباحًا استيـقظت وظللت على هذا الحال لفترة طويلة" وتوجهت نحـو الباب، وعندمـا أمسكت بـالمقبض سـمعت - من جـديد. صوتها الذى لا يـتغير، وهى تقول "لا تفـتح هذا الباب ذلك أن الطرق مليئة بالأحـلام الصعبة" فقلت لها "وكـيف تعرفين ذلك" فقالت لى "إننى كنت هناك منذ هنيهـة وكان على أن أعود عندما اكتشفـت أننى نائمة على جانبى الأيسر". أما أنا فقـد كان الباب

مواربًا. فحــركت دلفة الباب قليلاً فهــبت عليّ نسمة خفيــفة آتيه معــها ببعــض البرد الخفـيف والرائحة الطازجــة للأرض المزروعة والحقول المروية. تحدثت هى مرة أخرى. فاستدرت وحركت دلفة الباب المرتبطة بالمفصلات التى لا تحدث أصواتًا. وقلت : "أعتقد أن ليس هناك أى ردهة فى الخارج. إننــى أشعر برائحة الحــقول" أما هى التى أصبحت بعيدة عنى بعض الشيء فقالت "أعرف ذلك أكثــر منك، والأمر هو أن هناك امــرأة تحلم بالحقــول" . تشابكت يداها على اللهب وواصلت حــديثــها "إنهــا تلك المرأة التى طالما رغبت أن يكون لهــا منزل وسط الحقول لكنها لم تســتطع مغادرة المدينة "إننى أتذكر أنى رأيت هذه المرأة فى بعض الأحلام السابقة لكننى كنت أعــرف، والباب مــوارب، أننى يجب أن أنزل لتناول فطورى خــلال نصف ساعــة وقلت "على أى الأحــوال يجب أن أخرج من هنا حتى أستيقظ" .

هبت الرياح فى الخارج هنــيهة وسكنت بعــد ذلك ثم سمع صوت أحــد النائمين وهو يتقلب فى ســريره، وتوقفت الرياح فى الحــقول. لم تعــد هناك أية روائح، فــقلت "غــدًا سوف أتعــرف عليك من خلال هذا. سوف أتعرف عليك عندما أجد فى الشارع امرأة تكتب على الحوائط "عينا كلب أزرق" أما هى فقد ابتسمت ابتسامة حزينة - فهى ابتسامة تعــبر عن الاستسلام المستحيل وغير القابل للمنال - وقــالت "ومع ذلك فلن تتذكر شيئًــا أثناء النهار"

ثم عادت لتضع يديهـا فوق الشمعدان ولف جسـدها ضباب مُرّ "أنت نفس الرجل الذى لا يـتذكـر أى شىء من أحـلامـه عندمـا يستيقظ " .



ليلة طيور الكروان

(١٩٥٣)

كنا جالسين ثلاثتنا حول المائدة عندما قام أحدٌ مَا بإدخال قطعة عملة معدنية فى الفتحة فعادت الماكينة (Wurlitzer) لتشغيل الاسطوانة المعتادة. ولم يكن أمام الآخرين منا متسع من الوقت للتفكير فيه. إذ وقع ذلك قبل أن نتذكر أين التقينا، أى قبل أن نتمكن من استعادة تحسس الاتجاه. مد واحد منا يده على المنضدة المستطيلة وأخذ يتحسس (فنحن لم نر اليد، بل كنا نسمعها) فاصطدم بأحد الأكواب ثم سكت بعد ذلك، وكانت يداه لا تزالان فوق المسطح الصلب. عندئذ قمنا نحن الثلاثة بالبحث عن بعضنا البعض فى الظل، والتقينا هناك بأصابعنا على المنضدة المستطيلة حيث التقى ثلاثون إصبعًا. فقال أحدنا :

- هيا بنا.

نهضنا واقفين كأن شيئًا لم يحدث. ولم يكن أمامنا حتى هذه اللحظة متسع من الوقت لتنتابنا الحيرة.

وعند المرور بالردهة سمعنا موسيقى قريبة تقابلنا وشعرنا برائحة نساء حزينات جالسات فى الانتظار. شعرنا بالفراغ الممتد للردهة من أمامنا ونحن نسير صوب الباب قبل أن تخرج

لاستقبالنا رائحة أخرى غير محببة لامرأة كانت تجلس على الباب.
فقلنا :

- هيا بنا.

لم تجب المرأة. وشعرنا بصوت كرسى هزاز وهو يتحرك إلى أعلى فى الوقت الذى نهضت هى فيه. شعرنا بالخطوات فوق الأرضية الخشبية المتفككة، ومن جديد، بعودة المرأة فى الوقت الذى يُسمع فيه صرير المفصلات، وأقفل الباب جيداً خلف ظهورنا.

استدرنا، وخلفنا كان هناك هواء جاف وقوى لفجر لا يرى، كما سمع صوت يقول:

- ابتعدوا عن المكان فإننى أمر ومعى هذا

تراجعنا إلى الوراء فعاد الصوت ليقول :

إنكم لا زلتم تسدون المدخل.

عندئذ تحركنا فى كل اتجاه ووجدنا الصوت فى كل مكان فقلنا :

- لا نستطيع الخروج من هنا فطيور الكروان فقأت عيوننا.

سمعنا بعد ذلك صوت أبواب تفتح فنزع أحدنا يده من الأيدى الأخرى وسمعناه وهو يزحف فى الظل متردداً ومصطدماً

بمحتويات المكان التى كانت تحيط بنا. تحدث وهو فى مكان ما من الظلمة.

- لابد وأننا بالقرب، إلا أن هنا رائحة لصناديق متراكمة فوق بعضها.

عدنا من جديد لنشعر بلمسات يديه، واستندنا إلى الحائط، وعندئذ مر صوت آخر ولكن فى اتجاه معاكس. . .

- يمكن أن تكون هذه توابيت - قال واحد منا. فقال الذى كان قد زحف حتى الركن لكنه الآن يتنفس إلى جوارنا.

- إنها صناديق. لقد تعلمت منذ صغرى كيفية تمييز رائحة الملابس المحفوظة فى الصناديق.

عندئذ تحركنا إلى هناك. كانت الأرض طرية وملساء كأنها أرض مخصصة للسير. مد أحد ذراعه. شعر بجلد ممدد وحى، لكننا لم نشعر بالحائط الموجود فى الجانب الآخر.

- إنها امرأة - قلنا

فقال ذلك الذى تحدث عن الصناديق :

- أعتقد أنها نائمة.

تحرك الجسد تحت أيدينا. ارتعش، وشعرنا به وهو يتمطى، وكان ذلك الشعور مؤسسًا على أنه أصبح غير موجود أكثر من

الشعـور بابتعـاد ذلك الجسد. وبعـد هنيهة سكون، وقـد تصلبنا وتراصت أكتافنا إلى جوار بعضها سمعنا صوتًا يقول:

- من هناك ؟

- أجبنا دون أن نتحرك. - ها نحن.

سمع الصوت فى السرير، حيـث الصرير والأقدام تتحسس الشبـشب فى الظلام. عندئذ تصورنا المرأة جالـسة وهى تنظر إلينا لم تستيقظ بالكامل بعد.

- ماذا تفعلون هنا؟ قالت.

فقلنا :

- لسنا ندرى، فطيور الكروان فقأت عيوننا.

فقال الصـوت إنه سمع شيئًا مـثل هذا وأن الصحف قالت بأنه كان هناك ثلاثة رجـال يتناولون البيـرة فى فناء داخلى، حيث كان هناك خـمسة أو ستـة من طيور الكروان. وقام أحـد الرجال بترديد صوت الكروان.

- الأمـر السيئ أن الوقت كـان متـأخراً - قـال. . وعندئذ قفزت الطيور على المائدة وفقأت عيون الرجال.

قـال بأن الصحـف ذكرت ذلك لكن لـم يصدق أحـد هذه الرواية. فقلت :

- إذا ما كان الناس قـد ذهبوا إلى هناك لابد وأنهم قد رأوا طيور الكروان.

وقالت المرأة :

- لقد ذهبـوا. كان الفناء مليئاً عن آخـره بالناس فى اليوم التالى، لكن المرأة أخذت طيورِ الكروان إلى مكان آخر.

توقفت المرأة عن الكلام عندما اسـتدرنا. ها هو الحائط من جديد، إذ بمجـرد التحـرك هنا أو هناك بعض الشىء نجـد الحائط هناك. الحائط دائمًـا يلفنا ويحاصـرنا. سمعـناه مره أخرى يسـير متثاقلاً وهو يتحسس الأرض ويقول :

- لست أدرى أين هى الصناديق. أعتقد أننا نسير فى مكان آخر.

فقلنا :

- تعال إلى هنا. هناك أحدٌ ما إلى جوارنا.

سمـعناه وهو يقتـرب وشعرنا به وهو ينـهض إلى جوارنا، ومرة أخرى ضربتنا رائحته الدافئة فى وجوهنا.

- امدد يدك - قلنا له - هناك أحد ما يعرفنا.

لابد وأنه مد يده، و تحـرك إلى حيث نشيـر؛ ذلك أنه بعد لحظات عاد ليقول لنا:

- أعتقد أنه فتى.

فقلنا له :

- حسن، اسأله إذا ما كان يعرفنا.

فقام بالسؤال وسمعنا الصوت البسيط اللامبالى للفتى الذى كان يقول:

- نعم أعرفهم، إنهم الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم.

وعندئذ تحدث صوت بالغ. إنه صوت امرأة. يبدو أنها تتحدث من خلف باب مغلق. ها هو يتحدث مع نفسه.

فقال الصوت الطفولى بلا مبالاة :

- لا. ها هم من جديد الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم.

سمع صرير مفصلات، وبعد ذلك الصوت البالغ، وقد أصبح أكثر قربًا عن المرة الأولى.

- خذهم إلى منزلهم. قال.

فقال الفتى :

- لا أعرف أين يعيشون.

فقال الصوت البالغ :

- لا تكن سيئ الطبع. فكل الناس يعرفون أين يعيشون منذ تلك الليلة التى فقأت طيور الكروان عيونهم.

وبعد ذلك واصل حديثه بنغمة أخرى وكأنه متوجه بالحديث إلينا:

- ما حـدث هو أن الناس لم يريدوا تصديـق ذلك، وقالوا بأنه خبر كاذب أوردته الصحف لزيادة مـبيعاتها. فلم ير أحد هذه الطيور.

فقلنا :

- لكن قد لا يصدقنى أحد إذا ما ذهبت بهم إلى الشارع.

لم نكن نتحـرك. كنا ساكنين ومسـتندين إلى الحائط ونحن نسمع المرأة وهى تقول:

- إذا ما أراد ذلك أن يأخذهم فالأمر يـختلف. وعمومًا لن يُعير أحد اهتمامًا بما قد يقوله فتى.

فتدخل صوت طفولى :

إذا ما خرجت معهم إلى الشارع وقلت بأنهم الرجال الذين فقأت طيور الكروان عيونهم فإن الفـتية سوف يرموننى بالحجارة. فكل الناس يقولون باستحالة هذا الأمر.

مرت لحظة صمت، ثم عاد الباب ليغلق من جديد وعاد الفتى ليقول:

- أضف إلى ذلك أننى أقوم بقراءة قصة "تيرى والقراصنة".

فهمس فى آذاننا صوت:

- سوف أقوم بإقناعه.

سار متثاقلاً إلى حيث الصوت.

- هذا يروق لى - قال - فعليك على الأقل أن تروى لنا ما حدث لتيرى هذا الأسبوع.

فكرنا أنه يحاول كسب ثقته، لكن الفتى قال:

- هذا لا يعنينى فأهم شىء لدى هو الألوان.

- كان تيرى داخل تيه من الأنفاق - قلنا.

فقال الفتى :

- كان ذلك يوم الجمعة. ونحن الآن فى يوم الأحد، وما يهمنى هو الألوان - قال ذلك بصوت غير مبالٍ ولا حرارة فيه.

وعندما عاد الآخر قلنا :

- إننا على هذا الحال تائهون منذ ثلاثة أيام، ولم نركن للراحة ولو لحظة واحدة.

فقال أحدهم :

- حســن. سوف نرتاح بعض الوقت، لكن دون أن يتــرك أحدنا يد الآخر.

جلسنا. وأخذت شمس دافئة غير مرئية تدفئ أكتافنا. لكن لم يكن يهمــنا حتى وجود الشــمس. إننا نشعــر بها هناك فى أى مكان وقد فقدنا الإحساس بالمســافات والزمن والتوجه. مرت عدة أصوات.

- فقأت طيور الكروان عيوننا - قلنا.

فقال أحد الأصوات:

- لقد أخذ هؤلاء بما قالته الصحف.

اختــفت الأصوات. وظللنا جــالسين ملتصــقة أكــتافنا إلى بعضها البعض آملين أن نعــثر- فى مرور الأصوات هذه، وكذلك فى الصور - على رائحة أو صوت معروف لدينا.

واصلت الشمس تسخين رؤوسنا وعندئذ قال أحد ما :

- هيا بنا نحو الحائط.

بينما ظل الآخرون بلا حراك، رءوســهم مرفوعة نحو النور غير المرئى.

- ليس الآن بعد. لننتظر هنيــهة أخرى حتى تبــدأ الشمس فى لفح وجوهنا بشدة.



الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار

(١٩٦٢)

انتهى من صناعة القفص. وقام بلتثار بتعليقه فى مشبك يتدلى من السقف كما هى العادة. وعندما تناول طعام الغذاء سرى الحديث فى القرية بأنه صنع أجمل قفص فى العالم، فجاء أناس كثيرون ليروا القفص، وتجمهروا أمام باب منزله، ولم يكن أمام بلتثار إلا أن ينزل القفص، ويغلق ورشة النجارة.

- عليك أن تحلق ذقنك - قالت له زوجته أرسولا - تبدو كأنك راهب.

-قال بلتثار : ليس من المناسب حلاقة الذقن بعد الغذاء.

لم يحلق ذقنه منذ أسبوعين، وكان شعره قصيراً وقوياً وواقفاً كأنه عرف أحد البغال، أما الهيئة العامة فكانت لفتى أصيب بالهلع لكنه كان تعبيراً زائفاً. فقد أكمل الثلاثين من العمر فى فبراير. وكان يعيش مع أرسولا منذ ما يقرب من أربعة أعوام. ولكن دون أن يتزوجا أو يكون لهما أولاد. وقد أعطته الحياة الأسباب التى جعلته يتخذ هذا الموقف. لكن لم يكن هناك أى مبرر للهلع. حتى أنه لم يكن يعرف أن القفص الذى صنعه بدا للبعض أنه أجمل قفص فى العالم. ولما كان معتاداً على صناعة

الأقفــاص منذ صغره، لم يكن ذلك القــفص إلا عملاً آخــر مثل غيره اللهم إلا أنه بذل فيه جهدًا كبيراً.

- عليك إذن أن ترتاح بعض الوقت - قــالت المرأة - فأنت بهذا الذقن غير الحليق لا يليق أن تذهب إلى أى مكان.

فى الوقت الذى خلد فيه للراحة نهض من السرير، الشبكى المعلق، عــدة مرات حتى يتــفرج الجــيران على القفــص. لم تُعره أرسولا أى انتباه حتى هذه اللحظة. ذلك أنها أصيبت بالكدر لأن زوجها أهمل العمل فى ورشة النجــارة وكرس كل وقته للقفص، وظل لمدة أسبوعين ينام قليلاً. وعندما يحدث ذلك يتقلب ويهذى ببعض الكلمــات، وترك ذقنه بلا حلاقة. لكن ها قــد ذهب عنها الضيق عندما انتهى العمل فى القفص. وعندمــا استيقظ بلتثار من قيــلولته كــانت هى قد قــامت بكى البنطلونات وأحــد القمــصان ووضعتها على أحد المقاعد بجوار السرير الشبكى وحملت القفص ووضعته على مائدة حجرة الطعام، وكانت تتأمله صامتة.

- كم ستقبض ثمنًا له؟ سألت

- لست أدرى - أجاب بلتــثار - سوف أطلــب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين.

- عليك أن تطلب خمسين - قــالت أرسولا - لقد سهرت ليالى طويلة خلال هذين الأسبوعين. كمــا أنه قفص كبير. أعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى.

أخذ بلتثار يحلق ذقنه.

- أتظنين أنهم يمكن أن يعطونني خمسين بيزو؟

- هذا المبلغ لا يعنى شيئًا بالنسبة للسيد " شيبى مونتيل". كما أن القفص يساوى هذا المبلغ - قالت أرسولا - من الأنسب أن تطلب ستين بيزو.

كان المنزل فى الظل الخانق. وفى الأسبوع الأول من أبريل، ويبدا أن الحر أشد قسوة بسبب طنين الحشرات. وعندما انتهى بلتثار من ارتداء ملابسه فتح باب الفناء لتهوية المنزل، وعندئذ دخلت مجموعة من التلاميذ حجرة الطعام.

ذاع الخبر فى كل مكان. كان الدكتور العجوز أوكتابيو خيرالدو - السعيد فى حياته المتعب من ممارسة المهنة - يفكر فى القفص الذى صنعه بلتثار، يفكر فى ذلك أثناء تناوله طعام الغذاء مع زوجته المعاقة. كانا جالسين فى التراس الداخلى حيث توضع المائدة فى هذا المكان أيام القيظ يحيط بها الكثير من أصص الزهور بالإضافة إلى قفصين بهما طيور الكنارى.

كانت زوجته تعشق العصافير لدرجة أنها كانت تكره القطط فى المقابل إذ هى حيوانات قادرة على التهام العصافير. ولما كان الدكتور "خيرالدو" يفكر فى زوجته، توجه فى ذلك المساء لزيارة مريض، وعند عودته مر بمنزل بلتثار ليرى القفص.

كان هناك عدد كبير من الناس فى غرفة الطعام، وقد وضع القفص على المنضدة وقد علته القبة الضخمة المكونة من الأسلاك، هو قفص مكون من ثلاثة أدوار داخلية مع ممرات وأماكن خاصة لوضع الطعام والنوم، وكذلك أرجوحات فى الفراغات المخصصة لحركة العصافير. بدا القفص بهذا الشكل كأنه نموذج مصغر لمصنع ضخم لإنتاج الثلج، تأمل الطبيب القفص بعناية دون أن يلمسه، وتصور أن هذا القفص سوف يكون أغلى مما يطيق هو، كما أنه جميل لدرجة تفوق ما تصوره كهدية لزوجته.

- تلك هى مغامرة الخيال - قال هذه العبارة باحثًا عن بلتثار وسط مجموعة الحاضرين، وأضاف وهو يلقى نظرة حانية على القفص - كان من الممكن أن تكون مهندسًا بارعًا.

شعر بلتثار بالخجل.

- شكرًا - قال.

- هذا حقيقى - قالها الطبيب. كان ممتلئًا، لكن كانت سمنة ناعمة ولينة كأنها لامرأة تمتعت بالجمال أثناء فترة شبابها - كانت يداه رقيقتين - كما أن صوته يشبه صوت القسيس وهو يتحدث اللغة اللاتينية - كما أنه ليس من الضرورى أن توضع فيه أية عصافير - قالها وهو يقوم بتوجيه القفص ليكون أمام جمهور الحاضرين وكأنه يقوم ببيعه - يكفى أن يعلق وسط الأشجار فيغنى

مثل العصافير - ثم عاد لوضع القفص على المنضدة، وفكر هنيهة وهو ينظر إليه ثم قال:

- حسن، أنا مستعد لشرائه.

- إنه مباع - قالت أرسولا.

- إنه لابن "شيبى مونتيل" - قـال بلتثار - فقد طلب منى صناعته.

اتخذ الطبيب موقفًا مسئولاً.

- هل أعطى لك النموذج؟

- لا - قال بلتثار - لقد قال بأنه يرغب فى قفص كبير مثل هذا من أجل زوجين من طائر التوربيال (عائلة الببغاء).

فنظر الطبيب للقفص ثم قال:

- لكن هذا القفص لا يصلح لطيور "التوربيال"

- نعم يا دكـتـور - إنه لا يصلح - قـالها بلـتـثـار - وهو يقترب من المنضدة. أحاط به الأطفـال - لقد أخذت المقاسات فى الاعتـبار - قـال ذلك وهو يشيـر بالسبـابة إلى الأجزاء المختـلفة للقفص، ثم نقر على قبة القفص بظهر أصابعه فملأ القفص رنين عميق.

-السلك الذى استخـدم فى صنعه شديد المقاومـة، كما أن كل توصيلة تم لحامها جيدًا من الداخل والخارج - قال بلتثار.

- القفص يصـلح أيضًا للببـغاوات - تدخل أحـد الأطفال بالقول.

- هو ذاك - قال بلتثار.

هز الطبيب رأسه.

- حسن لكنه لم يعطك النموذج - قال - ولم يطلب منك شـيئًـا محـددًا، وكل مـا طلبه هـو قفص كـبيـر يصلح لطيـور "التوربيال" أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك. قال بلتثار.

- إذن ليست هناك مشكلة - قـال الطبيب - هناك فرق بين قفـص يصلح لزوجين من التـوربيال وهذا القـفص، كمـا أنه لا يوجد دليل على أن هذا القفص هو ما طلبوه منك.

- إنه هو نفسه - قال بلتثـار وهو يشعر بشىء من الضيق - ولهذا قمت بصنعه.

صدرت على الطبيب بوادر فقدانه الصبر.

- يمكن أن تصنع آخـرًا - قـالت أرسـولا وهى تنظر إلى

زوجها ثم تتـوجه بعينيها إلى الطبيب - سـيادتك لست فى عجلة من الأمر.

- لقد وعدت امرأتى به هذا المساء - قال الطبيب.

- أنا متأسف كثيراً يا دكـتور - قال بلتثار - لكن لا يمكن إعادة بيع شىء مباع.

هز الطبيب كتفيه وقام بتخفـيف العرق على رقبته مستخدمًا منديلاً وتأمل القـفص فى صمت دون أن يحـرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل مركبًا أخذ طريق السفر.

- كم أعطوك مقابلاً له؟

بحث بلتثار عن أرسولا دون أن يجيب.

- ستين بيزو - قالت.

ظل الطبيب يرمق القفص.

- إنه قفص جميل - تنهد - جميل للغاية.

ثم تحرك صوب الباب وأخذ يحـرك مروحة اليد بشدة وهو يبتسم ثم اختفت ذكريات ذلك المشهد من مخيلته للأبد.

- مونتيل رجل غنى - قال

لم يكن خوسيه مونتيل غنيًـا بالدرجة التى كان يبدو عليها، لكنه كان قادراً على الوصول إليـها. وعلى بعد قليل من المكان ها

هو هناك فى منزل ملىء عن آخره بسروج الخيل، حيث كل شىء قابل للبيع؛ كـان لا يبالى بالحديث عن القفص. أمـا زوجته التى تعيش حالة فزع من الموت فقد أغلقت الأبواب والنوافذ بعد طعام الغذاء واستـرخت ساعتين وعيناها مـفتوحتين فى محـيط الحجرة شبه المظلمـة بينما خوسيـه مونتيل ينام القيلولة. وبينـما هما على هذه الحال فاجأهمـا خليط من الأصوات. عندئذ فتح باب الصالة ورأى جمعًـا من الناس أمام الباب، ورأى بلتـثار وهو فى الوسط يحمل القـفص وقد ارتدى اللون الأبيض بعـد حلاقـة ذقنه. كان وجهه يحمل فرحة الفقراء وهم يقتربون من منازل الأغنياء.

- يا له من قفص رائع - قالت زوجة خوسـيه مونتيل وقد علا وجـهها بريـق وهى تقود بلتثـار إلى داخل المنزل - لم أر فى حياتى قط شيئًا مثل هذا - قالتها وأضافت وهى تشعر بالضيق من الجمع الذى التف أمام باب المنزل - لـكن عليك أن تأخذ القفص إلى الداخل فسوف يحولون الصالة إلى قفص للدجاج.

لم يكن بلتـثار غـريبًا على منزل خـوسيـه مونتـيل. فنظرًا لقدراته والتزامه استدعوه أكثر من مرة ليقوم ببعض أعمال النجارة البسيطة، لكنه لم يشعر بالراحة وسط الأغنياء. عادة ما كان يفكر فيـهم وفى نسائهم الـقبيـحات سيئات الـطباع، وفى العمـليات الجراحـية الكبرى اللاتى يجـرينها، وكان يشـعر بنوع من الشفـقة عليهن، وعندما كان يدخل منـازلهم لم يكن يتحرك إلا وهو يجر قدميه.

- هل بيبى هنا؟ سأل

كان قد وضع القفص على منضدة حجرة الطعام.

- إنه فى المدرسة - قالت زوجة خوسيه مونتيل - وسرعان ما سيعود إلى المنزل - ثم أضافت - مونتيل يأخذ حماماً.

فى الحقيقة لم يكن لدى خوسيـه مونتيل وقت للاستحمام، وكل ما فعله هو أن قام برش بعض مـاء الكولونيا ليخرج ويعرف ما الذى يجرى. كان رجلاً شـديد الحذر لدرجة أنه كان ينام دون تشغيل المروحة الكهربائية وذلك حتى لا يفوته، وهو نائم، سماع ما يجرى فى المنزل.

- تعال لترى هذا القفص المدهش - صاحت زوجته.

كان خوسيه مونتيل ممتلئًا غزير الشعر وقد علق الفوطة على رأسه ونظر من نافذة حجرة النوم.

- ما هذا؟

- إنه قفص بيبى - قال بلتثار.

- نظرت إليه المرأة بحيرة.

- لمن ؟

- لبيبى - أكد بلتثار، ثم توجه إلى خوسيه مونتيل قائلاً : طلب منى أن أصنعه.

لم يكن قد حدث شيء حتى هذه اللحظة، لكن بلتثار شعر بخجل شديد وكأن أحداً فتح عليه باب حجرة الحمام. خرج خوسيه مونتيل من حجرة النوم وهو يرتدى السروال.

- يا بيبى - صاح.

- لم يصل بعد - همهمت زوجته دون أن تتحرك.

ظهر بيبى على الباب. كان طفلاً فى الثانية عشرة من العمر، أهدابه مجعدة وعليه الهدوء المؤثر الذى لوالدته.

- تعال إلى هنا - قال خوسيه مونتيل - هل طلبت صناعة ذلك؟

طأطأ الطفل رأسه. فأمسك به خوسيه مونتيل من رقبته وأجبره على النظر إلى عينيه.

- أجب .

أمسك الطفل شفتيه بين أسنانه ولم يجب.

- يا مونتيل - همست الزوجة.

ترك خوسيه مونتيل الطفل واتجه إلى بلتثار - بلهجة من يشعر بالاستفزاز.

- أنا شديد الأسف يا بلتثار - قال - لكن كان عليك أن تبلغنى قبل أن تبدأ فى العمل. أنت الوحيد الذى يعنّ له التعاقد

مع حدث - أخذت تعبيرات الهدوء تعتلى وجـهه شيئًا فشيئًا. ثم رفع القفص دون النظر إليه وأعطاه لبلتثار.

- خذ القفص فى الحال وحاول بيعه ما أمكنك - قال ذلك - وأهم شيء أننى أرجوك ألا تناقشنى - ربت على كـتفه - وقال مفسرًا : لقد منعنى الطبيب من الانفعال.

كان الطفل سـاكنًا دون أن يتحـرك له جفن حتى رآه بلتـثار وقد اعتلته الحيرة وهو يحمل القفص فى يده. عندئذ أصدر صوتًا كأنه همهمـة أو كأنه كلب يعبر عن غضبـه، ثم ألقى بنفسه على الأرض وهو يصيح.

كان خـوسيه مـونتيل ينظر إليـه غير مـبال بينمـا تقوم الأم بتهدئته.

- لا ترفعيه من على الأرض - قال - اتركيه ليضرب رأسه فى الأرض وبعد ذلك نعالج الجـرح بالملح والليمون حتى يعـجبه ذلك.

ظل الطفل يـصـيح ويبكى دون دمـوع بينـمـا تمسك أمـه بمرفقيه.

- اتركيه - أصر خوسيه مونتيل.

تأمل بلتثار الطفل وكأنه ينظر إلى حيوان يحتضر من مرض معد. الساعة تقترب من الرابعة.

كانت أرسولا فى هذه الساعة فى منزلها تردد أغنية قديمة وهى تقطع حلقات البصل.

- بيبى - قال بلتثار.

اقترب من الطفل وهو يبتسم ومد يده إليه بالقفص. فوقف الطفل فى قفزة واحدة واحتضن القفص الكبير، ثم ظل يرمق بلتثار من خلال فتحات القفص دون أن يدرى ماذا يقول. لم تطفر دمعة واحدة من عينيه.

- يا بلتثار - قال خوسيه مونتيل برقة - قلت لك أن تأخذ القفص.

- أعد إليه القفص - قالت المرأة آمرة الطفل.

- هو لك - قال بلتثار - ثم توجه إلى خوسيه مونتيل - على العموم لقد صنعته لهذا الغرض.

طارده خوسيه مونتيل حتى الصالة.

- لا تكن أبلهًا يا بلتثار - كان يقول ذلك وهو يحاول منعه من الخروج - احمل حاجتك إلى المنزل ولا ترتكب المزيد من الحماقات. أنا لا أفكر فى دفع فلس واحد.

-هذا لا يهم - قال بلتثار - لقد صنعت القفص لأهديه إلى بيبى. لم أفكر فى أى مقابل.

وعندما أخذ بلتثار يفسح لنفسه الطريق وسط جمع الفضوليين المنتظرين أمام الباب كان خوسيه مونتيل يصيح وهو فى وسط الصالة. كان بلتثار منتفخ الوجه وأخذت عيناه فى الاحمرار.

- يا أبله - كان يصيح - خذ حاجياتك، ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى، يا لها من مصيبة!

فى صالون البلياردو، استقبل الحضور بلتثار مهللين. كان حتى هذه اللحظة يظن أنه صنع قفصًا أفضل من الأقفاص الأخرى، وأنه قد أهداه إلى ابن خوسيه مونتيل حتى يتوقف عن البكاء ولا شىء أكثر.

لكنه أدرك أن ذلك الأمر له أهمية كبيرة لدى الكثير من الناس، وعندئذ شعر بنوع من الانفعال.

- الأمر هو أنهم دفعوا لك خمسين بيزو مقابل القفص.

- بل ستين - قال بلتثار.

- يجب أن ترتفع الهامات إلى عنان السماء - قال أحد الحضور - أنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يأخذ من مونتيل هذا المبلغ من المال. يجب أن نحتفل بهذا.

قدموا له بيرة فـأجابهم بلتثار بدعوتهم جميـعًا على البيرة. ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها فقد سكر تمامًا مع حلول الظلام، كان يتحدث عن مشـروع ضخم عبارة عن صناعة ألف قفص سـعر كل واحـد منها سـتين بيزو، وبعـد ذلك مليون قفص بمبلغ إجمالى ستين مليون بيزو.

- لابد من صناعـة أشياء كـثيرة لنـبيعـها للأغنيـاء قبل أن تواتيهم المنية - قال هذه العبـارة وقد أعماه السكر - كلهم مرضى وسوف يمـوتون. لقد وصل الأمر بهم إلـى أنهم لا يقدرون على الانفعال.

ظل جـهاز الاسـطوانات الآلى يعـزف لمدة ساعـتـين على حساب بلتثار - وشرب الجـميع نخب بلتثار وحظه وثروته وموت الأغنياء. لكن عندما حانت ساعة تناول الطعام تركوه وحده.

انتظرته أرسولا حـتى الثامنة، وكـانت قد أعدت طبـقاً من اللحم المفروم المحمر والمغطى بحلقات البـصل. وقد قال لها أحد الناس أن زوجها متواجـد فى صالون البلياردو وقد جن جنونه من السعادة وأخذ يدعو الجميع إلى تناول البيرة على حسابه. لكنها لم تصدق ذلك ونامت حتى اقترب الليل من منتصفه. كان بلتثار فى الصالون المُضاء حيث توجد به مناضد صغيرة تتسع لأربعة، وهناك كراسٍ تحـيط بها، وكذلـك حلبة للرقص فى الهواء الـطلق حيث

تتنقل هناك طيـور الكروان. كـان وجهـه مـحمـراً، ولما لم يكن باستطاعته السير كان يريد مـضاجعة امرأتين مرة واحدة. لقد أنفق الكثير وكان عليه أن يترك ساعته رهنًا على وعد بأنه سيسدد الثمن فى اليـوم التالى. وبعـد ذلك بلحظات، وعندمـا أخذ يسـيـر فى الشارع أدرك أن هناك من ينتزع منه حذاءه، لكنه لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته. ولم تجرؤ على النظر إليه النسوة اللاتى كن ذاهـبات إلى قداس الخامسة فجراً ظنًا منهن أنه ميت.



قيلولة الثلاثاء

(١٩٦٢)

خرج القطار من الممر المتعرج المحاط بالصخور المائلة للحمرة، ودخل وسط زراعات الموز المتراصة التى لا تنتهى، وأصبح الهواء أكثر رطوبة، اختفت نسمات البحر. دخلت النافذة المفتوحة دفعة كثيفة من الدخان الخانق. وعلى الطريق الضيق الموازى لخط السكك الحديدية تسير عربات تجرها الثيران، محملة بعناقيد الموز الخضراء اللون، وعلى الجانب الآخر تظهر بين الفينة والأخرى مكاتب بها مراوح كهربائية وأفنية تحيط بها أسوار من الطوب الأحمر، ومنازل بها مقاعد، ومناضد صغيرة بيضاء اللون وقد وضعت جميعها فى الشرفات بين النخيل والورود المكسوة بالأتربة. كانت الحادية عشر صباحًا، ولكن لم يكن الحر قد بدأ بعد.

- من الأفضل أن تغلقى زجاج النافذة - قالت المرأة - سوف يمتلئ شعرك بذرات الفحم، حاولت الطفلة أن تغلق النافذة لكن لم تستطع بسبب الصدأ الذى يكسو الشباك. كانتا المسافرتين الوحيدتين فى هذه العربة المتواضعة من عربات الدرجة الثالثة. ولما ظل دخان القاطرة يدخل إلى العربة عبر النافذة تركت الطفلة مكانها ووضعت هناك الأمتعة الوحيدة التى تحملانها. كانت عبارة

عن شنطة من مادة بلاستيكية بها بعض الطعام وباقة زهور ملفوفة فى ورق الصحف. جلست على المقعد المقابل وقد ابتعدت عن النافذة، ووالدتها فى المقعد المقابل. كانت كلتاهما ترتديان ملابس الحداد الملتزمة والبسيطة.

الطفلة تبلغ اثنتا عشر عامًا، وهذه هى المرة الأولى التى تسافر فيها، أما المرأة فقد بدا أنها طاعنة فى السن بالمقارنة بابنتها، وهذا يرجع إلى العروق الزرقاء البارزة فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه. ترتدى فستانًا يشبه ملابس القساوسة. وتجلس وهى تسند ظهرها إلى مسند الكرسى. وبكلتا يديها تسند فى حجرها شنطة من الجلد اللامع وقد تقشرت. كانت تبدو عليها ملامح الهدوء مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر.

أخذت الحرارة تشتد فى الثانية عشرة. توقف القطار لعشر دقائق فى محطة ليس بجوارها أية قرى وذلك للتزود بالمياه. وفى وسط الصمت الغامض للمزروعات كان الظل نقيًا، لكن الهواء المتوقف داخل عربة القطار كان يحمل رائحة جلد غير مدبوغ. بعد هذه المحطة لم يعد القطار إلى السرعة المعهودة. وتوقف بعد ذلك عند قريتين متشابهتين حيث المنازل الخشبية المطلية بالألوان الزاهية. مالت المرأة برأسها وغرقت فى غفوة. قامت الطفلة بخلع حذائها ثم ذهبت بعد ذلك إلى المرحاض لتبلل باقة الزهور الذابلة.

وعندما عادت، كانت الأم تنتظرها لتناول الطعام، أعطتها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطة بسكويت مسكرة، وأخرجت لنفسها نفس الكمية من الشنطة المصنوعة من المادة البلاستيكية. وبينما تتناولان الطعام مر القطار ببطء شديد على كوبرى معدنى، وعن بعيد ترى قرية شبيهة بالقرى السابقة. والفارق هو أن ميدان القرية كان غاصًا بالناس. هناك تقف فرقة موسيقية تعزف مقطوعة مرحة، بينما الشمس تضرب بقوة، وعلى الجانب الآخر هناك وادى تحيط به الصحراء معلنة حدود الزراعات.

توقفت المرأة عن الأكل، ثم قالت:

- البسى الحذاء.

نظرت الطفلة إلى الخارج فلم تر شيئًا إلا الوادى القاحل الذى أخذ القطار يعبر منه ويأخذ سرعته المعتادة من جديد. وقامت بوضع البقية الباقية من البسكويت فى الشنطة ولبست حذائها. ثم قامت المرأة بإعطائها المشط وقالت :

- قومى بتسريح شعرك.

وبينما كانت الطفلة تسرح شعرها كان القطار يصفر، قامت المرأة بتجفيف العرق على رقبتها، وأزالت عرق وجهها بمسحة بأصابعها. وعندما انتهت الطفلة من تسريح شعرها مر القطار

بالمنازل الأولى لقرية أكبر من القرى السابقة.

- إذا ما كنت تريدين أن تفعلى شيئًا فعليك أن تفعليه الآن - قالت المرأة - فعليك ألا تشربى ماءًا من أى مكان حتى ولو اشتد بك العطش. وأؤكد على أنك لا يجب أن تبكى.

هزت الطفلة رأسها بالموافقة. كان الهواء الساخن والجاف يدخل من النافذة، وقد اختلط بصفير القاطرة والصوت الرتيب لعربات القطار القديمة. قامت المرأة بلف الشنطة بما بها من بقايا الطعام ثم وضعت فى الشنطة الجلدية. ظهرت صورة القرية كاملة منعكسة على النافذة كأنها وميض. كان اليوم هو الثلاثاء خلال شهر أغسطس. قامت الطفلة بلف باقة الزهور فى ورق الصحف المبلل وابتعدت أكثر عن النافذة ورمقت أمها بثبات. فهدأت الأم من قلق ابنتها. كان القطار قد توقف عن الصفير وأخذت سرعته تقل وتوقف بعد ذلك بلحظات.

لم يكن هناك أحد فى المحطة. وعلى الجنب الآخر من الشارع كان الرصيف مظللاً بأشجار اللوز، ولم يكن مفتوحًا إلا صالون البلياردو. القرية تغط فى القيظ. نزلت المرأة والطفلة من القطار وعبرتا المحطة المتهالكة حيث بلاط الأرضية تحيط به الحشائش من كل ناحية. ثم عبرتا الشارع حتى الرصيف الظليل.

الساعة تقترب من الثانية. والقرية تعيش فى هذه اللحظة

فترة القيلولة، فقد كانت المحلات والمكاتب العامة والمدرسة البلدية تغلق أبوابها فى الحادية عشرة، ثم تعود لاستئناف نشاطها قبل الرابعة بقليل، أى عندما يمر قطار العودة. ولم يظل مفتوحًا إلا الفندق الكائن أمام المحطة - والكانتين وصالون البلياردو ومكتب التلغراف الكائن إلى جوار الميدان. أما المنازل التى بنى معظمها طبقًا للنموذج الذى نفذته شركة الموز فقد كانت أبوابها مغلقة، أسدلت السواتر الخشبية على النوافذ. الحرارة شديدة داخل بعض هذه المنازل لدرجة أن سكانها كانوا يتناولون طعام الغذاء فى الفناء. وهناك آخرون قد جلسوا على بعض المقاعد يستظلون بأشجار الجوز ويقضون ساعة القيلولة فى الشارع.

أخذت المرأة والطفلة تسيران وهما تحتميان بظل شجر اللوز دون أن تعكرا صفو القيلولة على أحد. واتجهتا مباشرة إلى منزل القس. حكت المرأة الشبكة المعدنية للباب بأظافرها وانتظرت لحظات ثم عادت لتنادى. فى الداخل كان ينبعث صوت مروحة كهربائية. لم تسمع أية خطوات، هناك فقط صرير خفيف لباب يفتح ثم صوت حذر يقترب من الشبكة المعدنية : "من الطارق؟" حاولت المرأة أن تعرف المتكلم عبر الشبكة المعدنية.

- إنى أريد التحدث إلى الأب.
- إنه نائم الآن.
- الأمر عاجل - أصرت المرأة.

كان صوتها ينبئ عن عزم هادئ.

فتح الباب بعض الشيء دون أى صرير، وظهرت امرأة ناضجة وممتلئة وشاحبة اللون، وشعرها حديدى اللون. كانت عيناها تبدوان صغيرتين جداً وهما خلف زجاج النظارة الطبية.

- ادخلا - قالتها وفتحت الباب.

دخلتا حجرة صغيرة تفوح منها رائحة معتقة للزهور. قادتهما سيدة المنزل إلى مقعد خشبى وأشارت إليهما بالجلوس. جلست الطفلة، لكن الأم ظلت واقفة بلا حراك وهى تحمل الشنطة الصغيرة بين يديها، لا تسمع أية جلبة غير صوت المروحة الكهربائية.

ظهرت سيدة المنزل على الباب الداخلى.

- إنه يقول: عليكما أن تعودا بعد الثالثة - قالتها بصوت خافت - لقد خلد للنوم منذ خمس دقائق.

- إن القطار سوف يغادر البلدة فى الثالثة والنصف - قالت المرأة.

كان ردها موجزاً وواثقًا، لكن ظل صوتها هادئًا، ابتسمت سيدة المنزل لأول مرة.

- حسن - قالت.

عندما أغلق الباب الداخلى مرة أخرى، جلست المرأة إلى جوار ابنتها. كانت صالة الاستقبال الضيقة متواضعة ومنظمة ونظيفة. وعلى الجانب الآخر من أحد الحواجز الخشبية التى كانت تقسم الحجرة. كانت هناك منضدة للعمل، تتسم بالبساطة، يغطيها مفرش من البلاستيك وفوقها ماكينة للكتابة قديمة الصنع، وإلى جوارها كوبًا به بعض الزهور. وخلف ذلك كان أرشيف الكنيسة الصغيرة. ومن الواضح أن المكتب قد رتبته امرأة غير متزوجة.

عندما فتح الباب الداخلى مرة أخرى ظهر القس وهو ينظف زجاج النظارة بمنديل، وعندما وضعها على عينيه بدا من الواضح أنه شقيق السيدة التى فتحت لهما الباب.

- ماذا يمكن أن أفعل لكما؟ سأل.

- مفاتيح المقابر - قالت المرأة.

كانت الطفلة تجلس وهى تحمل الزهور فى حضنها وقد التفت رجليها تحت المقعد.

نظر إليها القس ثم نظر بعد ذلك للمرأة ثم نظر إلى السماء الصافية عبر الشبكة المعدنية للنافذة.

- إن الجو حار جدًا - قال - كان من الممكن أن تنتظرا حتى قبل الشمس قليلاً.

حركت المـرأة رأسها فى صـمت. انتقل القس إلـى الجانب الآخر من الحـاجز الخشـبى وأخذ كراسـة مجلدة بالبلاسـتيك من الدولاب، ثم قلمًـا من البوص ومـحبرة، وجلس إلى المـنضدة. والشعـر الذى كانت رأسـه تفتـقر إليـه كان يزيد عن حـدة على ذراعيه.

- أى مقبرة سوف تزوران؟ - سأل.

- إنها مقبرة كارلوس ثنيتنو - قالت المرأة.

- كارلوس ثنتينو - كررت المرأة.

ظل القس على وضعه وكأنه لم يفهم شيئًا.

- إنه اللص الذى قتلوه هنا خلال الأسبوع الماضى - قالت المرأة بنغمة ثابتة - أنا أمه.

تفـحصـها الـقس جيـدًا، ونظرت إليـه المرأة بثبـات وهى متـماسكة وهادئة. وشـعر الأب بشىء من الخـجل. وطأطأ رأسه ليكتب. وبينما يملأ الورقة بالبـيانات أخذ يطلب من المرأة بياناتها الشخصية، فكانت تجيبه بلا تردد، وتذكـر التفاصيل الدقيقة كأنها تقرأ نـصًا. أخذ الأب يتـصبب عـرقًا، فكت الطفـلة أزرار حذاء قدمها اليسرى ثـم خلعت الحذاء وسندت رجلها إلى رجل المقعد، وفعلت نفس الشىء مع القدم اليمنى.

*

بدأت الخيوط الأولى للأحداث يوم الاثنين من الأسبوع الماضى فى حوالى الثالثة فجراً، وعلى مسافة قصيرة من هذا المكان. شعرت السيدة دبيكا - وهى أرملة تعيش بمفردها فى منزل ملىء بالأمتعة المتهالكة - بأن ثمة صوت يسمع من خلال صوت المطر الخفيف، وأن أحداً ما يحاول أن يكسر الباب من الخارج. فنهضت وبحثت وسط ملابسها عن مسدس قديم لم تنطلق منه أى طلقة، منذ أيام العقيد "أوريليانو بوين ديا"، ثم اتجهت إلى الصالة دون أن تشعل النور. وأخذت تتوجه يقودها خوف تربى داخلها على مدى ثمانية وعشرين عاماً باحثة من خلال خيالها عن المكان الذى فيه الباب وكذا الارتفاع المحدد للمزلاج.

أمسكت السلاح بكلتا يديها ثم أغمضت عينيها وضغطت على الزناد ولأول مرة فى حياتها تطلق النار. وبعد هذه الطلقة لم تشعر بشىء على الإطلاق اللهم إلا صوت قطرات المطر المتساقطة على السقف المصنوع من الزنك. وبعد ذلك سمعت صوت ارتطام معدنى على الرصيف الأسمنتى وصوت واهن ومستسلم لكنه منهك للغاية.

" آه يا أمى" كان الرجل الميت والملقى أمام المنزل، وقد تهتك أنفه، يرتدى فانلة مقلمة وبنطلوناً عادياً يربطه بحبل بدلاً من الحزام. كما كان حافى القدمين. لم يتعرف عليه أحد فى القرية.

- إذن كان اسمه "كارلوثنتينو" - همهم الأب عندما انتهى من الكتابة.

- كارلوس ثنتينو آيالا - قالت المرأة - كان الابن الوحيد.

عاد القس إلى الدولاب. وفى داخل الباب كان هناك مفتاحان قديمان يعلوهما الصدأ معلقان على أحد المسامير، وقد عاشت الطفلة والأم عندما كانت طفلة، وكذلك القس عندما كان صغيراً خيال هذه المفاتيح على أنها مفاتيح القديس بطرس. فأخذها ووضعها على الكراسة المفتوحة وأشار بالسبابة إلى مكان على الصفحة المكتوبة وهو ينظر إلى المرأة.

- وقعى هنا.

نقشت المرأة اسمها وهى تمسك بالشنطة الجلدية تحت أبطها. وأخذت الطفلة الزهور ثم توجهت إلى الحاجز وهى تجر حذاءها وتراقب أمها باهتمام.

تنهد القس.

- ألم تحاولى أن تجعليه يسير فى الطريق القويم؟

- فأجابت المرأة بعد أن فرغت من نقش اسمها.

- كان رجلاً طيبًا.

أخذ القس يتنقل بـعينيه بين الأم والطفلة ورأى وهو يشـعر بشىء من الخـجل الرحيم أنهـما لـم تدمـعا. اسـتمـرت المرأة فى حديثها دون أن تتغير نبرتها.

- لقد قلت له بألا يـسرق أبدًا من إنسان يكون فى حـاجة للطعام، وكان يعمل بما أقول لـه. وقبل ذلك، عندما كان يمارس رياضـة الملاكـمـة كـان يقضـى ثلاثة أيام فى السـرير يعـانى من الكدمات وآثار اللكمات.

- اضطر لخلع أسنانه كلها - قالت الطفلة.

- بالفعل - أكـدت المرأة - وكل لقمـة كنت أمضغـها فى تلك الفترة كـان طعمها هو الضربات التى يكيلونهـا لابنى مساء السبت.

- لا راد لقضاء الله - قال الأب.

لكنه نطق العبـارة بشىء فيه بعض من عـدم الاقتناع، ذلك من تجـارب الحياة وكـذلك بتأثـير الحر. طـلب منهمـا أن تحمـيا رأسيهمـا حتى لا تصابا بضربة شمس. أشـار وهو يتثاءب ويكاد ينام إلى الطريقـة التى تستطيعـان من خلالها الـعثور على القـبر. وعندما تعودان ليس من الضرورى أن تناديا عليـه، وما عليهما إلا أن تتركا المفاتيح من تحت الباب وكذلك صدقة للكنيسة إذا ما كان معهما. أنصتت المـرأة للشرح باهتمام بالغ، لكنها شكرته دون أن تبتسم.

وقبل أن يفتح الأب الباب المؤدى إلى الشارع أدرك أن هناك أحـد ما ينظر إلى من بالداخل إذ كـانت أنفـه ملتصـقة بالشـبكة المعدنية للبـاب. كانوا مجموعة من الأطفال، وعنـدما فتح الباب عن آخره تفرقوا. وعادة ما لا يوجد أحد فى الشارع فى مثل هذه الساعـة، لكن كان هـناك الأطفال ومجـموعـات من الناس تحت ظلال الجوز. تفحص الأب الشـارع الذى تبدلت أحواله - وأدرك ماذا يحدث. ثم عاد لإغلاق الباب فى هدوء.

- انتظره دقيـقه - واحدة - قال هذه العـبارة دون أن ينظر إلى المرأة.

ظهرت أخته على الباب الداخلى وهى تحـمل جاكتة سوداء على قميص نومهـا، وقد انساب شعرها على كتـفيها، نظرت إلى الأب فى صمت.

- ماذا هناك. سأل الأب.

- لقد تنبه الناس - همهمت الأخت.

- من الأفضل أن تخرجا من باب الفناء - قال الأب.

- لا فرق - قالت الأخت - الناس فى كل مكان.

- وحـتى هذه اللحظة بدا أن المرأة لم تـفهم مـا يجـرى - حاولت أن تتطلع إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية ثم أخذت

باقـة الزهور من الطفلة واتجـهت صوب البـاب. فسـارت الطفلة خلفها. قال الأب:

- انتظرا حتى تميل الشمس قليلاً.

- سوف تتصـببان عرقًا - قـالت الأخت وهى ساكنة وسط الصالة - انتظرو وسوف أعيركما شمسية.

شكرًا ردت المرأة الأمر أفضل هكذا.

أمسكت ذراع ابنتها وخرجت إلى الشارع.



جنازة الأم الكبرى

(١٩٦٢)

أيها الجاحدون فى هذا العالم، هذه هى القصة الحقيقية للأم الكبرى، العاهل المطلق لمملكة ماكوندو، التى عاشت ولها السيطرة الكاملة طوال اثنين وتسعين عامًا، ثم توفيت وكأنها قديسة، يوم الثلاثاء من الشهر الماضى وحضر قداسة البابا تشييع جنازتها.

لقد استعادت الأمة توازنها بعد الهزة العميقة التى أصابتها. كما أخذ العديد من الناس يلتقطون أنفاسهم بعد فترة ترقب وانتظار طويلين. كان منهم عازفو مزمار القرية ومهربو بلدة "غواخيرا" ومزارعو الأرز فى "سينو" وفتيات الليل فى "غواكامايال" والسحرة فى "سيربى" ومزارعو الموز فى أراكاتاكا. كما عاد رئيس الجمهورية لاستئناف مهام منصبه، وكذلك الوزراء وكل هؤلاء الذين يتولون مناصب عامة، وأولئك الذين يمثلون قوى ما وراء الطبيعة أثناء الفرصة السانحة التى تمثلت فى هذه الجنازة العظيمة التى تسجلها صفحات التاريخ. الآن وقد صعد قداسة البابا إلى الملأ الأعلى جسدًا وروحًا وأضحى من المستحيل التجول فى ماكوندو نظرًا لكثرة ما خلفته الجنازة من زجاجات فارغة وأعقاب السجائر والعظام المكسرة والعبوات المعدنية والخرق

البالـية والروث إلى غـير ذلك مما خلفـته الجـموع التى حـضرت الجنازة. ها قـد حانت سـاعـة وضع كرسى عـالٍ والجلوس على قارعة الطريق والبدء فى سرد تفصيلى لهذا الفورانً الوطنى قبل أن يتوفر الوقت لدى المؤرخين.

منذ حوالى أربعة عـشر أسبوعًا وبعـد اليال طويلة لا تنتهى من الكمادات ولصقات الخردل والحجامة، أمرت "الأم الكبرى"، التى أنهكها هذيان الاحتضـار بأن يجلسوها على سريرها الشبكى القديم لتـعبر عن طلـبها الأخـير. وكان ذلك هو الشىء الوحـيد السـابق على موتهـا. فصـبـاح ذلك اليوم كـانت قد أنجـزت كل التفاصيل المتعلقة بروحهـا من خلال الأب أنطونيو إيسابيل. أما ما بقى فكان توزيع ثروتها على أبناء إخوتها ويبلغ عددهم تسعة وهم الورثة الطبـيعيـون لها والذين تحلـقوا حول سـريرها. ظل القس يتكلم بمفرده، كـان على وشك إكمال مائة عام مـن العمر، وبقى فى الحجرة. لكنه حتى يصل إلى حـجرة الأم الكبرى كانت هناك حاجة إلى مـساعدة عشرة رجال، واسـتقر الرأى على أن يظل فى هذه الحجـرة حتى يوفروا على أنفـسهم تعب نزوله وصعـوده مرة أخرى فى الدقائق الأخيرة.

ذهب نيكانور ابن الأخت الكبرى - الضـخم الجثة، الفظ، الذى يرتدى الكاكى وحذاء ذا رقبة به مهماز ويحمل مسدسًا عيار ٣٨ ذا ماسورة طويلة يضعـه تحت القميص - للبحث عن الكاتب

المحلف. توقف كل شيء منذ أسبوع في البيت الضخم المكون من طابقين والذى تنفذ فى أرجائه رائحة العسل الأسود والكافور وما تحتويه خزائنه من صناديق وحاجيات قديمة تعود إلى أربعة أجيال مضت وقد تحولت كلها إلى رماد، انتظاراً لهذه اللحظة. وفى الردهة الرئيسية الممتدة والمليئة بأسياخ الحديد التى كانت تعلق فيها لحوم الخنزير المملحة وتصفى الأيائل من دمها أيام الآحاد من شهر أغسطس، كان العمال ينامون متراصين على أجولة الملح، وعلى رد عدد العمل فى الحقول انتظاراً للنواح والإعلان بذلك عن الخبر السيئ وسط أرجاء ذلك المُلك الذى لا حدود له. أما باقى أفراد الأسرة فقد ظلوا فى الصالة. فالنساء اتشحن بالسواد وأصابهن الشحوب من جراء القلق على الميراث والسهاد. كن يرتدين ملابس الحداد المبالغ فيها وكأنه حداد فوق حداد. ذلك أن "الأم الكبرى" اتسمت بالتشدد فى مشاعر الأمومة وأحاطت ثروتها واسمها بسياج متين بداخله كان الأعمام يتزوجون ببنات الأخوات، وأبناء الأعمام يتزوجون بالعمات، والأخوة يتزوجون بأصهارهن من النساء حتى أصبح الأمر عبارة عن شبكة معقدة من القرابة، وبذلك دخلت عملية التناسل فى حلقة مفرغة. ولم تستطع الإفلات من هذا الحصار إلا "ماغدالينا" أصغر بنات الأخوة. ولما أفزعها الهذيان قام برقياها الأب أنطونيو إيسابيل وحلقت شعر رأسها ورفضت ملذات الدنيا وسارت فى طريق الرهبنة. وإلى جانب أفراد العائلة الرسميين كان الذكور قد

استخدموا حقهم فى فض بكارة عـرائس مخدوميهم المنتشرين فى الأكواخ والعـزب والمنازل، وبذلك كان هناك عـدد كبـير من أبناء السفـاح منتشـرين بين الناس البسطاء وليس لهم ألـقاب اللهم إلا الابن بالتبنى والتابع والمفضل والذى يحظى بحماية الأم الكبرى.

أثار قـرب أجل الأم الكبـرى حـالة ترقب شـديدة. كـان صوت هذه التى تحـتضر والتى تعودت على عـبارات المديح وعلى أن يطيعها الآخـرون واهنًا كأنه أقل درجات آلة الأرغن، لكنه مع كل هذا له صداه فى كافة أرجاء أملاكها. فلم يكن أحد بمعزل أو غير مـبال بحالة الوفاة هذه. كانت الأم الـكبرى طوال هذا القرن بمثابة مـركز الجاذبيـة فى ماكوندو، كـما كان على ذلك أشـقاؤها ووالديها وأجدادها فى الماضى الذى امتـد لقرنين من الزمان. لقد تأســست القرية حـول لقبـهـا، ولم يكن أحد يعـرف الأصل أو الحدود أو القيمة الحـقيقية للتركة، إلا أن الناس جمـيعهم اعتادوا على الظن بأن الأم الـكبـرى هى مـالكة للمـيـاه، الجـارية منهـا والراكدة، الآتية عن أمطار سابقـة أو لاحقة، وأنها مالكة الطرق المجاورة وأعـمدة التلغراف. والسنوات الكبـيسة والحـر، وأن لها الحق الموروث على الحـيـاة والأملاك. وعـندما تجلس فـى شرفـة منزلها بجـسدها الضـخم وسلطانها المحشـورين فى هذا الكرسى الهزاز القديم لتـستمتع بنسمـات ما بعد الظهيرة كـانت تبدو قوية وغنية، أى السيدة الأكثر قوة وغنى فى هذا العالم.

لم يخطر على بال أحد أن "الأم الكبرى" فانية، اللهم إلا أفراد عائلتها، وكذلك هى نفسها بعد أن وخزتها علامات الشيخوخة التى يعانى منها الأب أنطونيو إيسابيل. إلا أنها كانت واثقة أنها سوف تعيش أكثر من مائة عام مثل جدتها لأمها التى استطاعت خلال حرب عام ١٨٧٥ أن تواجه دورية للعقيد "أوريليانو بوين ديا". وقد فعلت ذلك متحصنة فى مطبخ أعزل. إلا أنه أثناء شهر أبريل من هذا العام عرفت الأم الكبرى أن الله لن يساعدها على أن تقوم بنفسها بالقضاء على مجموعة من الماسونيين الفيدراليين.

خلال الأسبوع الأول من مرضها قام الطبيب بتخفيف الآلام من خلال ضمادات الخردل والجوارب الصوفية. كان طبيبًا بالوراثة، تخرج فى مونبيلييه، وكان على قناعة تامة بعدم جدوى التقدم فى مضمار الطب. وقد قامت الأم الكبرى بمنع أى طبيب آخر لإقامة عيادته فى ماكوندو. وفى الزمن الذى مضى كان يطوف بأرجاء القرية ممتطيًا صهوة الجواد، وذلك لزيارة مرضاه فى فترة المساء. كما أن الطبيعة حبته ميزة أن يكون أبًا لأبناء ليسوا من صلبه. لكن التهاب المفاصل جعله يقبع فى مكانه، وانتهى به الأمر ليعود مرضاه دون زيارته لهم، وكان ذلك من خلال المراسيل والافتراضات وتناقل الأخبار المرضية.

وعندما طلبته الأم الكبرى عبر الميدان وهو يرتدى البيجامة متكئًا على اثنين من العصى، واستقر به المقام فى حجرة نوم

المريضة . وعندما أدرك أن الأم الكبرى تعـيش لحظاتها الأخيرة أمر بأن يأتوا له من المنزل بصندوق فيـه بعض الأوانى من البورسلين، وقد كتبت عليها بعض الرموز باللغة اللاتينية. قام بدهان المحتضرة فى الأجـزاء الظاهرة وتحت المـلابس بمجـمـوعـة من اللصـقـات الأكاديمية وماء الورد الطبى والتحاميل العظيمة التأثير. وبعد ذلك وضع على مكان الألم علجـوم مبلل والعلق على الكليتـين حتى فجر ذلك اليوم الذى كان عليـه أن يواجه أحد أمرين: إما أن يتم استـدعاء المتخصص فى الحـجامة، أو يقوم الأب أنطونيـو إيسابل بقراءة بعض التعاويذ.

أمر نيكانو بالبحث عن القسيس، وقـام أفضل عشرة رجال عنده بحمل الرجل من المنزل المخصص للقساوسة حتى مخدع الأم الكبـرى وهوة جالس على الكرسى الهـزاز المصنوع من الخـيزران الذى وضعت عليه شلتـة خاصة للمناسبـات الكبرى. كان توزيع الطعام ذات صبـاح حار من شهر سبتـمبر أول بادرة لإبلاغ سكان ماكوندو. وعندما أشرقت شمس ذلك اليـوم تحول الميدان الصغير المواجه لمنزل الأم الكبرى إلى واحد من مشاهد الأسواق الريفية.

بدا الأمر وكـأنه إحياء لذكرى أزمنة مـضت، وذلك عندما بلغت الأم الكبرى السـبعين من العـمر واحتـفلت بعيد مـيلادها احتفالاً بهيجًا وطويلاً لم يعـرف بمثله من قبل، فقد نصبت أماكن تقـديم المشروبـات الكحوليـة لكل أبناء القـرية وذبح العـديد من

رؤوس الماشيـة فى الميدان العـام. وتم استدعـاء جوقة مـوسيقـية أخـذت تعـزف دون انقطاع لمدة ثلاثة أيام. وتحت ظلال أشـجـار اللوز، التى علا التراب أوراقها، عسـكرت قوات العقيد أوريليانو بوين ديا، وأقـيـمت منافـذ لبـيع خـمـر قصب الـسكر والفطائر والسجق المحـشو بالدم، وشحم الخنزير المقلى، والـفطائر المملحة المحشوة، والسجق والجبن والكعك المقلى والرقاق المحشو والنقانق الأسـبـانيـة وأحـشـاء الذبائح والكعك المصـنوع من جـوز الهند ومشتقـات عصير قصب السكر المخمـر. وإلى جانب ذلك العديد من أماكن بيع أدوات التزيـن الصغيرة والبسـيطة، وكذا أماكن بيع الأوانى وحلقات مصارعـة الديكة ومناضد لعب اليانصيب ووسط ذلك الجـمع الحـاشـد من الأمـاكن والناس كـانت تبـاع الصـور والأوشحة التى تحمل صورة الأم الكبرى.

كانت الاحتفالات تبدأ قبل يوم عـيد الميلاد بيومين، وتنتهى بعـد ثلاثة أيام. وفى اليـوم الثالث تطلق الألـعاب النارية وتقـام حلبات للرقص بـين أفراد الأسر داخل منزل الأم الكبـرى، وكان يقوم على تلبـية وخدمـة المدعويين وباقى أبناء أسـرة الأم الكبرى هؤلاء، أبناء السـفاح. المدعـوون وغيـرهم يرقـصون على أنغـام البيـانولا القديمـة التى تم تزيينها بأشـرطة حديثـة. الأم الكبرى ترأس الاحتفـال وهى جالسة فى عمق الصـالون على كرسى وقد حُشيت حولها الوسائد الصوفيـة. وأثناء الاحتفال تصدر تعليماتها

بطريقـة مستـترة من خـلال تحريك يدها اليـمنى التى تزين كـافة أصابعها خواتم مختلفة. وفى تلك الليلة كانت تقوم بترتيب وعود الزيجـات للعام التـالى، وذلك يتم إما بالاتفـاق مع العـشاق أو انطلاقًا مـن تخمينهـا الشخـصى. كانت الأم الكبـرى تخرج إلى الشرفـة فى تلك الليلة لتعلن انتـهاء الاحتـفالات وهى تضع على رأسـهـا بعض الحلوى والأوراق الملونة وتلقى بـقطع العـملة على جمهور الحاضرين.

كانت هذه الاحـتفـالات قد توقـفت وذلك لفتـرات الحداد المتعاقبـة للأسرة، وكذا لعدم الاستقـرار السياسى الذى لوحظ فى الأعوام الأخـيرة. ولـم تشهـد الأجيال السـابقة تلك الاحتـفالات البهيـجة إلا عن طريق الروايات التى يتم تناقلها عبـر الأجيال. إذ لـم تسـتطع تلك الأجـيـال أن تشـهد الأم الـكبرى وهى تحـضـر القداس، ويقوم بعض أفراد السلطة المدنية بالتـهوية عليها، وكانت تفخر بميزة أنها لا تركع أثناء القداس حفاظًا على التنورة المصنوعة أدوارها فى هولندا. وحتى لا يتجعـد الثوب المكوى بالنشاء. كان كبار السن يتذكرون الحصير الممتد لمسافة مائتى متر من المنزل وحتى المذبح الكبيـر وكأنهم يهذون بلمـحات من أيام الصبا. يتـذكرون أيضًا ذلك المساء الذى حضرت فيه "مـاريا دل روساريو كاستانيدا إى مونتيرو" تشييع جنازة والدها ثم عادت بعد ذلك وهى ممشوقة القوام رافعة رأسها ترتدى الحلل البـهية لمركزها الجديد وقد تحولت

إلى الأم الكبرى وهى فى سن الثـانية والعشـرين. وتنسب صورة العـصـور الوسطى هذه لا إلى مـاضى الأسرة فـحـسب، بل إلا ماضى الأمـة أيضًا. ومع مرور الأيام أصبـحت لا ترى إلا قليلاً، وعندما تظهـر كان ذلك قبل المساء فى شـرفتها وقد أحـاطت بها حـرارة الجـو. وبذلـك كـانت صـورة الأم الكبـرى تـأخـذ نمطًا أسطوريًا. تمارس سلطاتها من خلال نيكانور. كـما أن هناك عهدًا غير معلن، على أساس التقاليد، يقول بأنه عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الأم الكبرى مـن كتابة وصيتها وختمـها بالشمع الأحمر يقوم الأقرباء بإعـلان الاحتفالات الشعبـية لمدة ثلاث ليالى. لكن كان معروف أيضًا أنها قررت عـدم الإفصاح عن آخر رغبة لها إلا عند اللحظات الأخيرة لحيـاتها. ولم يكن أحد يفكر جديًا فى أن الأم الكبرى سـتموت يومًا. لكن عندمـا استيقظ سكان مـاكوندو ذلك الصباح على توزيع طعام الصـدقة اقتنعوا ليس فقط بأن الأم الكبرى فانية بل أنها تحتضر.

كانت سـاعتها أكـيدة. فهى ملقـاة فى سريرها المصنوع من الكتان وقد ضمـد جسدها حتى أذنيها بالألوة وعلتـها ظلة أهدابها متربة، ولا تكاد عـلامات الحياة تلاحظ من خلال تنفـسها الواهن الذى يلمح عبـر الحركة الضـعيفة لنهـديها الكبيـرين. كانت الأم الكبـرى - التى تقدم لهـا العرسـان من كل صوب وحـدب حتى بلغت سن الخمسين، لكنها رفضتهم جـميعًا - تحتضر وهى عذراء

بلا أبناء. وفى لحظة المسحة طلب الأب أنطونيو إيسابيل المساعدة ليمسح كف يديها بالزيت ذلك أنه عندما بدأت لحظات الاحتضار كانت تقبض يديها. لكن لم تفلح فى شئ تلك المساعدة التى قدمها أبناء إخوتها. وطوال أسبوع من المحاولات ضمت المحتضرة يدها المليئة بالأحجار الثمينة إلى صدرها وسلطت ناظريها على بنات الأخوات لكنها كانت نظرة لا تحمل أى حرارة، ثم قالت "أيتها الناهبات" ثم رأت الأب أنطونيو إيسابيل وهو يرتدى ملابس الجنازة وكذلك مساعده وهو يحمل أدوات القداس، فهمهمت بعبارة فيها قناعة الإذعان : "إننى أموت" . وعندئذ نزعت من إصبعها الخاتم ذا الماسة الكبرى وأعطته "لماغدالينا" على أساس أنها أصغر الوريثات. كان ذلك بمثابة نهاية تقليد وعرف: ذلك أن ماغدالينا رفضت هذا الإرث وتبرعت به للكنيسة.

عند شروق الشمس طلبت الأم الكبرى أن يتركوها وحدها مع نيكانور وذلك لإعطائه آخر وصاياها. . ولمدة نصف ساعة طلبت إبلاغها تفصيليًا بمسار أمورها المالية وهى فى كامل قواها العقلية. وقامت بالإعراب عن رغبتها بالنسبة لمصير ومثوى جثتها وتركت وصاياها إلى آخر الحديث: "عليك أن تكون واعيًا - قالت - وعليك أن تحافظ على المقتنيات الثمينة ذلك أن الكثير من الناس يقصدون الجنازات بغرض السرقة" . وبعد أن أصبحت

وحيـدة يرافقهـا القس اعترفت تفـصيليًا بآثامـها وتلا ذلك لحظة التناول، لكن هذه اللحظـة كانت فى حـضور أبناء أخـوتها وقـد طلبت عندئذ أن يجلسوها فى الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة لتعبر عن آخر رغباتها.

كان نيكانور قد أعد قائمة من أربعة وعشرين صفحة مكتوبة بخط واضح تضم كـافة ممتلكاتهـا. تتنفس باستكـانة وكان الأب والطبيب شاهدين. قامت الأم الكبرى بـإملاء قائمة ممتلكاتها على الكاتب المحلف، وهذه الممـتلكات هى المصـدر الوحيـد والكبيـر لعظمتهـا وسلطتها. ممتلكاتهـا الفعلية عبارة عن ثـلاث إقطاعيات ممنوحة من خلال مـرسوم ملكى أثناء الفترة الاستـعمارية. وبمرور الزمن، ومن خلال زيجـات المصلحة، آل كل ذلك إلى ملك الأم الكبرى. وعلى هذه الأراضى الواسعة وغير واضحة الحدود، التى كانت تنتـشر عبـر خمسـة قرى والتى لم تزرع فيـها حبـة واحدة لحسـاب الملاك، كانت تعيش ٣٥ أسـرة بصفتهـا مستـأجرة لتلك الأراضى. وكانت الأم الكبـرى قبل يوم الاحـتفال بعـيد اسمـها تمارس سلطة الملـكيـة التى حـالت دون عـودة هذه الأراضى إلى أملاك الدولة. وتمثلت السلطة فى تلقى الإيجـار من المستأجرين. فكانت تجلس فى الردهة الداخليـة لمنزلها وتتلقى بنفـسها حـقوق الإقامة على أراضيها سيرًا على عـادة أسلافها التى امتدت ما يزيد على قرن من الزمان. وبعد مرور أيام التـحصيل الثلاثة كان الفناء

يمتلئ عن آخره بالخنازير وديوك الرومى والدجاج والأعشار وحصص الفواكه، كل ذلك كان الحصاد الوحيد الذى لم تأخذ الأسرة بيديها أبدًا من أراضٍ ميتة منذ البداية، والتى كانت مساحتها تقدر بحوالى مائة ألف هكتار. لكن الظروف التاريخية أدت إلى أن تنمو وتزدهر داخل هذه المساحة القرى الست التابعة لماكوندو، وبذلك كانت كان كل من يسكن فى إحدى الدور لم تكن حقوقه تتجاوز حقوق الآخرين على الأراضى، ذلك أنها كلها تدخل ضمن أملاك الأم الكبرى، وإليها يتم سداد الإيجار مثلما يفعل السكان مع الحكومة عندما يقومون بسداد ما عليهم لها مقابل حق استخدامهم للشوارع.

وفى المناطق المحيطة بالكفور كان هناك عدد من الحيوانات، لم يعرف عددها أبدًا، تسير طليقة فى كل مكان وقد ظهرت على مؤخرتها علامة - بالكى - تشبه القفل. هذه العلامة أضحت مألوفة مع مرور الزمان حتى فى تلك الأماكن القصية التى كانت تصل إليها الحيوانات والمشتتة، وقد اشتد بها العطش. كان هذا الوضع هو أحد الدعائم الرئيسية على الأسطورة السائدة. ولأسباب لم يستطع أحد فهم فحواها كانت الاصطبلات قد خلت من الخيول منذ آخر حرب أهلية وأخذت تحل محلها فى الآونة الأخيرة نباتات البوص وبعض معاصر الزيتون ومصنعًا لضرب الأرز.

وبالإضافة إلى القائمة المذكورة فى الوصية تم إضافة ثلاثة أوانى ضخمة دفنت فى مكان ما فى الدار أثناء حرب الاستقلال، لكن لم يعثر عليها بعد محاولات عديدة. ويضاف إلى حق الاستمرار فى استغلال الأرض المؤجرة وتلقى الأعشار وتباشير الثمار وكل الأنواع الإضافية الأخرى، إن الورثة يتلقون جيلاً بعد جيل خرائط معدلة وتوضيحية تساعد على العثور على الكنز المدفون.

ظلت الأم الكبرى تقوم بتعداد البنود المتعلقة بالأراضى لمدة ثلاث ساعات، وكان صوتها وسط حرارة حجرة النوم يحبط كل بند من هذه البنود بالأهمية. وعندما وضعت توقيعها المتلعثم، وكذا وقع معها الشهود سرت هزة غامضة فى قلوب الجمهور الذى أخذ فى النوافذ أمام المنزل واحتمى بظلال شجر اللوز المترب.

كان ما تبقى هو إحصاء التركة غير المنظورة. وبعد جهد جهيد - مثلما فعل ذلك أجدادها قبل موتهم من أجل تأكيد استمرار سلالتهم - نهضت الأم الكبرى على عجز ضخم. وبصوت واثق ومسيطر أملت على الكاتب قائمة ممتلكاتها غير المنظورة.

إنها الثروة التى يخفيها باطن الأرض والمياه والقلم والسيادة الوطنية والأحزاب التقليدية وحقوق الإنسان وحرية المواطنين

والقضـاء من محـاكم الدرجة الأولى والثـانية والثالثـة وخطابات التوصيـة والثوابت التاريخيـة والانتخابات الحرة وملـكات الجمال والخطب الهامـة والمظاهرات الضخـمة والآنسات رفـيعـات المقام والفرسان الأجلاء والأوسمة العسكرية وصاحب الفخامة والمجلس الأعلى للقضـاء والمواد التى تمنع الاستيـراد والسيدات الليبـراليات ومشكلة اللحم وشفافية اللغـة ونقائها وضرب المثل الذى يحتذى. والنظام القضـائى والصحافـة الحرة، لكنهـا حرية مسـئولة. وأثينا الأمريكية اللاتينية والرأى العام والانتخابات الديمقراطية والأخلاق المسيحـية وقلة العملة الحرة وحق اللجوء والحظر الشـيوعى وغلاء المعيشة وكيان الدولة والتقاليد الجمهورية وطبقات المعدمين ورسائل التضامن.

لم تستطع الانتـهاء من القـائمة، فكثرة المحـتوى أدت إلى ذهاب آخر أنفاسها. ولما غرقت فى خضم بحر الصيغ المجردة التى ظلت طوال قرنين من الزمان بمثابـة المبرر الأخلاقى للسيطرة على العالم صدر عن الأم الكبرى صـوت تجشوء، ثم لفظت آخر نفس لها.

فى ذلك المساء رأى سكان العـاصمة صـورة امرأة تبلغ من العمـر عشرين عامًـا على صدر الصفحـات الأولى للصحف فى طبعة خاصة، وفكروا أنها ملكة جديدة من ملكات الجمال. كانت الأم الكبـرى تعيش من جـديد الشبـاب المؤقت فى صورتهـا التى

نشرت فى الصحف على أربعة أعمدة بعد أن خضعت لبعض الأصناف وقد ظهرت فى الصورة مصففا شعرها إلى أعلى، وعلى رأسها مشط عاجى وجوهرة تزين عقدة الشريط. كان أحد المصورين الجوالين الذين مروا بماكوندو فى بداية القرن قد التقط هذه الصورة وحفظتها دور الصحف فى الأرشيف طوال سنوات كثيرة ضمن باب الشخصيات غير المعروفة. كان حظ هذه الصورة هو الاستمرار فى مخيلة الأجيال القادمة. وفى الأتوبيسات القديمة ومصاعد الوزارات وصالونات الشاى المظلمة التى بهتت دهاناتها. تناقل الناس همسًا وبوقار السلطة الميتة فى إقليمها المشهور بالحر والملاريا. كان اسمها مجهولاً حتى تحول إلى كلمة مطبوعة. بلل رذاذ المطر المارة، وأخذت أجراس كل الكنائس تقرع إيقاع الموت. فاجأ الخبر رئيس الجمهورية وهو متوجه لحضور حفل تخريج دفعة جديدة من الضباط، فقام بكتابة تعليماته إلى وزير الحرب على ظهر ورقة التلغراف التى تتلخص بأن ينهى كلمته بدقيقة حداد تكريمًا للأم الكبرى.

تأثرت الأوضاع بهذه الوفاة لدرجة أن رئيس الجمهورية الذى كانت تصل إليه أحاسيس سكان المدينة من خلال فلتر تنقية. أدرك ، وهو فى سيارته، من خلال نظرة عابرة لكنها فاحصة، الصمت المتألم الذى يلف المدينة، فلم تبق مفتوحة للجمهور إلا بعض المقاهى التى تكاد تخلو من الزبائن، وأخذت الكاتدرائية

الكبـرى تستـعـد لتسـعـة أيام من التكريم الجنائزى، وفى مـبنى الكابيـتول الوطنى، حيث ينـام المتسولون، وقـد التحـفوا بأوراق الصحف، إلى جوار الأعمدة الدورية والتـماثيل المكهفرة للرؤساء الذين ماتوا، أُضيئت الأنوار داخل البـرلمان. وعندما دخل المسئول الأول عن البلاد غرفـة مكتبه وقد بدا عليه التأثر بالعـاصمة وهى فى لباس الحداد، كان وزراءه ينتظرونه وهم واقفون شاحبو الوجوه وقد ارتدوا ملابس الحداد.

وُصِفَـت وقائع هذه الليلة والليـالى التاليـة لها بأنـها درس تاريخى ليس فقط على أنها تمثل الروح المسيحية التى كانت مصدر إلهام كبار الشخصيات فى السلطة - بل أيضًا على أساس أنها تمثل حالة التراضى وتوافق المصالح المتضـاربة ووجهات النظر المتعارضة فيما يتـعلق بكيفية دفن رفات عظيم مثـل هذا. فعلى مدى أعوام طويلة اسـتطاعت الأم الكبرى الحـفاظ على السـلام الاجتـماعى والوفاق السـياسى فى إمـبراطوريتهـا من خلال صناديق الاقـتراع الثلاثة التى كانت تخرج من دوائر انتخابية مزيفة والتى كانت بمثابة إرث سـرى لها. فـالذكـور من أتبـاعهـا، وكـذا من تحـميـهم، والمستأجـرين الصغار منهم والكبـار، يمارسون حقهم الانـتخابى سواء الأحياء منهم أو الأمـوات الذين مضى على وفاتهم قرن من الزمـان. هى صـاحـبـة الأولوية على أسـاس أنهـا تمـثل السلطة التقليدية مـقابل السلطة المعارضة. تمثل هيمنة الطبقـة على العامة

وأهميـة الحكمة الإلهيـة فوق الارتجال الفـانى. وخلال أيام السلم كانت بهيمنتـها تعقد الاتفاقيـات وتفك رباطها بشأن وظائف قليلة العمل جزيلة الراتب وأرزاق الكهنة وأرزاق العـاطلين وتسهر على راحة المرافقين ومن أجل ذلك كانت تلجأ إلى الخداع أو الغش فى الانتخـابات. أما فى أوقات الأزمات فـقد أسهـمت الأم الكبرى سريًا فـى تسليح أنصارها وفى نجـدة ضحـاياها فى العلن. وهذه الغيرة الوطنية رشحتها لتحتل أرقى مراتب الشرف.

لم يكن رئيس الجـمهورية بحـاجة إلى استـشارة مسـاعديه لتـقيـيم حـجم مـسئـوليـاته، ففى المنـطقة الفـاصلة بين صـالة الاستقبـالات فى القصر والفناء الصغير المرصـوف الذى كان بمثابة مرآب سـيارات لنواب الملوك، كـانت هناك حديقة داخلـية تملؤها الحشـائش الداكنة اللون والتى كان أحـد الرهبان البـرتغاليـين قد انتحر فيها فى الفترة اللاحقـة للعهد الاستعمارى. ورغم ما يحيط بالرئيس من جهاز أمن مهيب لم يستطع إيقاف رعـشة خفيفة شعر بها وهو يعـبر ذلك المكان بعد مغيب الـشمس. إلا أن الحزن هذه الليلة كـان هـو القـوة المسـيطرة. وعندئذ وعـى تمامًـا بمصـيـره التـاريخى، وأصدر قـرارًا بالحداد الوطنى لمدة تسـعة أيام، وكـذا اتخاذ عدة خطوات لتـكريم يتيم للأم الكبرى بصفتـها البطلة التى ماتت فى ميـدان المعركة من أجل الوطن. وقد عـبر عن ذلك فى كلمـة دراميـة وجهـها فـجر ذلك اليـوم إلى الأمة عـبر الإذاعـة

والتليفزيون مـعلنًا ثقته فى أن تشييع جثمـان الأم الكبرى سيكون مثالاً جديدًا يحتذى به فى العالـم.

هذه الغايات العظمـى اصطدمت ببعض الصعـاب الخطيرة. فالسلك القضائى فى البلاد، والذى كان يشغله العديد من الأقرباء الأباعد للأم الكبـرى، لـم يكن مهيئًـا لمواقف مثل تلك التى على وشك أن تبـدأ. واستـغـرق جهـابذة القـانون والخـبراء بدهاليـز تفسيـراته، فى البحث عن صيغة تسـمح للرئيس حضور الجنازة. وعاش كبـار شاغلى المناصب السيـاسية والدينية والماليـة أيامًا من الترقب والقلق. وفى قاعة البرلمان الفسيحة التى خلخلتها القوانين والتشـريعات المجردة على مدى قـرن من الزمان والمليئـة بلوحات علية القوم والتـماثيل النصفية للفلاسـفة الإغريق، تردد اسم الأم الكبرى كـثيرًا فى الوقت الذى أخذت جـثتها تصاب بالتـعفن فى شهر سبتمبر الشديد الحرارة فى ماكوندو. ولأول مرة يتم التحدث عنها فى هذا المكان، ويتم تصـورها بدون الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة. وبدون لحظات الغفوة التى كانت تعتريها فى الثانية ظهرًا وبدون الـدهانات التى تغطيها. كانوا يرونها نقيـة فتية وقد رسمتها ريشة الأسطورة.

ولسـاعـات طويلة ترددت الكـلمـات والكلمـات التى ذاع صداها فى أنحاء الجمهورية لدرجة فقدانها لقيمتها من خلال أبواق الصحافـة. ولـم يتوقف سيل هذه الكلمات إلا عـندما نهض أحد

الناس الواقعيين وسط جهابذة القانون، وقطع هذا السيل الكلامى مذكرًا بأن جـثة الأم الكبرى فى انتظار قرار يتخـذ ودرجة الحرارة ٤٠ فى الظل. لم يتأثـر أحد من جمـهور القانون المكتـوب بهذا الرأى، وكل مـا فى الأمر هو أن صـدرت الأوامر لتـحنيط الجثـة حتى يتم إيجـاد الصيغـة المطلوبة والتوفيق بين وجـهات النظر أو إضافة تعديلات دستورية تسمح لرئيس الجمهورية حُضور الجنازة.

كان الكلام كثيرًا كثيرًا لدرجة أنه تجاوز حدود الوطن وانتقل عبر المحيط حـتى وصل إلى الأسماع البابوية فى كاستـيلغادولفو. وبعد أن اسـترد البـابا عافيـته من وعكة ألمت به كـان يجلس إلى جوار النـافذة وهو يتطلع إلى البـحيرة ويـشاهد الغواصـين الذين نزلوا تحت الماء بحثًـا عن رأس الأميـرة التى ضرب عنقهـا. وكان ذلك هو الموضـوع الرئيـسى للصـحف المسـائية خـلال الأسـابيع الأخيـرة، ولم يكن باستـطاعة قداسـة البابا أن يكون بمـعزل عن مشكلة وقعت على مـقربة من مقره الصـيفى. لكن الصحف فى ذلك المساء غيرت فجأة اهتمامـاتها بصور الضحايا ونشرت صورة امرأة تبلـغ من العمر عـشرين عـامًا ووضع على الصـورة شريط الحداد؛ إنهـا صورة الأم الكبرى. وعندئذ صاح قـداسته متـذكرًا ملامح اللوحة القديمة التى أهديت إليه منذ أعوام طويلة، بمناسبة توليه كرسى القـديس بطرس. "الأم الكبرى" ردد ذلك كل أفراد المدرسة الكارديـنالية وهم فى حجـراتهم الخاصـة. وللمرة الثـالثة

على مدى عشرين قرنًا يحدث ارتباك وكرب وركض هنا وهناك فى الإمبراطورية المسيحية المترامية الأطراف، إلى أن قام قداسته بركوب الجندول الأسود الطويل المخصص له متوجهًا إلى هناك للمشاركة فى تشييع هذه الجنازة المهيبة للأم الكبرى.

خلّف وراءه الأضواء المتلألئة وطريق "بيا أبيا أنتيكا" بما فيه من ممثلات السينما وهن يأخذن حمام شمس فى الشرفات قبل أن تصل إليهن الأخبار؛ كما خلف وراءه أيضًا القمة المعتمة لكاستيلسا نياخيلو فى أفق كبير. وعند مغيب الشمس اختلطت الخطوط القوية للكاتدرائية البازيلكية للقديس بطرس باللون البرونزى لماكوندو. ومن تحت المظلة الواقية من الشمس ومرورًا بالمواسير المتشابكة والمستنقعات الصامتة التى كانت بمثابة آخر حدود الإمبراطورية الرومانية وأملاك الأم الكبرى، سمع قداسته جلبة القرود الصاخبة والناجمة عن وجود الجماهير الغفيرة. وأثناء جولاته الليلية كانت المركبة البابوية تمتلئ عن آخرها بأجولة نبات اليوكا وعناقيد الموز الأخضر وأقفاص الدجاج وبرجال ونساء تركوا مشاغلهم اليومية وحاولوا الحصول على بعض المال من خلال بيع بعض المنتجات أثناء جنازة الأم الكبرى، ولأول مرة فى تاريخ الكنيسة يعانى البابا فى ذلك المساء ارتفاع درجة حرارته من جراء السهر ولدغات الناموس. لكن إشراقة الشمس الرائعة على أملاك العجوز الكبرى ومشاهدة مملكة النباتات والحيوانات أبعدت عن

ذاكرته كل آلام الرحلة، وكانت بمثابة تعويض عن التضحية.

تم إيقاظ نيكانور بواسطة ثلاث ضربات على البـاب حيث كانت بمثابة الإعلان عن قرب قدم قداسته. ولقد سيطر الموت على المنزل. كانت الخطابات المتـوالية للرئاسة وكذا المناقشـات البرلمانية المحمومة التى أدت إلى أن تلتهب الأحبـال الصوتية للبرلمانيين ولم يكن أمامـهم إلا الحديث بلغة الإشارة، كل هذا أدى بالكثـير من الناس فى مختـلف أنحاء الدنيا إلى ترك مشاغـلهم والحضور إلى المنزل وشغل كل مكان فيه بما فى ذلك الممرات والردهات وكذلك فى الحـجرات العلوية ذات السـقف الجـمالونى. أمـا من وصلوا متأخرين فقد حاولوا أن يسلكوا لأنفسهم طريقًا إلى الاستحكامات والقلاع والأبراج وغـيرها من الحجـرات الصغيـرة. وفى الصالون الرئيسى كانت جثة الأم الكبرى مسجاة فى انتظار القرارات الكبرى وقد كـستها آلاف التلغـرافات. وجفت الدمـوع من المآقى، وكان أبناء الأخوة التسع يتناوبون السهر لحراسة الجسد.

كـان على هذا الجمع الحـاشد أن يـنتظر لأيام طويلة. وفى صـالون المجلس المحلى حيث يوجـد أربعـة كَراسٍ مـرتفعـة من الجلد، ووعـاء فـخـارى ملىء بالماء المـفلتـر وسـرير شـاطئ من الأرقطيون، عانى قـداسته من الأرق مع الكثيـر من العرق وتسلى بقـضـاء الوقت وهو يقـرأ القـرارات والمواد الـوزارية فى الليـالى الصيفـية الحارة. أما أثناء النهـار فكان يوزع الحلوى الإيطالية على

الأطفال الذين كانوا يقتربون من النافذة لمشاهدته. وكان يتناول طعام الغذاء تحت البرجولة فى رفقة الأب أنطونيو إيسابيل أحيانًا، وأحيانًا أخرى مع نيكانور. ظل هكذا لأسابيع وشهور طويلة يعيش حالة الترقب تحت الحر حتى جاء باستور باسترانا وتوقف وسط الميدان وهو يحمل الطبلة، ثم قرأ نص القرار. يُعلن أنه قد تعكر صفو الأمن العام، ترون ترون، وأن رئيس الجمهورية، ترون ترون، له كافة الصلاحيات، ترون ترون، التى تهيئ له حضور جنازة الأم الكبرى، ترون ترن رن رن.

جاء اليوم الأعظم، كانت الشوارع قد امتلأت بألعاب الروليت وموائد اليانصيب ورجال يحملون ثعابين وقد لفوها حول رقابهم وأخذوا يروجون لبيع الترياق الذى يشفى من العضات السامة ويؤكد الحياة الأبدية. وفى الميدان الصغير قام الكثير من الناس بنصب مظلاتهم وفردوا حصائرهم، وقام رجال مهرة بفتح الطريق للسلطات.

كانت غسالات سان خورخى وصيادى اللؤلؤ فى كابودى بيلا فى انتظار اللحظة الحاسمة، وكان كذلك كل من صيادى الجمبرى فى تاساخيرا والحواة فى مواخانا ومستخرجو الملح فى ماناورى، وعازفوا الأكورديون فى سان بيلايو ومربو الديوك فى لاكويب والمرتجلون فى ساياس دى بوليفار وفى ريبولو وفى ماغدالينا وأصحاب المصانع فى مومبوكس، وإلى جانب كل هؤلاء

ما سبق أن ذكرناهم فى بداية هذا التقرير، وآخرين غيرهم. كما أتى أيضًا قدامى رجال العقيد أوريليانو بوين ديا - وعلى رأسهم دون مارلبوروح بلباسه الجلدى وأظافره وأسنانه التى تشبه أسنان الفهد، وتناسوا أحقادهم القديمة على الأم الكبرى وأهلها - لحضور الجنازة، ومن أجل أن يطلبوا من رئيس الجمهورية دفع معاشات الحرب التى ظلوا ينتظرونها لمدة ستين عامًا.

وقبل الحادية عشر بقليل صدر عن هذا الجمع الغفير الذى خنقته حرارة الشمس، والذى يسيطر عليه ثلة من المحاربين الأشداء، وقد ارتدوا لباس الجندية، ووضعوا على رؤوسهم خوذات ضخمة، صدر عن هذا الجمع صوت غبطة مهيبة. أما رئيس الجمهورية ووزرائه فكانوا فى وضع مهيب وقد ارتدوا ملابسهم الرسمية.

حضر أيضًا كل من اللجان البرلمانية ومجلس القضاء الأعلى ومجلس الدولة والأحزاب التقليدية والسلطة الدينية وممثلى البنوك والتجارة والصناعة، وقد كان مكان كل هؤلاء على ناصية مركز التلغراف. كان رئيس الجمهورية العجوز أصلعًا

وقصير القامة بدينًا يسير أمام نظرات استغراب جمهور الحاضرين الذين نصبوه رئيسًا دون أن يعرفوه، وهم الآن يمكن أن يتأكدوا من وجوده بين الأساقفة الذين أخذتهم خطورة مسئولياتهم

والعسكريين من ذوى القامات الممشوقة وقد علت رؤوسهم الخوذات. كان المسئول الأول عن الأمن يتنفس ويتذوق طعم السلطة.

يأتى بعد ذلك فى ملابس من "الكريب" الأسود كل الملكات فى الوطن. وهن المسيطرات على كافة أنواع الأنشطة الآتية والقادمة، وقد خلعن لأول مرة كل ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا، كانت تتقدمهن الملكة الكبرى ملكة المانجو وملكة الخضروات وملكة التفاح الغينى وملكة اليوكا الناعمة وملكة الجوافة وملكة الأناناس وملكة الفاصوليا ذات الحبة السوداء وملكة ما يزيد على ٤٢٦ كيلومتراً من عقود بيض الأيجوانا، وكل هؤلاء اللاتى لم نذكرهن حتى لا نطيل من صفحات هذا التقرير.

كانت الأم الكبرى موضوعة فى نعشها وقد غطيت بطبقات من القماش الأرجوانى، وتم فصلها عن الواقع بثمانية أجراس من النحاس، وغرقت حتى الثمالة فى غمرة الخلود، ولم تعد تستوعب حجم عظمتها. وكل ما حلمت هى به من أبهة أثناء جلساتها فى شرفة منزلها بعد الظهر، ها هى تتحقق حيث حضرت كافة رموز العظمة فى العصر لتكريمها. فها هو قداسة البابا الذى تصورته فى هذيانها، الذى ولّى، وهو جالس على محفة متلألئة وسط حدائق الفاتيكان، قد قاوم الحرارة واستخدم مروحة مصغرة من جريد النخيل وشرفت به أضخم جنازة فى الدنيا.

لقد ملك مشهد السلطة لب العامة الذين لم يستطيعوا أن يميزوا ماهية الحركة الدؤوبة التى دارت تحت السقف الجمالونى للمنزل وذلك عندما فرض الاتفاق نفسه على خلافات المشاهير وتم إخراج النعش إلى الشارع محمولاً على أكتاف علية القوم. ولم ير أحد الظل الحارس للرماح الملكى الذى تابع الجنازة وهو يسير فى الشوارع الحارة لماكوندو. كما لم يستدع انتباه أحد أن علية القوم عندما مروا كانت الشوارع قد بقى بها مخلفات من الروث. ولم يلاحظ أن أبناء الأخوة والأبناء بالتبنى والخدم والذين يحظون بحماية الأم الكبرى كانوا قد أغلقوا الأبواب عندما تم إخراج الجثة وقاموا بخلع الأبواب وفك المناضد للحفر حول الأساسات حتى يوزعوا المنزل ومحتوياته فيما بينهم. لكن الشيء الوحيد الذى لم يغب عن ذهن أحد فى هذه الجنازة هو التنهيدة المزلزلة شعوراً بالراحة والتى صدرت عن الجماهير بعد أربعة عشر يومًا من الصلوات والمدائح. وتم بعدها تغطية القبر بطبقة من الرصاص. كان بعض الحاضرين يحظى ببصيرة نافذة فهم منها أن الجميع يشهد ميلاد عهد جديد. ويمكن لقداسة البابا أن يصعد إلى السماء روحًا وجسدًا وقد أتم مهمته على الأرض، ويمكن لرئيس الجمهورية أن يجلس على كرسى الحكم ويصدر أوامره طبقًا لما يرى، ويمكن للملكات كل ما كان وما سيكون أن يتزوجن ويصبحن سعيدات وينجبن الكثير من الأطفال، ويمكن للجماهير

أن ترفع مظلاتها طبقًا لما تعلمته وأدركته طوال سيطرة الأم الكبرى
ذلك أن المرأة الوحيـدة التى يمكن أن تعترض وتجـعل اعتراضـها
فاعلاً. ها هى الآن تتحلل تحت غطاء من الرصاص. وما بقى هو
أن يقوم أحـد الناس بالجلوس على كرسى أمام البـاب ليقص هذه
الحكاية وهذا الدرس وهذه العبرة للأجيـال القادمة وألا يبقى أحد
من الجاحدين فـى هذه الدنيا إلا وقد وصلته أخـبار الأم الكبرى،
وسوف يأتى الكناسـون غداً الأربعاء لتنظيف الشوارع من القـمامة
التى خلفتها الجنازة إلى أبد الآبدين.

الموت الدائم فيما وراء الحب

(١٩٧٠)

بقيت ستة أشهر وأحد عشر يومًا حتى يموت السناتور/ أونيسيمو سانشيث وذلك عندما التقى بالمرأة التى كان يحلم بها فى حياته. تعرف بها فى "روسال دل بيرى" وهى قرية متخيلة - كانت أثناء الليل مرفأ للسفن الخاصة بالمهربين التى كانت تجوب أعالى البحار. أما فى النهار فكانت تبدو بمثابة منعطف غير ذى قيمة فى الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا قرار له وبعيداً عن كل شيء لدرجة أن أحدًا لم يكن يخالجه شك فى أنه يوجد هناك من قد يستطيع التأثير فى مصير إنسان آخر حتى اسم القرية كان مثيراً للسخرية فالوردة الوحيدة التى كانت موجودة فيها قطفها السناتور/ أونيسيمو سانشيث فى نفس الأمسية التى تعرف فيها على "لاورافارينا".

كانت وقفة لا غنى عنها أثناء الحملة الانتخابية التى كانت تجرى كل أربعة أعوام. ها قد وصلت سيارات نقل الركاب الصغيرة ، تلتها سيارات النقل وهى تحمل هنوداً تم استئجارهم ليكونوا جزءاً من الجمهور الذى يحضر الخطب التى تلقى. وقبل الحادية عشرة بقليل بدأ عزف الموسيقى وأخذت تطلق الصواريخ النارية، وبعدها وصلت السيارة الوزارية بلون الفراولة. كان

السناتور/ أونيسيمو مبتسمًا وهو جالس داخل السيارة المكيفة. لكنه بمجرد أن فتح الباب لفحته نسمة هواء نارية وغرق قميصه، المصنوع من الحرير الطبيعى، فى بحر من العرق وشعر عندئذ بأنه قد شاخ عدة سنوات وأصبح أكثر عزلة عن أى وقت مضى. لم يكن عمره إلا اثنين وأربعين عامًا، وكاد قد تخرج بمرتبة الشرف ليكون مهندسًا للحديد والصلب فى "غوتيغا" كما كان من أكثر الناس حرصًا على القراءة رغم أنه لم يقرأ الكثير للمؤلفين باللغة اللاتينية والذين ترجمت أعمالهم بشكل ردىء. تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء وكان الجميع سعداء فى منزلهم، هو أكثرهم سعادة حتى جاءت لحظة وقالوا له قبل هذا الوقت بثلاثة أشهر أنه سيموت فى عيد الميلاد المجيد القادم.

فى الوقت الذى تجرى فيه الاستعدادات لإلقاء خطبته، استطاع السناتور أن يظل بمفرده طوال ساعة كاملة فى المنزل الذى أُعد لراحته. وقبل أن ينام وضع فى مياه الشرب وردة طبيعية استطاع أن يحملها وسط الصحراء دون أن تذبل. تناول غذاءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب، وكان قد أتى بها معه حتى يتفادى أكل التحميصة وهى الطعام الذى كان ينتظره بقية اليوم. وبعد ذلك تناول بعض الحبوب المسكنة قبل الساعة المحددة لها بحيث يسبق تأثيرها معاودة الآلام. ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من الشبكة وتمدد عريانًا لمدة خمسة عشر

دقيقة فى ظل الوردة. وأثناء هذه اللحظات، حاول جاهدًا مباعدة ذهنه عن فكرة الموت. لم يكن أحد يعرف أنه سيموت فى وقت محدد إلا الأطباء، ذلك أنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يدخل حياته أى تغيير. وقد فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

كان يشعر بالسيطرة الكاملة على قواه العقلية عندما عاود الظهور على الملأ حوالى الثالثة بعد الظهر وقد أكمل هندامه وارتدى بنطلونًا من الكتان الخالص وقميصًا ملونًا برسوم الزهور، وقد هدأ روعه من جراء تناوله الحبوب المسكنة. ومع ذلك فإن الموت أخذ يحدث تآكلاً فيه بشكل أفظع مما كان يتصور. فعند صعوده إلى المنصة شعر باحتقار غريب نحو هؤلاء الذين أخذوا يتزاحمون ليصافحوه، ولم تأخذه الشفقة مثلما حدث مرات سابقة بهؤلاء الحضور الحفاة الذين لا يكادون يتحملون حرارة البلاط فى هذا الميدان القاحل. أسكت التصفيق بإشارة آمرة كأنها تعبر عن حنق. ثم أخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وناظريه مثبتان على البحر الذى كان يتنهد من الحر. كان صوته رتيبًا وعميقًا كأنه مياه ساكنة، لكن الخطاب الذى حفظه عن ظهر قلب وكرره كثيراً لم يخطر على باله أن يقول الحقيقة إلا من أجل مقابلة مصير محتوم فى الكتاب الرابع لذكريات ماركو أوريليو.

إننا هنا حتى نهزم الطبيعة - بدأ خطابه بشكل غير تقليدى على الإطلاق - ولن نكون بعد اليوم لقطاء الوطن أو يتامى الله

فى مملكة العطش والضياع، ولن نكون المنفـيين ونحن نعيش على أرضنا - سنكون أناسًـا آخرين أيـها السـيدات والسـادة، سنكون عظماء وسعداء.

كانت هـذه هى الصيغ التى تقـال فى السيـرك الخاص به، وفى الوقت الذى كان يتحـدث فيه كان المساعدون يقـومون بإلقاء حفنات من عصـافير ورقية فى الهـواء فتبدو كأن بهـا حبًا وتدور حول المنصة المرتفعة وتذهب لتسـقط فى البحر. وفى الوقت نفسه يقوم آخـرون بإخراج أشجـار صناعية مخـصصة للمـسرح - من السـيارات - ويقـومون برصـهـا خلف الجمـهور. وأخـيرًا قـام المساعدون بتركـيب واجهة كرتونية بها صـور منازل مبنية بالطوب الأحـمر ونوافـذ زجاجـية وبذلك غطـوا الملامح البائسـة للحيـاة اليومية.

استـمر السناتور يلقى خطابه وأطال الإلقـاء بذكر عـبارتين باللغة الـلاتينية وذلك حتى يـوفر الوقت للملهـاة. وعد بأن يأتى لهم بماكينات المطر والوحدات المتنقلة لتـربية الحيوانات الداجنة وأن يأتى لهم بزيت السعـادة الذى سيساعد على زيـادة نمو البقول فى الأصص، وكذا زهور البنفسج المعلقـة على النوافذ. وعندما أدرك أن عالمه الخيالى أوشك على الاكتمال أشار إليه بإصبعه.

- هكذا سنكون أيهـا السيدات والسـادة - قالها صـائحًا - هكذا سنكون.

نظر الجمهــور إلى الوراء فوجد سفينة عــابرة المحيطات وقد رسمت وهى تمر مــن خلف البيوت كــما كانت أكــثر ارتفــاعًا من أعلى المنازل فى المدينة المتــخيلة. وقد لاحظ الــسناتور - وحده - أن كثرة الفك والتركيب لهذه اللوحة والانتقال بها من مكان لآخر أدى إلى إصابتــها بالتهالك والفناء وأصــبح يعلوها التراب وتملؤها الكآبة مثلها مثل قرية روسال دل بييرى.

ولأول مرة طــوال اثنا عشــر عامًــا لم يذهب نلسون فــارينا لتحية السناتور، فضل الاستــماع للخطاب وهو يتمدد على سريره تعتريه غفوة القيلولة تحت سقف منزل تكسوه الخضرة، وهو منزل مبنى من الألواح غير الناعــمة، بناه بنفس الأيدى التى كان يعمل بها صيــدلانيًا وهى نفسها التى قطع بها زوجــته الأولى إربًا. كان قد هرب من سجن كايينا ثم ظهر فى روسال دى بيرى قادمًا على متن سفينة مــحملة بالببغــاوات البرية وترافقه امرأة ســوداء جميلة وسليطة اللســان، كان قد التــقى بها فى بارامــاريبو وأنجــبت منها طفلة -، لكن المرأة توفــيت بعد قليل، لكن لم يكن حظهــا مثل الأولى التى قطع جسدها إربًا من أجل تسميــد حديقته، بل دفنها كاملة فى مدافن القرية ووضع اســمها ذا الأصل الهولندى. كانت الابنة قد ورثت عن أمــها لون بشرتهــا وقامتــها وورثت عن الأب عينيه الصفراوين والمستغربتين. هذا الأب كانت له أسبابه ليظن أنه يربى أجمل امرأة فى العالم.

ومنذ أن تعرف نلسون فارينا على السناتور أونسيمو سانشيث فى أول حملة انتخابية له، توسل إليه أن يساعده فى الحصول على بطاقة تحقيق شخصية مزيفة تنفذه من يد العدالة. وكان رد السناتور رقيقًا وواثقًا لكنه رافض للطلب. ولم يستسلم نلسون فاريتا مع مرور السنين وكان كل مرة يرى السناتور فيها يكرر طلبه بشتى الطرق. لكن الإجابة كانت واحدة. وعلى هذا ظل هذه المرة فى نفس المكان وقد شعر بأنه سوف يهلك حيًا فى ملجأ القراصنة ذلك. وعندما سمع التصفيق الختامى أطل برأسه من فوق السياج المحيط فرأى المشهد الخلفى للملهاة : المسامير الساندة للمبانى المصورة وهياكل الأشجار والرجال الذين اختبئوا وهم يدفعون عابرة المحيطات. فبصق غيظًا. وقال:

- زبالة.

وبعد الخطاب قام السناتور - كما هى العادة بالتجول فى شوارع القرية على قدميه ترافقه الموسيقى والصواريخ النارية ويحيط به أهل القرية الذين كانوا يقصون عليه آلامهم، وكان السناتور يستمع إليهم باهتمام ودائمًا ما كان رده عبارات العزاء والمواساة دون أن يعد بالكثير. كانت هناك أم تصيح وهى فوق منزلها ويحيط بها أبنائها الستة، واستطاعت أن تصل بصوتها رغم الضجيج وصوت الفرقعات النارية.

- إننى لا أطلب الكثـير أيها السناتـور - قالت - لا أطلب إلا حماراً لأحمل عليه الماء من بئر أوركادو.

نظر السناتور نظرة فاحصة للأطفال الستة النحفاء وسأل:

- ماذا يعمل زوجك . سأل.

- ذهب ليبحث عن الرزق فـى جزيرة أروبا - أجابت المرأة بمرح - وما وجده هناك هو امرأة من تلك اللاتى يضعن الماس فى أسنانهن.

أثارت هذه الإجابة ضحكات مجلجلة.

- حسن - قال السناتور مقرراً - سوف يكون لك حمارك.

وبعد ذلك بقليل كان أحد مـساعديه يذهب إلى منزل المرأة ومعه الحمار الذى كتبت على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى لا ينسى أحد أنه كان هدية السناتور.

وفى المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات وإشارات ومنها أنه أعطى مـلعقة صغيـرة لأحد المرضى الذى كان قد خـرج من منزله وهو على سريره حـتى يرى السناتور. وعلى الناصية الأخيرة رأى نلسون فارينا بين ألواح السياج وبدا له رمادى اللون ذابلاً فحياه تحية ليس فيها حرارة.

كيف حالك.

تحرك نلسون فارينا فى سريره المعلق وتركه وهو غارق فى خضم نظرته الحزينة.

- أنا، أنتم تعرفون - قال

خرجت ابنته إلى الفناء عندما سمعت التحية، كانت ترتدى جلبابًا باليًا من جلاليب الفلاحات، وكان شعرها ملفوفًا بكرات ذات ألوان متعددة، ووجهها مدهون اتقاء لأشعة الشمس، ورغم أنها على هذا الوضع كان من الممكن تصور أن ليس هناك من هى أجمل منها فى هذا العالم. وقف السناتور جامدًا.

- عجبًا - تنهد باستغراب - تبارك الله فيما خلق!

فى هذه الليلة قام نلسون فارينا بإلباس ابنته بأفضل ما عندها من ثياب وأرسلها إلى السناتور. طلب منه اثنان من الحرس المسلحين الجالسين على الباب وقد انتابتهما غفوة الحر أن ينتظر على الكرسى الوحيد الموجود فى الدهليز.

كان السناتور يجتمع فى الحجرة المجاورة مع الكبار من أهالى القرية والذين جمعهم خصيصًا ليحكى لهم بعض الأسرار التى كان يحجم عن البوح بها فى خطبه. كان الحاضرون شديدى الشبه بهؤلاء الذين يحضرون مثل هذه الجلسات من أبناء القرى الصحراوية لدرجة أن السناتور كان يشعر بالملل الشديد من نفس الجلسة التى تتكرر كل ليلة. كان قميصه يذوب فى العرق وحاول

أن يخفف القميص وهو على جسده عن طريق تعريض نفسه للهواء الساخن الذى تحركه المروحة الكهربائية التى كان طنينها ينتشر فى كالة أرجاء الحجرة.

- نحن بالطبع لا نأكل عصافير ورقية - قال - تعرفون حضراتكم أنه فى اليوم الذى توجد فى أشجار وزهور فى حظيرة ذكور الماعز هذه، وفى اليوم الذى تختفى فيه الديدان والحشرات من الآبار، فلن يكون لنا جميعًا وجود هنا. هل أقول الحقيقة؟

لم يجب أحد، وفى الوقت الذى أخذ يتحدث فيه جذب ورقة من أوراق نتيجة العام وصنع فراشة ثم ألقى بها تجاه الهواء الذى تدفعه المروحة دون اكتراث فطارت الفراشة فى أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب. وظل السناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت.

- حينئذ - قال - ليس من الضرورى أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه جيدًا: إن إعادة انتخابى هى أفضل شىء بالنسبة لكم أكثر منى، فها أنا متعب ومثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم.

شاهدت لاورافارينا الفراشة الورقية وهى تخرج ولم يرها أحد غيرها، ذلك أن الحارسين المتواجدين فى الردهة قد غرقا فى النوم وهما جالسان على الكرسى وقد احتضنا سلاحيهما.

ويعد عــدة لفات تفككت الفــراشة الضخــمة ثم اصطدمت بالحــائط والتصــقت به. حاولت لاورافــارينا نزعهــا مســتخــدمة أظافرها. كان أحد الجنود الذى استيــقظ على صوت التصفيق فى الحجرة قد لاحظ محاولة فارينا غير المجدية.

- لا يمكن نزعــها - قــال العــبارة وهو شــبه نائم - إنهــا مرسومة على الحائط.

عادت لاورافارينا للجلوس من جديد عندما بدأ الحضور فى الخروج من الاجتماع. وظل السناتور على باب الحجرة ويده على السقاطة ولم يدر بوجود فارينا إلا عندما خلت الردهة من الناس.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هذا ما أمرنى به والدى - قالت.

فــهم السناتور. تمعن فى الحــرس شــبه الــنائم ثم تمعن فى لاورافارينا وفى جمالها الأخاذ الذى يتجاوز حدود آلامه. وعندئذ أراد أن يتولى الموت اتخاذ القرار نيابة عنه.

- ادخلى - قال لها.

فغــدت لاورافارينا فاها وهى علــى الباب : هناك آلاف من الأوراق النقدية وهى تطير فى هواء الحجرة وكــأنها مثل الفراشة، لكن السناتور أطفأ المروحــة فأصبــحت الأوراق بلا هواء وسقطت متناثرة فوق محتويات الغرفة.

- ها أنت ترين - قال مبتسمًا - ها هى القذارة تطير أيضًا.

جلست لاورافارينا وكأنها تجلس على مقعد مدرسى. بشرتها ناعمة ومشدودة ولونها مثل لون البترول الخام، وكان شعرها مصففًا على شكل عرف، نظراتها أكثر شفافية من النور. تابع السناتور خط بصرها ووجد الوردة التى زال عنها بريقها بسبب النطرون.

- إنها وردة.

- نعم - قالت وقد علت وجهها ملامح الحيرة - لقد رأيت مثلها فى "ريوأتشا"

جلس السناتور على سرير منطبق وأخذ يتحدث عن الورود وهو آخذ فى فك أزرار قميصه، وعلى أضلاعه اليسرى، حيث تصور أن القلب وراءها، هناك وشم عبارة عن قلب قد اخترقه سهم. ألقى بالقميص المبلل على الأرض وطلب من لاورافارينا أن تساعده فى خلع الحذاء ذو الرقبة. جلست على ركبتيها أمام السرير بينما ظل السناتور يتأملها وهو يفكر، وبينما تقوم هى بفك رباط الحذاء، كان يتساءل أى واحد من الاثنين سيكون بمثابة الحظ السيئ للآخر فى هذا اللقاء.

- إنك لا زلت صغيرة.

- لا تظن ذلك - قالت - سوف أكمل التاسعة عشرة من عمرى فى أبريل.

فأبدى السناتور اهتمامه.

- أى يوم؟ فقالت :

- الحادى عشر.

شعر السناتور بالتحسن "كلانا من برج الجدى" ثم أضاف مبتسمًا.

- إنه برج الوحدة والعزلة.

لم تبد لاورافارينا اهتماماً بما يقول إذ كانت مشغولة بكيفية فك أربطة الحذاء. كما أن السناتور نفسه لم يكن يدرى ما الذى يفعله مع لاورا فارينا فهو غير معتاد على أنواع الحب المفاجئ، كما أنه كان واثقًا أن ذلك النوع من الحب مؤسس على اللاجدارة. وحتى يجد لديه متسعًا من الوقت ضغط على لاورافاريتا بركبتيه واحتضنها من خصرها واستلقى بظهره على السرير. وعندئذ أدرك أنها لا ترتدى شيئًا من الملابس الداخلية. فقد صدرت عن جسدها رائحة غامضة لحيوان جبلى لكن كان قلبها يرتعد خوفًا ويعتلى بشرتها عرق بارد.

- لا أحد يريدنا - تنهد.

أرادت لاورافارينا أن تقول شيئًا لكن لم يسعفها الهواء إلا فى التنفس. جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الأنوار

وبقى المكان فى ظل الوردة. تركت هى نفسها تحت رحمة قدرها. قام السناتور بتحسسهــا ببطء وبحث عنها باليد دون أن يلمسها إلا بالكاد، لكن يده اصطدمت بقــطعة حــديدية فى المكان الذى فكر أنها فيه.

- ماذا تحملين؟

- إنه قفل - قالت.

- يا له من تناقض! قال السناتور - وهو غاضب وسأل عن الشىء الذى يعرفه جيدًا : وأين المفتاح؟

تنهدت لاورافارينا بارتياح.

- إنه مع والدى - أجابت - لقــد قال لى أن أقفل. وعلى سيــادتك أن ترسل فى البحث عنه وأن ترسل أيضًــا وعدًا كتــابيًا بأنك ستساعده فى حل مشكلته.

انتــابت السناتور حــالة توتــر. "يا له من ديوث فــرنسى" غمــغم باستيــاء. ثم أغمض عينيــه ليستــرخى والتقى بنفــسه فى الظلمة. تذكر - تذكر - أنت أو غيرك ستموتون فى غضون وقت قصير، وبعد ذلك بقليل لن يتبقى منكم شيئًا بما فى ذلك الاسم. انتظر حتى تنتهى الرعشة.

- قولى لى شيئًا - سألها - ماذا سمعت عنى؟

-أتريد الحقيقة، ولا شيء غيرها؟

- نعم الحقيقة ولا شيء غيرها؟

- حسن - تجرأت لاورافارينا - إنهم يقولون بأنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف.

لم يبد على السناتور أى تغيير. صمت طويلاً وعينيه مغلقتين، وعندما عاد لفتحهما كان يبدو أنه عائد من غرائزه المخفية.

- يا للعجب - قال مقرراً - قولى للديوث والدك أننى سوف أساعده فى مشكلته.

- إذا ما كنت تريد فإننى سأذهب بنفسى للبحث عن المفتاح - قالت لاورافارينا.

أمسك بها السناتور.

- إنسى المفتاح - قال - ونامى معى بعض الوقت، فمن الطيب أن يكون هناك رفيق عندما يشعر المرء بالوحدة.

وعندئذ قامت هى بجعله ينام على كتفها وعيناه موجهتان نحو الوردة فاحتضنها السناتور وأمسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذى تفوح منه رائحة الحيوان الجبلى واستسلم للفزع. بعد ستة أشهر وأحد عشر يومًا سيموت فى نفس هذا الوضع، وقد أخذت فضيحة لاورافارينا تطارده، وسيبكى غيظًا من موته وحده بدونها.

الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب

"إيريندير" وجدتها القاسية

(١٩٧٤)

كانت إيريندير تقوم بمساعدة الجدة على الاستحمام عندما هبت رياح تعاستها. تعرض المنزل الضخم - المبنى وسط سكون الصحراء والذى يبدو كأنه شامة - لهزة عظيمة زلزلت كيانه مع أول الهجمات. لكن إيريندير وجدتها كانتا مهيأتين لمجابهة أخطار الطبيعة ولم تلحظا مدى شدة الرياح وهما فى البانيو المزين بصفوف الطاووس والموزاييك المكون من رسوم صبيانية مثلما هو الحال فى الحمامات الرومانية.

كانت الجدة تبدو فى عرقها وضخامة جثتها كأنها سبع بحر جميل ذو لون أبيض يسبح فى حمام من الرخام. أما الحفيدة فلم تكد تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت نحيفة وطرية العظام وبها طيبة تتجاوز حدود سنها. تقوم بصب الماء على الجدة بخفة ورقة يصحبهما دقة تصل إلى القدسية. كانت قد غلت الماء وأضافت إليه بعض النباتات بغرض التنقية وبعض الأوراق الأخرى حتى تكون ذات رائحة طيبة، وقد تعلقت تلك الأوراق بتجاعيد الظهر وبالشعر القوى المنسدل وعلى الكتف القوى الذى يحمل وشمًا قويًا وضع بلا رحمة وهو عبارة عن مسوخ من البحارة.

- لقد حلمت فى المساء أننى أنتظر رسالة - قالت الجدة.

أما إيرينديرا التى لم تكن تنطق بكلمة إلا عند الضرورة فقد سألت:

- أى يوم فى هذا الحلم؟

- كان الخميس.

إذن كانت رسالة تحمل أنباء سيئة - قالت - لكنها لم تصل أبدًا:

عندما انتهت من إعطاء الحمام لجدتها أخذتها إلى حجرة نومها. الجدة ضخمة لدرجة لا يمكن معها أن تسير إلا مستندة على كتف الحفيدة أو متكئة على عصا تشبه عصا الأسقف. ورغم هذه الصعوبات يبدو عليها أنها صاحبة سلطان قديم. وعلى السرير الذى يضم الكثير من التفاصيل فى مكوناته بدرجة تزيد عن الحد لتصبح كأنها هذيانًا، كانت الحفيدة بحاجة إلى ساعتين أخريين حتى تجعل الجدة تبدو مهذياناً فقامت بفك شعرها خصلة خصلة ثم قامت بتعطيرها وتصفيف شعرها وألبستها فستانًا مشجرًا بألوان استوائية ووضعت بودرة التلك على وجهها ووضعت لها أحمر شفاه ثم وضعت لها أحمر الخدود، وخططت لها حواجبها بالمسك وطلت لها أظافرها بلون الصدف اللامع. وعندما أصبحت أمامها كأنها عروس - لعبة - أكبر حجمًا من الإنسان. ذهبت بها إلى حديقة صناعية من الزهور الخانقة مثل المرسومة على فستانها

وأجلستها على كرسى بمسند كان كأنه العرش بشكل الظهر والأجناب ثم تركتها لتستمع إلى اسطوانات وضعتها على الجرامافون.

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجدة تطوف فى مستنقعات الماضى كانت إيريندرا تقوم بكنس المنزل الذى كان معتمًا وممتلئاً بقطع الأثاث الفخمة وتماثيل قياصرة من وحى الخيال وثريات تتدلى منها الأذرع وملائكة مصنوعة من الألباستر وبيانو مذهب والعديد من الساعات ذات الأشكال والأنماط المختلفة. وفى فناء البيت هناك مستودع لتخزين المياه التى تصل عبر مزاريب من عيون المياه البعيدة. وعلى أحد جوانب الخزان هناك نعامة واهنة، وهى الحيوان الوحيد من الحيوانات ذات الريش الذى أمكنه مقاومة هذه الطبيعة العاتية. كانت النعامة بعيدة عن كل شىء، أى فى قلب الصحراء فى عزبة ذات شوارع حزينة وساخنة حيث تموت ذكور الماعز رعبًا عندما تهب رياح ....

كان هذا الملجأ غير المفهوم مكانه قد بناه زوج الجدة وهو رجل كان يعمل دائمًا فى التهريب، ونال شهرة أسطورية. اسمه أماديس، وكان له ابن منها سمى بنفس الاسم أيضًا وهو والد إيرنديرا. لم يعرف أحد أصل هذه الأسرة أو فصلها. والرواية الأكثر شهرة التى تذكر بلغة الهنود تقول بأن أماديس، الوالد، كان قد افتدى زوجته الجميلة من بيت دعارة فى أنيتاس بأن قتل رجلاً

بطعنات سكين ونقلها لتكون فى حماية الصحراء. وعندما مات كل أفراد عائلة أماديس، أحدهم بسبب حمى الكدر والآخر قتلاً أثناء تصفية حسابات بين المتنافسين، قامت المرأة بدفن الجثتين فى الفناء وقامت بإقالة الأربع عشرة خادمة وأخذت تجتر ذكريات عظمتها فى ظلال هذا المنزل بفضل تضحيات الحفيدة المولودة سفاحًا والتى قامت الجدة بتربيتها منذ مولدها.

كانت إيرينديرا فى حاجة لست ساعات لتقوم بملء الساعات وضبطها. وفى اليوم الذى بدأت فيه تعاستها لم تقم بهذا العمل، ذلك أن الساعات كانت مملوءة لتعمل حتى صباح اليوم التالى، ومع ذلك قامت بمساعدة الجدة لأخذ الحمام وارتداء ملابسها وتنظيف الأرضية بالمياه وإعداد طعام الغذاء وتلميع الزجاج. وفى الحادية عشرة قامت بتغيير المياه للنعامة ورى الحشائش والنباتات الصحراوية الموضوعة على المقابر المجاورة الخاصة "بالأماديسيين" كان عليها أن تقاوم شدة الرياح التى لم تعد محتملة. لكنها لم تتصور أبدًا أن هذه ستكون رياح تعاستها. وفى الثانية عشرة كانت تلمع آخر كؤوس الشمبانيا. فى هذه اللحظة أحست برائحة شوربة وفعلت المستحيل لتصل عدواً إلى المطبخ دون أن يتأتى عن ذلك أى كسر للأوانى الزجاجية الواردة من فيينا.

استطاعت بالكاد أن ترفع الحلة التى أخذت تفور فوق الشعلة ثم قامت بوضع طبيخ آخر، على النار كانت قد أعدته

مسبقًا، وانتهزت الفرصة لترتاح بعض الشىء على كرسى فى المطبخ. أغمضت عينيها ثم فتحتهما بعد ذلك لكن لم يبد عليها التعب وأخذت تفرغ الشوربة فى السلطانية وتؤدى هذا العمل وهى نائمة.

كانت الجدة تجلس بمفردها على حافة مائدة لتناول الطعام أثناء الاحتفالات عليها الشمعدانات الفضية وأطقم السفرة لاثنى عشر فردًا. قرعت الجرس الصغير وفى الحال ظهرت إيرينديرا وهى تحمل السلطانية مملوءة بالشوربة. وفى اللحظة التى كانت تغرف لها الشوربة لاحظت الجدة أن الفتاة تبدو عليها ملامح النعاس، فمررت كفها أمام عينيها وكأنها تقوم بتنظيف الزجاج. لم تر الطفلة يد الجدة التى تابعتها بنظراتها، وعندما أدارت إيرينديرا ظهرها لتعود إلى المطبخ صاحت فيها الجدة.

- يا إيرنديدا

استيقظت فجأة فسقطت سلطانية الشوربة من يديها على السجادة.

- لا شىء يهم يا ابنتى - قالت الجدة بحنان صادق - لقد عدت للنوم وأنت تمشين.

- إنها عادة الجد - قالت إيرينديرا وهى معتذرة.

ركعت لتستعيد السلطانية ولا زالت آثار النوم عليها وحاولت تنظيف السجادة من البقعة.

- اتركيها هكذا - قالت الجدة وهى تنهرها - وعليك أن تغسليها هذا المساء.

الأمر هو أن إيرينديرا أضافت إلى أعباء المساء المعتادة عبء غسل سجادة حجرة السفرة. أضف إلى هذا أنها انتهزت عملية الغسيل هذه لتقوم بغسل الملابس التى ترتديها يوم الاثنين. بينما تضرب الرياح ضرباتها حول المنزل وتبحث عن منفذ للدخول. كانت أعباء الفتاة كثيرة لدرجة أن الظلام حل عليها دون أن تدرى، وعندما انتهت من سجادة حجرة الطعام كانت ساعة النوم قد حانت.

كانت الجدة تحاول العزف على البيانو بالضرب على أصابعه طوال المساء، وتحاول أن تغنى وتترنم بأغانى أيام الشباب وبقايا المسك لا زالت عالقة بأهدابها وبها آثار الدموع. لكنها عندما استلقت فى سريرها وهى ترتدى قميص نومها المصنوع من قماش "الموسلين" زالت عنها مرارة تذكر الأيام الخوالى.

- انتهزى يوم الغد فى تنظيف سجادة الصالة - قالت لإيريندرا- فهى لم تر الشمس منذ أيام الهرج والمرج.

- حاضر يا جدتى - أجابت الطفلة.

أخذت مروحة من الريش وأخذت تحرك الهواء على السيدة التى لا ترحم والتى بدأت تعدد مفردات الواجبات الليلية وهى تخلد للنوم.

- عليك كى كافة الملابس قبل أن تخلدى للنوم حتى يرتاح ضميرك.

- حاضر يا جدتى.

- وأن تفحصى دواليب الملابس جيداً ذلك أن العتة تنشط فى المساء.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك فى الوقت المتبقى أمامك أن تخرجى أصص الزرع إلى الفناء لتتنفس.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى للنعامة طعامها.

أخذت تغرق فى النوم ومع ذلك لا تزال تصدر أوامرها. وقد ورثت الطفلة الحفيدة عنها صفة الاستمرار فى الحياة أثناء النوم. خرجت إيرينديرا من الحجرة دون جلبة وقامت بباقى الأعمال الليلية مستجيبة دائمًا لما تأمر به الجدة النائمة.

- وعليك أن تسقى الزرع الموجود على المقابر.

- حاضر يا جدتى.

- وقبل أن تنامى تأكدى من أن كل شىء على ما يرام، فالأشياء كثيراً ما تتألم عندما لا تكون فى موضعها السليم.

- حاضر يا جدتى.

- وإذا ما حضر "الأماديسيون" أبلغيهم ألا يدخلوا - قالت الجدة - ذلك أن عصابة بورفيديوغالان - تترقبهم للقضاء عليهم.

لم تجبها إيرينديرا بعد ذلك فهى تعرف أنها أخذت تدخل فى مرحلة الهذيان. ومع ذلك لم تخالف أية تعليمات. وعندما انتهت من مراجعة مزاليج النوافذ وأطفأت باقى الأنوار، أخذت شمعدانًا من حجرة الطعام لتستضىء به حتى تصل إلى حجرتها فى الوقت الذى تملأ فيه أنفاس الجدة النائمة جو المكان عند اللحظات التى تهدأ فيها حدة الرياح.

لها حجرتها فاخرة أيضًا لكن ليس بنفس الدرجة التى عليها حجرة الجدة. كانت مليئة بالعرائس المحشوة ولعبًا أخرى على شكل حيوانات جاءتها فى آخر فترات طفولتها. ولما كان إعياء العمل يغالب إيريnديرا لم تجد متسعًا من الوقت لتخلع ملابسها فقامت بوضع الشمعدان على "الكومودينو" واستلقت فى سريرها. وبعد ذلك بقليل استطاعت رياح تعاستها أن تنفذ إلى حجرة نومها دفعة واحدة كأنها مجموعة من الكلاب فانقلب الشمعدان فوق الستارة.

وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح قد توقفت وبدأت تتساقط قطرات المطر التى أطفأت الجمرات الأخيرة وجعلت

الرمـاد، فى المنزل، يتصلب. حـاول أهل القـرية، الذين هم فى أغلبهم من الهنود إنقاذ ما تبقى من الكارثة، أخـرجوا جثة النعامة وقد تفحمت وهيكل البيانو المذهب والجزء الخلفى لأحد التماثيل. كانت الجدة تتأمل كسيرة رماد ثروتها. أما إيرينديرا فكانت جالسة بين المقبـرتين بعدمـا توقفت عن البكاء. وعندمـا أصبـحت الجدة على قناعـة بأن بقى لها القليل من الحـريق نظرت إلى الطفلة بألم نابع من القلب.

- يا طفلتى المسكينة - تنـهدت - لو عشـت حياتك كـلها فلن تستطيعى أن تدفعى لى ثمن هذا.

أخذت تسـدد لها ذلك منذ هذا اليـوم تحت المطر وذلك بأن أخذتها إلى تاجر القرية وهو رجل مـاتت زوجته، نحيف الجسم، يعرفه كل من فى الصحـراء وذلك لأنه يدفع ثمنًا مناسبًا للعذرية. وأمـام ناظرى الجدة التى أخـذت ترقب وهى رابطة الجأش، قـام الرجل بفـحص إيريندبرا بتقـشف علمى: أخذ فى الاعـتبـار قوة ساقـيها وحجم ثدييـها ومحـيط أردافها. ولم ينبس بكلمـة حتى استطاع تقدير قيمتها.

- لا زالت صـغيـرة بعد - قـال فى هذه اللحظة - ولهـا نهدان صغيران.

وبعد ذلـك طلب منها أن تصـعد على الميـزان ليتـأكد من صحة تقديره، كانت إيريندبرا تزن ٤٢ كجم.

- لا تزيد عن مائة بيزو - قال الرجل الأرمل.

- مائة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تمامًا ! قالت بصوت فيه صياح - لا يا رجل إن هذا هو مخالفة صريحة للحقيقة.

- يمكن أن يصل السعر إلى مائة وخمسين - قال.

- لقد ألحقت الطفلة بى أذى بليغًا يقدر بحوالى مليونى بيزو - قالت الجدة - وعلى هذا فهى فى حاجة إلى مائتى عام لتدفع لى ما عليها.

- فقال : لحسن الحظ فإن أفضل شيء لديها هو صغر سنها.

كانت العاصفة تهدد بالقضاء على المنزل، كما أن المطر يتسرب من السقف من أماكن كثيرة كأنها تمطر بشكل متقارب فى الداخل والخارج، شعرت الجدة أنها وحيدة وسط عالم من الركام. فقالت:

- ليتك ترفع السعر إلى ثلاثمائة.

- مائتان وخمسون.

وفى النهاية اتفقا على سعر مائتين وعشرين بيزو على أن تدفع نقدًا بالإضافة إلى بعض الأطعمة، وعندئذ أشارت الجدة على الطفلة بأن تذهب مع العجوز الأرمل، بينما أمسك هو بيدها وأدخلها فى مؤخرة المحل وكأنه يأخذها إلى المدرسة.

- إنى أنتظرك هنا - قالت الجدة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.

الجزء الخلفى من المحل عبارة عن منطقة مظلمة قائمة على أربعة أعمدة من الطوب الأحمر، أما السقف فكان من سعف النخيل المتهالك وسياج جدارى من الطوب الأخضر يبلغ ارتفاعه متراً حيث توضع فوقه البقايا الناجمة عن العواصف. وفوق هذا الساتر من الطوب وضعت أيضًا أصص الصبار والنباتات الصحراوية الأخرى، كما كان هناك سرير معلق مربوط إلى عمودين يتأرجح فى الهواء كأنه شمعة. لم يكن للسرير لون معين، وبالإضافة إلى صفير العاصفة وصوت قطرات المطر كانت تسمع صرخات آتية من بعيد وأصوات حيوانات واستغاثة غريق.

عندما دخلت إيرينديرا والعجوز فى هذا المكان اتكأ كل منهما على الأخر حتى لا تلقى بها زخة مطر تركتهما مبللين تمامًا. لم تكن أصواتهما مسموعة، كما أن حركاتهما كانت مختلفة من جراء المطر. وفى أول محاولة قام بها العجوز صاحت إيرينديرا بصوت غير مسموع وحاولت الفرار. فكان رد العجوز عليها بلا صوت، بأن قام بلىِّ ذراعها وأخذها من معصمها وجرها إلى السرير، قاومته بأن خربشته فى وجهه وعادت لتصيح فى صمت، فكان رده هو صفعة قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلتها تطير فى الهواء للحظة وشعرها الطويل يتموج

فى الفـراغ. وقام بالإمـساك بهـا من خـصرها قـبل أن تنزل إلى الأرض وألقى بها فى السرير دفعة واحدة ملؤها الفظاظة، وأمسك بركبتها حتى أصبحت بلا حراك. أذعنت إيريندير في هذه اللحظة للرعب وفقدت وعيها وتحولت إلى حالة من إصابة الذهول، بينما يقوم العـجوز بنزع ملابسـها وكأنه يقلع الحشائش ويقذف ببـقايا الملابس فكانت تطير فى الهواء متأرجحة.

ولما لم يتـبق فى القـرية أى رجـل آخر يـمكن له أن يدفع مـقابل ممارسـة الحب مع إيريندير، ذهبت بهـا الجدة فى شـاحنة متجهة إلى الأماكن التى تتم فيها عمليات التهريب. كانت الرحلة فى صندوق الشاحنة وقد أحاطت بهما أجولة الأرز وصفائح دهن الخنزير وما تبـقى من الحريق: مقـدمة سرير ملكى ومـلاك حرب والعرش المحتـرق وبعض الأشياء الأخرى غير ذات القـيمة. وفى الصندوق المرسـوم عليه صليـبـين بريشة عـريضة حـملتا رفـات الأماديسيين.

كانـت الجدة تحـتمى من الشـمس القوية بأن فـردت مظلة متهالـكة فوق رأسها. تتنفس بصعوبة من جـراء العرق والتراب. ورغم هذه الحالة تحـتفظ ببـعض سلطانها. خلف صف الصـفائح وأجـولة الأرز قامت إيريندير بسـداد ثمن الرحلة ونقل الأمـتعـة وذلك بمـمـارسة الحب مع عـمال الشاحـنة مقابـل عشرين بـيزو. وكانت دفاعاتها - فى البداية - مـشابهة للدفاع الذى اتخذته عند

اعتداء العجوز، لكن طريقة الحمـال كانت جد مختلفة إذ اتسمت بالبطء والخـبرة، وانتـهى به الأمر إلى تطويعـها باللين. وعنـدما وصلت الشـاحنة إلى أول قـرية بـعد يـوم ثقـيل كـانت إيريندير والحمال يستريحان من ممارسة الحب الجيد خلف الشحنة الساترة.

صاح سائق الشاحنة فى الجدة :

- العمار هو ابتداء من هذا المكان فصاعداً.

راقبت الجدة الشوارع البائسة وهى لا تكاد تصدق. لم يكن هناك أحد من المارة فى شـوارع هذه القرية الكبـيرة بعض الشىء، لكنها كانت حزينة بنفس الدرجة التى كانت عليها القرية السابقة.

- لا يلاحظ شىء.

- إنها أرض إرساليات دينية - قال السائق.

- أنا لا يهـمنى الحصـول على الصـدقات بل مـا يهم هو التهريب - قالت الجدة.

كانت إيريندير تستمـتع إلى الحوار الدائر بينما تحاول وضع إصبعـها فى أحد أجولة الأرز، وسرعـان ما وجدت فتلة جـذبتها فأخرجت عقداً من اللؤلؤ الحر. تأمـلته وهى تشعر بالفزع وأخذته بين أصابعـها وكأنه حـية ميـتة. فى هذه اللحظة كـان السائق يرد على الجدة:

- لا تحلمى أحلام اليقظة - يا سيدتى. لا يوجد هناك مهربون.

- وكيف لا - قالت الجدة - قل لى أنت ذلك!

- ابحثى عنهم وسترين - قالها السائق حازماً - إن كل الناس تتحدث عنهم لكن لا أحد يراهم.

أدرك الحمال أن إيريnديرا قد استخرجت العقد فسارع بأخذه منها ووضعه مرة أخرى فى جوال الأرز. وعندئذ قررت الجدة البقاء فى هذه القرية رغم فقرها فنادت على الحفيدة لتساعدها فى النزول من الشاحنة . وودعت إيريnديرا الحمال بقبلة سريعة لكنها عفوية وحقيقية.

انتظرت الجدة وهى جالسة على العرش وسط الشارع حتى انتهوا من إنزال الأمتعة، وكان آخرها الصندوق الذى به رفات "الأماديسيين" .

- إنه صندوق ثقيل الوزن كأنه ميت - ضحك السائق.

- إنهما اثنان - قالت الجدة - وعليك أن تعاملهما باحترام.

- أراهن على أنها تماثيل من العاج - ضحك السائق.

وضع الصندوق الذى يحمل الرفات كيفما اتفق وسط قطع الأثاث التى أصابها الحريق ومد يده مفتوحة إلى الجدة.

- خمسين بيزو - قال.

أشارت الجدة إلى الحمال.

- لقد تم السداد لعبدك باليد اليمنى.

نظر السائق مندهشًا إلى الحمال وصدرت عن هذا إيماءة تؤكد القول، فعاد إلى كابينة القيادة حيث كانت هناك امرأة تسافر وهى ترتدى ملابس الحداد ومعها طفل تحمله على ذراعيها وهو يبكى من الحر. كان الحمال واثقًا من نفسه جدًا وتوجه إلى الجدة بالقول:

- سوف تأتى إيريندير معى. إلا إذا رغبت سيادتك فى شىء آخر. إننى أقول ذلك بنية صادقة.

تدخلت الطفلة مفزوعة.

- أنا لم أقل شيئًا!

- أنا الذى أقول فهذه فكرتى - قال الحمال.

تفحصته الجدة وهى تراه بقامته كاملة دون أن تقلل منه بل تحاول أن تدرك الحجم الحقيقى لبنيته.

- لا مانع عندى - قالت الجدة - إذا ما دفعت لى ما خسرته بسبب إهمالها. المبلغ هو ٨٧٢٣١٥ بيزو، ولما دفعت لى

مسبقًا ٤٢٠ بيزو، أى أن المبلغ المطلوب هو ,٨٧١٨٩٥

أخذت الشاحنة تتحرك.

- صدقينى ! إننى على استعداد لأسدد لك هذا المبلغ الضخم إذا ما توفر لدى - قال الحمال جادًا - فالطفلة تساوى ذلك.

شعرت الجدة بارتياح لقرار الفتى.

- إذن عد عندما يتوفر لك هذا المبلغ يا بنى - ردت عليه بلهجة فيها ظرف - أما الآن فعليك بالذهاب لأننى إذا ما عدت لمحاسبتك مرة أخرى ستكون مدينًا لى بعشرة بيزو.

قفز الحمال على مؤخرة الشاحنة التى أخذت تبتعد. ومن هناك ودع إيرينديرا ملوحًا لها بيده، ولما كانت لا تزال تشعر بالفزع لم ترد عليه.

على نفس الأرض البوار التى تركتها الشاحنة قامت إيريندیرا والجدة بارتجال كشك مصنوع من ألواح الصفيح والسجاد الآسيوى للعيش فيها وضعتا حصيرتين على الأرض، ونامتا براحة كأنهما فى المنزل الكبير، ومكثتا نائمتين حتى نفذت الشمس بين ثقوب السقف ولفحت وجهيهما.

الجدة هى التى قامت بإصلاح هندام إيريندیرا هذا اليوم عكس ما كان يحدث دائمًا. فوضعت المساحيق على وجهها

بشكل مبالغ فيه طبقًا للموضة التى كانت سائدة أيام شبابها، وتلت ذلك بوضع أهداب صناعية وربطت شعرها بشريط بدا كأنه فراشة.

- سوف ترين نفسك فى شكل فظيع - قالت - لكن هذا أفضل : الرجال قساة جدًا فى معاملتهم للنساء.

عرفت كلتا المرأتين صوت حوافز اثنين من البغال قادمين من الصحراء، وقد وصل الصوت إلى سمعيهما قبل رؤيتهما بوقت طويل. وبناء على أوامر الجدة استلقت إيريندير على حصيرة وكأنها ممثلة مسرح مبتدئة أخذت وضعها عند رفع الستار، واتكأت الجدة على عصا الأسقف ثم خرجت من هذه الحجرة المرتجلة وجلست على العرش فى انتظار مرور البغال.

كان رجل البريد يقترب. لم يكن عمره يتجاوز العشرين رغم أن المهنة قد أضافت إلى عمره سنوات، يرتدى الكاكى وغطاء رأس من الفلين، ويحمل مسدسًا خاصًا بالجنود يضعه فى حزامه المعد لحمل الطلقات. كان يمتطى بغلة جيدة ويسحب أخرى لا زالت أقل حجمًا من التى يمتطيها وقد وضع عليها أجولة و"خرج" البريد المصنوع من القماش.

قدم التحية للجدة ملوحاً بيده عند مروره بها، وواصل سيره، لكنها أشارت إليه حتى يلقى نظرة على ما بداخل الكشك.

فتوقف الرجل ورأى إيريnديرا وهى مستلقية على الحصيرة مهندمة وقد ارتدت فستاناً مزخرفاً بالألوان الحمراء.

- هل تروق لك - سألت الجدة.

لم يدرك رجل البريد حتى هذه اللحظة ما تريدانه.

- ليس الأمر بسيئ على غير إفطار - ابتسم.

- السعر خمسون بيزو - قالت الجدة.

- عجباً هل هى من ذهب! قال - هذا المبلغ هو المطلوب لطعامى طوال شهر.

- لا تكن بخيلاً - قالت الجدة - فالبريد الجوى دخله أفضل من دخل القساوسة.

- أنا من البريد الوطنى - قال الرجل - أما البريد الجوى فهو ذلك الذى ينقل على شاحنة صغيرة.

- على أى الأحوال، الحب هو أمر هام مثله مثل الطعام - قالت الجدة.

- لكنه لا يغذى.

أدركت الجدة أن ذلك الرجل الذى يعيش على آمال الناس سيكون لديه الوقت الكافى للفصال.

- كم معك ؟ سألته.

نزل الرجل من على البغلة وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية المتآكلة وأبرزها للجدة فأخذتها جميعها كالكرة بأصابعها الخمسة وكأنها مخلب إحدى الطيور الجوارح.

- سوف أخفض لك السعر - قالت - لكن بشرط : أن تذيع الخبر فى كل مكان.

- سوف أفعل ذلك حتى الطرف الآخر من الدنيا - قال رجل البريد - فأنا أكثر نفعًا فى مثل هذه الأمور.

لم تكن إيرينديرا قد تمكنت من تحريك أهدابها وعندئذ نزعت الرموش الصناعية وأخذت جانبًا من الحصيرة لتخلى مكانًا للخطيب المؤقت. وعندما دخل الكشك قامت الجدة بإغلاق المدخل بأن جذبت الستارة بقوة.

كان الاتفاق الذى تم ذا فاعلية فقد كان الرجال معلقون بصوت وصول البريد فجاءوا من كل حدب وصوب ليعرفوا الخبر الجديد الخاص بإيرينديرا. وخلف الرجال جاءت ترابيزات القمار ومنافذ بيع الطعام. ووراء كل هؤلاء قدم المصور على دراجته واستقر به المقام أمام المعسكر فوضع الكاميرا اليدوية ذات القماش الأسود وكذا الستارة الخلفية وعليها رسمت بحيرة مليئة بالبجع الذى لا حياة فيه.

كانت الجدة تحرك الهواء بالمروحة وهى تجلس على العرش. بدا أنها غير مبالية بهذا التجمع، فما يهمها هو النظام فى طابور الزبائن الذين أخذوا أدوارهم، وكذا حقيقة المبلغ الذى يدفعونه مقدمًا ليدخلوا على إيريندرا. كانت حادة فى البداية لدرجة أنها رفضت زبونًا جيدًا كان المبلغ الذى يقدمه أقل خمسة بيزو من المطلوب. لكن بمرور الشهور أخذت تتعلم دروس الواقع وانتهى بها الأمر لقبول سداد باقى المبالغ المتفق عليها من خلال ميداليات تحمل صور القديسين أو بعض المقتنيات القديمة للأسرة وخواتم الزواج وكل شىء تتأكد من أنه ذهب جيد العيار، عندما تضغط عليه بأسنانها، رغم أنه لم يكن يلمع.

وبعد وقفة طويلة فى تلك القرية الأولى، كانت الجدة قد جمعت المال الكافى لتشترى حمارًا وبدأت تبحث داخل الصحراء عن أماكن أخرى أكثر مناسبة من أجل قبض الدين المستحق لها. كانت تسافر على بردعة مرتجلة وضعت على ظهر الحمار، وكانت تحتمى من الشمس باستخدام الشمسية المتهالكة التى كانت إيريندرا تمسك بها. كان يسير خلفهما أربعة هنود من الحمالين وهم يحملون معهم مكونات العسكر: العرش الذى تم إصلاحه وعدة النوم والملاك المصنوع من الألباستر والصندوق الذى يضم رفات الأماديسيين. وكان المصور يسير وراء القافلة وهو يركب دراجته لكنه كان بعيدًا عنهما وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر.

كان قـد مضى على الحريق سـتة أشهـر، وفى هذه اللحظة كان للجدة تصور كامل عن هذه التجارة.

- إذا مـا سـارت الأمـور هـكذا - قـالت لإيـرينديرا - فسـتكونين قد وفيت بـالدين خلال ثمانى سنوات وسـبعة أشـهر وأحد عشر يومًا.

أخذت تراجع حساباتها وهى مـغمضة العينين وتمضغ بعض الحبوب التى كانت تخرجها من كيس قماش تحتفظ فيه بالمال أيضًا ثم قالت :

- وهذا دون أن نأخذ فى الاعـتبار أجر الهنود وطعـامهم، بالإضافة إلى نفقات أخرى غير كبيرة.

لم تعـترض إيرينديرا، وهى تسـير إلى جـوار الحمـار وقد أنهكها الحر والـتراب، على الحسابات التى تقـوم بها الجدة، لكن حاولت ضبط نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

- إن عظامى تتكسر - قالت.

- حاولى أن تنامى.

- حاضر يا جدتى.

أغمضت عينيها ثم أخذت شهيـقاً عميقاً من الهواء الساخن وواصلت سيرها وهى نائمة.

* * *

ظهرت فى الأفق المترب شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص وقد أخذت ذكور الماعز تفر هنا وهناك، ثم كان ظهور الطيور بمثابة المياه العذبة في يوم أحد حار للقديس ميخائيل، قديس الصحراء. يقود السيارة مزارع هولندى ضخم الجثة اكتوى جلده بالطقس المستعر، وله شنب رمادى اللون ورثه عن أحد آباء أجداده. أما ابنه "عليس" الذى يجلس إلى جواره فهو شاب يافع ذهبى اللون عيناه زرقاوين تنطقان بالعزلة، وهيئته هى هيئة ملاك هبط عرضًا. استرعى انتباه الهولندى وجود خيمة يقف أمامها على شكل طابور كل جنود الحامية المحلية. كانوا يجلسون على الأرض ويشربون من نفس الزجاجة التى تنتقل من فم إلى فم، ويضعون على رؤوسهم أغصان شجر اللوز وكأنهم يريدون التمويه إيذانًا بالدخول فى معركة. سأل الهولندى بلغته.

- ما الذى يباع هنا بحق الشياطين؟

- إنها امرأة - أجابه الابن بتلقائية - اسمها إيرينديرا.

- وكيف عرفت

- كل الناس فى الصحراء يعرفون ذلك - أجاب عليس.

نزل الهولندى بالفندق الصغير فى القرية وأبطأ عليس بعض الشيء في الشاحنة وقام بأصابعه الماهرة بفتح حافظة النقود والأوراق التى تركها والده على المقعد وأخذ رزمة من الأوراق

المالية ووضع بعضًا منها فى جيوبه ثم عاد وترك كل شىء فى مكانه، وانتهز حلول الظلام، وعندما كان والده نائمًا تسلق خارجًا من نافذة الفندق وذهب ليأخذ دوره أمام خيمة إيريندرا.

كانت الحفلة فى أوج ازدهارها. الجنود سكارى يرقصون وحدهم حتى يفيدوا من مجانية الموسيقى. والمصور يلتقط الصور الليلية مستخدمًا ورق الماغنسيوم للإضاءة. وفى الوقت نفسه تشرف الجدة على التجارة وتقوم بعد النقود فى الخفاء وتقوم بتوزيع الأوراق كل فئة على حدة ثم تقوم بترتيب كل ذلك فى سلة. لم يتبق إلا اثنى عشر جنديًا، غير أن طابور المساء كان يضم بعض المدنيين، وكان عليس آخر فرد فى الطابور.

وقع الدور على جندى كئيب الشكل، فباعدته الجدة وزادت من هذا بأن باعدت نفسها عن لمس نقوده.

- لا يا بنى - قالت له - لن تدخل ولو كان معك ذهب الدنيا - إنك إنسان ثقيل.

شعر الجندى بالمفاجأة فهو ليس من هذه النواحى.

- ما معنى هذا؟

- إنك مُعدى بثقلك - قالت الجدة - وهذا بمجرد النظر إلى وجهك.

أبعدته بإشارة من يدها. وأذنت للجندى الثانى بالدخول.

- أدخل أنت أيها الضخم - قالت له بمزاجية - وعليك ألا تتأخر كثيراً فالوطن فى انتظارك.

دخل الجندى، لكنه خرج فى الحال ذلك أن إيريندريا كانت تريد التحدث مع جدتها. فقامت بوضع سلة النقود على صدرها ودخلت الخيمة ضيقة المساحة لكنها كانت مرتبة ونظيفة. كانت إيريندريا ممددة على السرير الشبكى وهى غير قادرة على أن تتحكم فى رعشة سرت بجسدها. فقد عوملت بقسوة وملأتها قذارة الجنود.

- يا جدتى - وفى صوتها حشرجة البكاء - إننى أموت.

وضعت الجدة يدها على جبهتها وعندما تأكدت أن حرارتها ليست مرتفعة حاولت تهدئتها.

- لم يبق إلا عشرة من الجنود - قالت.

أجهشت إيريندريا باكية بصوت حيوان يشعر بالغيظ. عرفت الجدة حينئذ أنها تجاوزت حدود الرعب، فقامت بملاطفتها بأن ربتت على رأسها لتساعدها على استرجاع هدوئها.

- كل ما فى الأمر أنك تعبت - قالت لها - هيا لاتبكِ أكثر من ذلك قومى بالاستحمام بماء الرضاب حتى يسرى الدم فى عروقك.

خرجت من الخيـمة فى اللحظة التى أخذت فيـها إيريندير تستـعيد هدوءها. فـأعادت النقود للجندى الذى كـان عليه الدور "لقد انتـهينا اليوم - قـالت له - عد غـداً وسوف تكون فى أول الطابور.

ثم صاحت فى باقى الطابور.

- انتهـينا اليوم أيهـا الفتـية. إلى اللقاء غـداً فى التاسـعة صباحًا.

خرج الجنود والمدنيون من الطابور وهم يصيحون احتجاجاً.

واجهتهم الجدة بذكاء لكنها خففت من وقع هراواتها.

- أنتم لا تضعون اعـتباراً لما يحدث أيها الحـمقى - كانت تصـيح - هل تـظنون أن هذه المخلوقـة من حـديـد، أه لو كنتم مكانها، أيها الفاسدون يا روثاً بلا وطن

فكان رد الرجال عليـها بشتـائم أقذع لكن انتـهى الأمر بأن سيطرت على الموقف وظلت تترقب وهى تحـمل الهراوة حتى رفع البائعـون موائد بيع شـحم الخنزير المقلى وانفض أصحـاب موائد القمار. وبينما كانت تستـعد لدخول الخيمة رأت عليس وحده فى المسـاحة الخالـية والمظلمـة التى كان الطابور يصطف فـيهـا شكله يوحى بهيـئة غـير واقعـية لكنه بدا مـرئياً فى هذه الظلمـة بفضل وميض وسامته.

- وأنت - قالت له الجدة - أين تركت أجنحتك؟

- كان جدى هو صاحب الأجنحة - أجاب عليس بتلقائية - لكن لا أحد يصدق ذلك.

عادت الجدة لتفحصه باهتمام كأنها مسحورة " أنا أؤمن بذلك - قالت - وعليك أن تأتى غدًا وقد وضعت الأجنحة".

دخلت الخيمة وتركت عليسًا وهو يغنى فى مكانه.

شعرت إيريندیرا بالتحسن بعد الحمام، وقد ارتدت ملابس قصيرة مزركشة، وأخذت تجفف شعرها لتنام، ومع ذلك تغالب الدموع، استغرقت الجدة فى النوم.

ومن وراء سرير إيريندیرا أطل عليس برأسه بخفة وحذر فرأت هى العينين الشغوفتين الرقراقتين، لكنها - قبل أن تنطق بكلمة - قامت بدعك وجهها بالفوطة للتأكد أن ما تراه حقيقة، وعندما طرف عليس بعينيه لأول مرة سألته إيريندیرا بصوت هامس.

- من تكون أنت؟

ظهر عليس بجزء من جسده حتى الأكتاف - "أنا أسمى عليس" - قال، وأظهر لها الأوراق المالية التى سرقها من والده، ثم أضافت :

- هات النقود.

وضعت إيريندرا يديها على السرير ثم اقتربت بوجهها من وجه عليس وواصلت حديثها معه كأنهما تلميذان فى مدرسة ابتدائية.

- كان عليك أن تكون فى الطابور - قالت له.

- لقد انتظرت الليل بطوله - قال عليس.

- والآن عليك الانتظار حتى الصباح - قالت إيريندرا - إننى أشعر وكأنى قد تعرضت للضرب على كليتى.

فى هذه اللحظة بدأت الجدة تتحدث وهى نائمة.

- لقد مضى عشرون عامًا منذ آخر مرة أمطرت - قالت - كانت زوبعة رهيبة إذ اختلط المطر بماء البحر وأصبحنا فوجدنا المنزل مليئًا بالسمك والكاراكول، أما جدتك يا أماديس رحمها الله فقد شوهدت مضيئة وهى تسبح فى الفضاء.

عاد عليس ليهرب خلف السرير، ابتسمت إيريندرا ابتسامة لذيذة.

- اهدأ - قالت له - إنها تبدو مجنونة وهى نائمة لكنها لا يوقظها زلزال.

عاد عليس ليطل من جديد. تأملته إيرينديرا بابتسامة ماكرة وفيها شيء من الود وقامت برفع الملاءة المستخدمة من على الحصيرة.

- تعال - قالت له - ساعدنى على تغيير الملاءة.

عندئذ خرج عليس من خلف السرير وأخذ الملاءة من أحد أطرافها. ولما كانت أكبر بكثير من حجم الحصيرة فقد استغرقا وقتاً فى طيها أكثر من مرة، وفى كل مرة يصبح عليس أكثر اقترابًا من إيرينديرا.

- جن جنونى لأراك - قال سريعاً - الجميع يقولون بأنك جميلة للغاية وهذا حقيقى.

- لكننى سأموت - قالت إيرينديرا.

- تقول أمى أن من يموتون فى الصحراء لن يصعدوا إلى السماء بل سيذهبون إلى البحر - قال عليس.

- قالت : أنا لا أعرف البحر.

-قال عليس: إنه مثل الصحراء لكن به ماء.

- إذن لا يمكن السير فيه.

- عرف والدى أحد الناس الذى كان يسير فى البحر - قال عليس - لكن ذلك كان منذ زمن طويل.

كانت إيريnديرا سعيدة لكنها كانت بحاجة للنوم فقالت:

- إذا ما أتيت غدًا فى الصباح الباكر سوف تكون أول الطابور.

-فقال عليس: سوف أرحل مع والدى فجر هذا اليوم.

- ألن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

- لا أحد يدرى متى - قال عليس - إننا نمر بهذه القرية بمحض الصدفة لأننا فقدنا الاتجاه الصحيح فى الطريق إلى الحدود.

نظرت إيريnديرا، مفكرة، إلى الجدة النائمة.

- حسن - قالت مقررة - هات ما معك من نقود.

أعطاها عليس النقود، فنامت إيريnديرا فى السرير لكنه ظل يرتعش فى مكانه، وفى اللحظة الحاسمة خارت عزيمته، فأخذته إيريnديرا من يده لتنتهى بسرعة وعندئذ أدركت رهبته، كانت تعرف هذا الخوف.

- أهذه أول مرة؟ سألته.

لم يجب عليها لكن ظهرت على وجهه ابتسامة خيبة الأمل، فتغيرت إيريnديرا.

– تنفس بهـدوء – قالت له – الأمـر صعب فى البـداية – لكن ستتعود عليه بعد ذلك.

جعلتـه ينام إلى جوارها، وبينمـا تساعده فى خلع مـلابسه كانت تربت عليه بمداعبات فيها أمومة.

– ما اسمك؟

– عليس.

– إنه اسم أجانب – قالت إيريندا.

– لا، إنه اسم بحار.

كشـفت إيريندا عن صدره وقبـلته قبـلات مثل تلك التى تعطى لليتامى، ثم أخذت تشمه.

– تبـدو كـأنك ذهب – قـالت – ذلك أن رائحـتك هى الزهور.

– لابد وأنها رائحة البرتقال – قال عليس.

وبعد أن عاد إليه الهدوء ابتسم ابتسامة ماكرة.

– إننا نحمل الكثير من الطيور للتمويه – أضاف – لكن ما نحمله فى السيارة ونتجه به إلى الحدود هو تهريب البرتقال.

– البرتقال لا يهرب – قالت إيريندا.

- هذا النوع نعم يتم تهـريبه - قال علـيس - فكل واحدة تساوى خمسين ألف بيزو.

كانت إيريندیرا تضحك لأول مرة منذ وقت طويل.

- إن أفـضل شيء يعـجبنى فـيك - قـالت - هو هدوءك وأنت تخترع هذه الترهات.

استـعادت إيريندیرا تـلقائيتـها وكـأن براءة عليس أثرت فى تغيير مزاجها وتوجهاتها.

كانت الجدة وهى على مسافة قـصيرة منهما لا زالت تتكلم وهى نائمة.

- فى هذه الأزمنة، أى فى بداية مـارس أتوا بك إلى المنزل - قالت - كنت تبدو أنك سلحفاة صـغيرة ملفوفة فى القطن. أما أماديس والدك الشـاب الوسيم فـقد كان سـعيـدًا فى ذلك المساء لدرجة أنه أرسل فـى البحث عن عشـرين عربة صغـيرة مـحملة بالزهور. ثم وصل وهو يصـيح ويلقى بالزهور فى الشـارع حتى أصبح اللون الذهبى هو المسيطر على القرية وكأنها البحر.

أخذت تـهذى عدة سـاعات بصـوت مرتفع وبـشغف فـيه إصرار. لكن لم يسـمعهـا عليس ذلك أن إيريندیرا أحبـته كثـيراً وبصدق. عادت لتمارس معه الحب بنصف السعر فى الوقت الذى

ظلت الجدة تهذى فيه. وظلت تمارس معه الحب حتى الصباح بدون مقابل.

كانت هناك مجموعة من المبشرين يرفعون الصلبان إلى أعلى قد تراصوا جنباً إلى جنب وسط الصحراء. كانت الرياح العاتية، مثل رياح التعاسة، تعصف بملابسهم المصنوعة من الخيش وبلحاهم الخشنة لدرجة أنهم لا يكادون يصمدون على أقدامهم. كانت دار التبشير خلفهم وهى عبارة عن مبنى من العصر الاستعمارى بها برج صغير للأجراس يقوم على حوائط خشنة عليها طبقة من الجير.

أشار المبشر الأصغر سنًا والذى كان يقود المجموعة بسبابته إلى وجود شرخ طبيعى فى الأرضية الطينية اللامعة.

- لا تعبروا هذا الخط - صاح فيهم.

توقف الحمالون الأربعة من الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على محفة خشبية عندما سمعوا هذه الصيحة. ورغم أن الجدة كانت تجلس جلسة غير مريحة على المحفة، كما أن مزاجها غير طبيعى بسبب الصحراء وترابها، إلا أنها كانت تحتفظ بتعاليها. إيرينديرا تسير إلى جوارها. وخلف المحفة هناك ثمانية من الحمالين الهنود، المصور على دراجته فى المؤخرة.

- الصحراء ليست ملكًا لأحد - قالت الجدة.

- إنهـا لله - قال المبـشـر - وأنتم تعتـدون على القـوانين المقدسة بما تحملون من قذارة.

عرفت الجدة أن المبشر قـادم من شبه جزيرة أيبريا وذلك من خلال لكنته في الحـديث. فحاولت تفادى مـواجهة مباشـرة معه حتى لا تصطدم بعناده. استعادت رباطة جأشها وقالت.

- لا أفهم ألغازك يا بنى.

أشار المبشر إلى إيريندرا.

- هذه المخلوقة لا زالت قاصراً.

- لكنها حفيدتى.

- هذا أسوأ - رد المبشر - عليك أن تضـعيها تحت وصايتنا بالحسنى، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى.

لم تكن الجدة تنتظر أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

- حسن ليكن ذلك - تنازلت وهى تشـعر بالفزع - لكننى سأعود آجلاً أم عاجلاً وسوف ترى.

ظلت الجدة وإيريندرا تـنامان لمدة ثلاثة أيام فى قرية قـريبة من الدير، وعندئذ دخلت أجـساد صـامتـة وهى تزحف، كأنـها مجـموعة اقتـحام، داخل الخيمـة. كانت هذه الأجساد لسـتة من المبـتـدئات فى الرهبنة مـن الهنديات اللائى يتـمـتـعن بالحـيـوية

والشباب، وهن يرتدين الملابس الخشنة التى يبدو وميضها، كأنها فسفورية، تحت ضوء القمر المتقطع. ودونما جلبة، قمن بتغطية إيريندرا بقماش سميك وأخذنها دون إيقاظها وكأنها سمكة كبيرة الحجم وضعيفة تم اصطيادها فى شبكة فضية.

لم يكن هناك مخرج أمام الجدة لتنقذ حفيدتها من وصاية المبشرين. وعندما أعيتها الحيل، سواء المباشرة منها أو الملتوية، لجأت للسلطات المدنية التى يرأسها أحد العسكريين، فوجدته فى فناء منزله والجزء العلوى من جسده عريان، ويصوب ببندقية من بنادق الحرب صوب سحابة سوداء تعبر الشمس المشتعلة. كان يحاول فتح ثقب فى السحابة حتى تفرغ ما فيها من مياه لكن طلقاته ذهبت أدراج الرياح ومع ذلك كان يصمت بين الحين والآخر للاستماع إلى الجدة.

- أنا غير قادر على فعل شىء - شرح لها عندما انتهى من الاستماع إليها - فهؤلاء الآباء من حقهم طبقًا للاتفاق الموقع أن يأخذوا الفتاة حتى تبلغ سن الرشد. أو حتى تتزوج.

- لماذا إذن تشغل سيادتك وظيفة العمدة؟ سألت الجدة.

- حتى أجعل المطر يسقط - قال العمدة.

وبعد أن رأى أن السحابة قد ابتعدت عن مرماه قطع مهامه الرسمية وأبدى كل اهتمامه بالجدة..

- إن ما تحتاجينه يا سيـدتى هو إنسان له وزن كبير يستطيع الدفاع عنك - قال لها - أنت فى حاجة لأحد يضمنك فى حسن السـير والسلوك من خـلال مسـتند كتـابى. ألا تعرفـين السناتور أونيسيمو سانشيث؟

كانت الجدة تجلس تحت أشعة الشـمس الحمراء الحارقة على كرسى صغير على عجزها الضخم فأجابت قائلة:

- إننى امرأة مسكينة فى هذه الصحراء الشاسعة.

تأملها العمدة بعـينه اليمنى وقد أغمضهـا قليلاً بسبب الحر وكانت نظرة متعاطفة.

- إذن لا تضيعى الوقت يا سيـدتى - قال لها - لقد ذهبت مع الريح.

لم يذهب الريح بهـا بالطبع. فقد أقـامت الخيمـة أمام دير التبشـير وجلست تفكر كأنها مـحارب وحيد يقوم بحـصار مدينة محصنة. أمـا المصور الجوال الذى يعرفـها جيداً فقـد حزم الماكينة على دراجـته واسـتـعد للذهاب عندمـا رآها وهى تحت الشـمس وعيناها مثبتتان على الدير.

- لنر من سيصاب بالإجهاد أولا - قالت الجدة - هل أنا أم هم.

- إنهم هناك منذ ثلاثمائة عام ولا زالوا يتحملون - قال المصور - أما أنا فذاهب.

فى هذه اللحظة رأت الجدة الدراجة محملة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حيث تأخذنى الرياح - قال المصور ثم مضى - الدنيا واسعة.

تنهدت الجدة.

- ليس بنفس الشكل الذى تتصور أيها التعس.

لكنها لم تحرك رأسها رغم الغيظ حتى لا يبتعد ناظرها عن الدير - وظلت على هذا الحال طوال أيام كثيرة كان الحر فيها شديداً. وطوال ليالى كثيرة تضرب الرياح فى أرجائها. وطوال أوقات التأمل لم يخرج أحد من الدير. قام الهنود ببناء عشة من السعف إلى جوار الخيمة وعلقوا فيها حاجياتهم، لكن الجدة كانت تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل يغالبها النعاس وهى جالسة على العرش وتلوك الحبوب، التى أخرجتها من كيسها، بإصرار ثور يرقد ويجتر طعامه.

وذات ليلة، مرت بالقرب منها مجموعة من الشاحنات المغطاة؛ كانت تسير ببطء، وكانت الأضواء الوحيدة المشتعلة هى

كشافات ملونة تجعل من الإضـاءة كأنها ألوان طيف. عرفت الجدة نوعيـة السيارات عـلى الفور فهى مماثلة لشـاحنات الأماديسـيين. تأخرت آخر سيارة فى هذا الرتل ثم توقفت ونزل منها رجل ليقوم بإصلاح شىء مـا فى صندوق السيارة. كان يبـدو أنه صورة طبق الأصل من الأماديسيين إذ كان يلبس قبعة ملتوية أطرافها وحذاء ذا رقبة طويلة وحـزامين من الخراطيش متعاقـدين على منطقة الصدر وبندقيـة من بنادق الجيش بالإضـافة إلى مسـدسين. ولما كـان قد غلبتها قناعة لا تقاوم نادت الجدة على الرجل.

- ألا تعرف من أنا؟ سألته

وجـه إليهـا الرجل ضوء البطاريـة التى يحملهـا بشكل لا رحمـة فيه وتأمـل للحظة الوجه الذى أصابه الإعـياء من السـهاد والعينين المتعبتين والشعر الذابل لامرأة كان يمكن أن تكون أجمل امرأة فى الدنيا رغم تقـدم عمرها. وعندما تفحصهـا جيداً ليكون على يقين من أنه لم يرها قط قبل ذلك أطفأ البطارية.

- الشىء الوحيد الذى أعرفه ومـتأكد منه - قال - هو أنك لست عذراء دى لوس ريميديوس.

- على العكس تمامـاً - قالت الجدة بصـوت فيـه عذوبة - إننى السيدة.

وضع الرجل يده على المسدس بحركة غريزية.

- أى سيدة !

- زوجة أماديس الكبير.

- إذن لست من هذا العالم - قال بتوتر - ما الذى تريدين؟

- أن تساعدونى فى إنقاذ حفيدتى، حفيدة أماديس الكبير، ابنة ابننا أماديس فهى أسيرة فى هذا الدير.

غالب الرجل خوفه.

- لقد أخطأت العنوان - قال - إذا ما تصورت أننا قادرون على التدخل فى الأمور الدينية، فلست أنت يا سيدتى التى تقولين هذا، ولست تعرفين الأماديسيين وليست لديك أى فكرة عن ماهية التهريب.

نامت الجدة فى ذلك الفجر وقتًا أقل من الليالى السابقة، وقد قضت الليل وهى تلوك الحبوب وقد لفت نفسها ببطانية من الصوف، وتولى وقت السحر إضعاف ذاكرتها وأخذ الهذيان المكبوت يصارع من أجل الخروج إلى النور رغم أنها يقظة وكان عليها أن تضغط على قلبها بيديها حتى لا تطاردها ذكريات منزل يطل على البحر تملؤه الزهور من مختلف الألوان حيث كانت تعيش سعيدة وظلت على هذا الحال حتى دق جرس الدير وأضيئت الأنوار الأولى فى النوافذ وملأت الصحراء رائحة الخبز الطازج. وعندئذ تركت نفسها نهبًا للإرهاق وقد خدعها الأمل فى

أن إيريندira قد نهضت من نومها وتحاول أن تجد الوسيلة للهروب.

أما إيريندira فلم تضيع ليلة واحدة إلا ونامت وذلك منذ أن حملوها إلى داخل الدير. فقاموا بقص شعرها باستخدام مقص تقليم النباتات وتركوا رأسها كأنها فرشاه وجعلوها تلبس القفطان الخشن الذى عادة ما ترتديه المبتدئات فى الرهبنة وسلموها دلواً من الجص للماء وكذا مقشة لتقوم بتنظيف درجات السلم كلما مر عليه أحد. هو عمل لا يتحمله إلا البغال ذلك أن صعود السلم ونزوله كان مستمراً إذ تواصل صعود المبشرين والمبتدئات اللائى تقمن بأعمال الحمالين. لكن إيريندira شعرت بذلك وكأنها تقضى يوم الأحد فى كل يوم. أى تخلد بعد العملية المهلكة إلى السرير. كما أنها لم تكن الوحيدة التى تصاب بالإرهاق من كثرة العمل عند حلول الليل ذلك أن الدير لم يكن مسخراً لمحاربة الشيطان بل لمحاربة الصحراء.

كانت إيريندira ترى المبتدئات الهنديات وهن يحكمن سيطرتهن على الأبقار لحلبها فى الزرائب، وكن يقضين أياماً كاملة وهن يتقافزن فوق صناديق خشبية من أجل تصفية الجبن. وكن يساعدن الماعز فى لحظات المخاض الصعبة. لقد رأتهن وهن يتصببن عرقاً، كأنهن عمال شحن وتفريغ، وهن يخرجن المياه من البئر ويقمن برى حديقة ترتعد من الخوف قامت بفلاحتها مبتدئات

أخريات استخدمن فى ذلك الفأس البقول فى قلب الصحراء. لقد رأت الجحيم الدنيوى فى أفران الخبز وحجرات الكى. شهدت أيضًا إحدى الراهبات وهى تقوم بمطاردة خنزير فى الفناء ورأتها وهى تتزحلق ممسكة بالخنزير من أذنيه وتسقط به فى منطقة موحلة فتهب لنجدتها اثنتان من المبتدئات وهن يرتدين مرايل من الجلد ويسيطرن على الخنزير، وقامت إحداهن بذبحه مستخدمة سكين جزارة وتلطخت ثلاثتهن بالطين والدم. رأت فى أحد الأروقة الجانبية للمستشفى بعض الراهبات المصابات بمرض السل وهن يرتدين قمصان الموتى الذين ينتظرون قضاء الله، وهن يقمن بتطريز ملاءات الأسرة وجالسات فى الشرفات بينما يقوم رجال الإرسالية بالتبشير فى الصحراء.

كانت إيريندرا تعيش مع نفسها وهى تكتشف أنماطًا جديدة للجمال والفظاعة لم تتصورها أبدًا فى هذا العالم الضيق للسرير. لكن لم تستطع أى واحدة من المبتدئات سواء الخشنات الطبع منهن أو العنيدات أن تجعلها تنطق بكلمة منذ أن حملوها إلى الدير. وذات صباح وعندما كانت تقوم بوضع الماء فى الجردل سمعت صوت آلة موسيقية وترية بدت وكأنها نور ساطع وسط ضوء الصحراء. لقد استأثرت المعجزة بلبها وجعلتها تطل على صالون ضخم وخال، ليس على حوائط شىء له نوافذ ضخمة، كانت أنوار شهر يونيو تدخل منها بقوة وتظل واقفة هناك. ورأت فى

وسط الصالون راهبة عظيمة الجمال لم ترها قبل ذلك، وهى تعزف مقطوعة موسيقية دينية على آله Claviembaloوهى طراز قديم من البيانو. استمعت إيرينديرا للموسيقى دون أن تطرف لها عين وروحها فى حالة تسامى حتى رن الجرس لتناول الطعام. وبعد الغذاء، وبينما تقوم بتلميع السلم باستخدام الفرشة المصنوعة من الحلفاء، انتظرت حتى تصعد جميع المبتدئات وتنزل بعد ذلك. وبقيت وحيدة لم يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت لأول مرة منذ أن دخلت الدير. وقلت:

- أنا سعيدة.

فقدت الجدة آمالها فى أن تحاول إيرينديرا الهرب والذهاب معها، ورغم ذلك ظلت تعيش حالة الحصار الحديدى دون أن تتخذ أى قرار، وظلت هكذا حتى يوم الأحد الذى يوافق عيد العنصرة. وخلال هذه الفترة من العام كان المبشرون يقومون بتمشيط الصحراء للبحث عن العشيقات الحبليات من أجل تزويجهن. كانوا يذهبون حتى العزب المجهولة البعيدة وهم يركبون شاحنة متهالكة ويرافقهم أربعة من الجنود جيدى التسلح وجوال به بعض الحاجيات الضئيلة القيمة. وأصعب شىء فى عملية الاصطياد هذه يتمثل فى إقناع النساء اللاتى يحاولن الهروب من الكرم الإلهى بحجة قوية تقول بأن الرجال يشعرون بأنهم أصحاب حق فى أمرهم الزوجات الشرعيات بالقيام بأعمال

أكثر غلظة وقسوة من أن تطلب من العشيقات، وفى الوقت نفسه ينامون ملء جفونهم على الأسرة المعلقة. كان الأمر يقتضى اللجوء إلى وسائل خداعية وذلك بتذويب دواء إرادة الله فى شراب من نفس المعين الذى يستخدمنه حتى لا يشعرن بوطأتها. وكان الأمر ينتهى بهن، بما فى ذلك أكثرهن مقاومة، بالاقتناع وقبول أقراط من النحاس. أما فى حالة الرجال فكان تصرفهم عكسيًا إذ عندما تقبل النساء يقوم الرهبان بإخراجهم بالقوة من على الأسرة المعلقة ويذهبوا بهم مقيدين إلى أماكن الشحن والتفريغ لتزويجهم بالقوة.

وطوال عدة أيام كانت الجدة ترى الشاحنة الصغيرة وهى تدخل الدير محملة بالنساء الهنديات الجبليات لكن لم تجد الفرصة السانحة، لكن هذه الفرصة كانت سانحة يوم الأحد (يوم العنصرة) وذلك عندما سمعت الصواريخ النارية وقرع الأجراس وشاهدت أعدادًا من جمهور البؤساء الفرحين تدخل للمشاركة فى الحفلة، ورأت نساء حبليات وهن يضعن على رؤوسهن الطرحة وتاج الزفاف ويتأبطن أذرع أزواج الصدفة حتى تكتسب العلاقة صبغة شرعية فى هذا الزفاف الجماعى.

كان آخر واحد فى هذا الطابور شاب برئ القلب ذو شعر هندى وقد قصه على هيئة ثمرة الـ **Totuma** ويرتدى لباسًا من الأسمال ويحمل فى يده شمعة طويلة عليها شريط من الحرير. نادته الجدة.

- قل يا بنى، أود أن تقول لى شيئًا - سألته بصوف ناعم
- ماذا أنت فاعل فى هذا الهرج والمرج.

كان الفتى يشعر بالخوف وهو يحمل الشمعة، ولما كانت أسنانه قوية كأنها أسنان الحمار، كان يجد صعوبة فى إغلاق فمه.

- الأمر هو أن الآباء سيقومون بعمل التناول الأول لى - قال.

- كم دفعوا لك؟

- خمسة بيزو.

أخرجت الجدة من كيس نقودها حزمة من الأوراق المالية نظر إليها الفتى وقد شعر بالدهشة.

- سوف أعطيك عشرين بيزو - قالت الجدة - لكن ذلك ليس من أجل التناول الأول بل حتى تتزوج.

- وممن أتزوج؟

- من حفيدتى.

بهذه الطريقة تزوجت إيريندرا فى فناء الدير وهى ترتدى قفطان السجينات وتضع على رأسها طرحة أهدينها إليها المبتدءات، ودون أن تعرف ما هو اسم الزوج الذى اشترته لها الجدة، تحملت بأمل غير واثق عملية الركوع على الأرض المليئة

بالحصى الكريهة التى تشبه رائحة جلد ذكر الماعز المنبعثة عن المائتى عروس الحبليات. وتحملت طول رسالة القديس بابلو التى ألقيت باللغة اللاتينية فى هذا القيظ المحرق وذلك لأن المبشرين لم يجدوا لديهم الأسباب لمعارضة مصيدة الزواج غير المتوقعة، إلا أنهم وعدوها بآخر محاولة للإبقاء عليها فى الدير، ومع كل هذا فعند نهاية حفل عقد القران، وفى حضور كل من الممثل الرسولى والعمدة العسكرى الذى كان يطلق النيران على السحب ووجود الزوج الذى هلّ حديثًا، وجدتها اللامبالية وجدت إيرينديرا نفسها تحت السحر الذى سيطر عليها منذ مولدها. وعندما سئلت عن رغبتها الحرة والحقيقية والنهائية لم تتردد لحظة واحدة.

- أريد الذهاب من هنا - قالت، وأوضحت مشيرة إلى الزوج - لكنى لن أذهب معه، بل أنا ذاهبة مع جدتى.

قضى عليس الأمسية بالكامل محاولاً سرقة برتقالة من مزرعة والده الذى لم تفارقه عيناه وهما يقومان بتقليم الأشجار المريضة، أما أمه فكانت تحرسه وهى فى المنزل. وفى النهاية تخلى عن عزمه، فى هذا اليوم على الأقل، وأصبح عكر المزاج وهو يساعد والده حتى انتهيا من تقليم باقى أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفخمة ساكنة وبعيدة عن الأعين، أما المنزل الخشبى ذو السقف المصنوع من ألواح الصفيح، فقد كانت توضع على نوافذه شباك نحاسية وله شرفة ضخمة أقيمت على دعامات

ووضعت فيـها نباتات برية ذات زهور نفاذة الرائـحة. كانت والدة عليس فى الشرفـة مستلقـية على كرسى هزاز وقـد وضعت على صدغيها بعض الأوراق المدخنة لمقاومة الصداع. أما نظراتها الثاقبة التى يتميـز بها الهنود الأُصلاء فكانت تتابع الابن وحركـاته كأنها حـزمة ضـوء غيـر مرئى حـتى فى الأمـاكن المنزوية من حديقـة البرتقال. جمالها أخاذ، وهى أصغر سنًا بكثير من الزوج. ترتدى القميص القبلى كمـا كانت على علم ودراية بالأسرار القديمة لبنى جلدتها.

عندما عاد عليس إلى المنزل وهو يحـمل عدة التقليم طلبت منه والدته أن يأتى لها بالدواء الـذى يجب أن تتناوله فى الرابعة، والموجـود على منضـدة صغـيـرة قريبـة. وبمجـرد أن لمس الدواء والكوب تبدل لونهـما. وبعد ذلك لمس على سـبيل اللعب، إناءً من الزجاج كـان موضوعًا على المنضـدة مع أكواب أخرى فتـغير اللون إلى اللون الأزرق.

كانت أمه تراقبه وهى تتنـاول جرعة الدواء، وعندما تأكدت أن ما تراه ليس سحر عين أو هذيان سألته بلغتها المحلية:

- منذ متى يحدث لك هذا؟

- منذ أن عدنا من الصحراء - قال عليس متحدثاً بلغة الأم
- وهذا يحدث لى مع كل ما هو زجاجى.

وحتى يبـرهن على ذلك أخذ يلمس الأكواب الواحـد بعد الآخر، فأخذ كل كوب لوناً مختلفاً.

- هذه الأمور تحـدث فقط من جـراء الحب - قالت الأم - من هى؟

لم يرد عليس، أمـا والده الذى لم يكن يعـرف هذه اللغـة المحلية فكان يمر فى الشرفة وهو يحمل فرعًا به ثمار البرتقال.

- عم تتحدثان؟ - سأل عليسًا بالهولندية.

- مجرد كلام - أجاب عليس.

لم تكن والدة عليس تعرف الهولندية. وعندما دلف زوجها إلى الداخل سألت ابنها باللغة المحلية.

- ماذا قال لك؟

-فقال : لا شىء ذو قيمة.

اختـفى والده داخل المنزل ثم عاد ليراه وهو فى مكتـبه من خلال إحدى النوافذ، انـتظرت الأم حتى تكون بمفردها مع عليس وعندئذ أصرت.

- قل لى من هى؟

- لا يوجد أحد - قال عليس.

أجاب بلا اهتمام ذلك أنه كـان يراقب تحركات والده داخل المكتب فـرآه يضع البـرتقال فـوق الخزنة وذلـك حتى يقـوم بحل الشفرة، وفى الوقت الذى أخذ يراقب فيـه والده كانت أمه تراقبه هو.

- منذ زمن طويل وأنت لا تأكل الخبز - لاحظت الأم.

- لا أرغب.

سرعـان ما اعـتلت وجه الأم حيـوية غريبـة "هذا كذب - قالت - الموضـوع هو أنك تعانى من الحب ومن هـم على الجانب الآخر لا يسـتطيعون تناول الخبـز" وتحول صوتها مـثل عيناها من ملامح التضرع إلى نغمة التهديد.

- الأجدر بك أن تـقول لى من هى - قـالت - أو أن أقوم بإعطائك حماماً بالقوة لتطهيرك.

قام الهولندى بفتح الخزانة ووضع البرتقالات فى الداخل ثم عـاد لإغلاق البـاب المصفح. ابتـعد عـليس فى هذه اللحظة عن النافذة وقام بالرد على والدته بنغمة غير صبورة.

- لقد قلت لك أن لا أحد هناك - قال - وإذا لم تصدقينى فاسألى والدى.

ظهر الهولندى على باب المكتب وهو يقـوم بإشعال الغليون كما كـان يحمل الإنجيل الذى تفسخت جلدته تحت إبطه. فـسألته المرأة بالأسبانية:

- على من تعرفتم فى الصحراء؟

- لا أحـد - أجاب الـزوج وهو ذاهل بعض الشىء - وإذا لم تصدقينى فاسألى عليسًا.

جلس آخر المـشى وهو يدخن غليونه حتى نفـذ ما به من تبغ؛ وبعد ذلك فـتح الإنجيل كيفـما اتفق وأخذ يقرأ فـقرات من مواضع مختلفة على مدار ساعـتين، كان يقرأ بالهولندية وبصوت مسموع.

كان عليـس - حتى منتصف الـليل - لا زال يفكر بتركـيز لدرجـة أنه لم يستطـع النوم، أخذ يتـقلب فى سـريره المعلق لمدة ساعة مـحاولاً السيطرة على آلام الذكريات التى أعطتـه فى النهاية حافز اتخاذ القرار. وعندئذ نهض وارتدى البنطلون الجينز وقميص "كاروهات" اسكتلندى والحذاء المخصص لركـوب الخيل، ثم قفز من النافذة وهرب من البيت وقـد أخذ معه سيارة النقل الـصغيرة المحملة بالعصافير. وعندما مـر بحديقة البرتقال قطف البرتقالات الثلاثة الناضجة التى لم يستطع سرقتها فى المساء.

وظل يسير فى الصحـراء باقى الليل، وعند شروق الشمس أخذ يسـأل فى القرى والعزب عن الاتجـاه الذى سلكته إيرينديرا، لكن لا أحد يشفى غليـله، وأخيرًا قالوا له إنها تسـير خلف فريق الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانشيث وأنها يمكن أن تكون

فى هذه المرحلة فى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يجدها هناك بل كانت فى القرية التالية. لكن إيرينديرا لم تكن مع فريق الحملة ذلك أن الجدة استطاعت أن تجعل السناتور يشهد لها بحسن السير والسلوك من خلال ورقة كتبها بخط يده واستطاعت بهذه الورقة أن تفتح مغاليق الأبواب الموصدة أمامها فى الصحراء. وفى اليوم الثالث التقى برجل البريد الوطنى فساعده على معرفة العنوان الذى يبحث عنه.

-إنهما متجهتان نحو البحر - قال له - وأسرع فى سيرك ذلك أن القحبة العجوز تريد العبور إلى جزيرة "أروبا".

وجد عليس فى الاتجاه الذى سلكه بعد نصف يوم من السفر الخيمة الكبيرة التى قامت الجدة بشرائها من سيرك كان فى طريقه للتفكك. المصور الجوال عاد ليرافقها، وهو هذه المرة على قناعة بأن الدنيا ليست واسعة كما كان يتصور، وعدته مهيأة للعمل بالقرب من الخيمة، كما كانت هناك مجموعة من الموسيقيين من عازفى الآلات النحاسية تخلب لب زبائن إيرينديرا بفالس مهيب.

أخذ عليس دوره للدخول، وأول شيء لفت انتباهه كان النظافة والنظام داخل الخيمة. سرير الجدة قد أصبح على سابق عهده من الفخامة، ووضع تمثال الملاك فى مكانه المناسب بجوار

الصندوق الجنائزى للأماديسيين، كما كان هناك (بانيو) معدنى يقوم على أرجل بهيئة أرجل الأسد. أما إيريندبرا فهى مستلقية على سريرها الجديد ذى الظلة، عريانة وهادئة وتشع منها ملامح الطفولة وهى تحت حزمات الضوء النافذة إليها عبر الخيمة. تنام وعيناها مفتوحتان، توقف عليس إلى جوارها وهو يحمل البرتقالات فى يده ولاحظ أنها كانت تنظر نحوه دون أن تراه، وعندئذ مرر يده أمام عينيها ونادى عليها باسم ابتكره ليفكر فيها :

- يا أَرِيدنِيرى.

استيقظت إيريندبرا، شعرت أنها عريانة أمام عليس، صاحت صيحة مكتومة وغطت نفسها بالملاءة حتى رأسها.

- لا تنظر إلىّ - قالت - أنا غير مهندمة.

- إنك بلون البرتقال - قال عليس، وقام بوضع الفاكهة على مستوى عينيها لتقوم هى بالمقارنة - انظرى.

كشفت إيريندبرا عينيها وتأكدت أن البرتقالات لها نفس لونها.

- الآن لا أريدك أن تبقى - قالت.

- إننى دخلت إلى هنا لأريك هذا - قال عليس - تصورى.

قام بتقشير برتقالة طازجـة بأظافره وقسمها بكلتا يديه وبين لإيريnديرا عما بـداخل البرتقالة: ففى داخل البرتـقالة كانت هناك ماسة حرة.

- هذه هى البرتقالات التى نأخذها إلى الحدود - قال.

- لكنها برتقالات حية - قالت باستغراب.

- بالطبع - ابتسم عليس - يقوم والدى بزراعتها.

لم تصدق إيريnديرا ذلك فكشفت عن وجهها وأخذت الماسة بأصابعها وأخذت تتأملها وهى مندهشة. قال عليس:

- بثلاثة من هذه يمكن أن نطوف حول العالم.

أعادت إليه إيريnديرا الماسة وهى تشـعر بقليل من الحماس، أصر عليس.

- أضف إلى ذلك عندى سـيارة نقل صـغيـرة - قال - ثم ... انظرى !

أخرج من تحت القميص مسدساً قديماً.

- لا يمكن لى أن أغادر المكـان قبل عشـر سنوات - قالت إيريnديرا.

- سوف تذهبين - قـال عليس - هذه الليلة سوف أنتظرك فى الخارج وعليك انتهاز الفرصـة عندما ينام سبع البحر الأبيض،

وسوف تكون كلمة السر هى تقليد صوت البومة. قام بتقليد صوت البومة، ولأول مرة تضحك عينا إيرينديرا.

- إنها جدتى.

- البومة؟

- سبع البحر.

ضحكا. لهذا اللَّبْس لكن إيريندير استأنفت الحوار.

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى أى مكان دون إذن من جدته.

- لا يجب أن يقال لها شىء.

- هى ستعرف على أى الأحوال - قالت إيريندير: إنها تحلم بما يحدث.

- عندما تبدأ تحلم بأنك سوف تذهبين، فإننا سنكون على الجانب الآخر من الحدود، وسوف نعبرها مثل المهربين. قال عليس.

أمسك بالمسدس كأنه بطل سينمائى وقلد صوت الطلقات ليقنع إيريندير بإقدامه. لم تقل نعم أو لا لكن عينيها تنهدتا وودعت عليس بقبلة، كان عليس قد عاش الانفعال، ثم قال مغمغمًا.

- غداً سوف نرى السفن وهى تمر.

وبعد السابعة بقليل من تلك الليلة كانت إيرينديرا تقوم بتمشيط الجدة عندما عادت رياح تعاستها لتهب من جديد. وفى حماية الخيمة، هناك الهنود الحمالون وكذا مدير الفرقة الموسيقية فى انتظار قبض الأجر، انتهت الجدة من عد النقود فى صندوق قريب منها، وبعد أن اطلعت على دفتر الحسابات قامت بدفع الأجر لكبير مجموعة الهنود.

- ها هو مبلغ عشرون بيزو قيمة عمل الأسبوع يخصم منها ثمانية مقابل الأكل وثلاثة مقابل الشرب، ويخصم منها نصف بيزو لحساب القمصان الجديدة والباقى هو ثمانية بيزو ونصف، قم بعد المبلغ جيداً.

قام كبير الهنود بعد المبلغ وذهبوا جميعًا وهم يؤدون تحية الاحترام.

- شكراً يا بيضاء.

أما التالى فكان مدير الموسيقيين، عادت الجدة لتطلع على دفتر الحسابات وتوجهت إلى المصور الذى كان يحاول لصق الكم القماش الأسود للكاميرا مستخدمًا بعض الصمغ الهندى.

- علام اتفقنا؟ قالت له - هل ستدفع ربع مستحقات الموسيقيين أم لا؟

لم يرفع الموسيقى رأسه ليجيب على سؤالها.

- الموسيقى لا تظهر فى الصور.

لكنها تجعل الناس فى حالة نفسية جيدة للتصوير - قالت الجدة.

- على العكس من ذلك - قال المصور - إنها تذكرهم بالموتى، وبعد ذلك يظهرون فى الصورة وعيونهم مغمضة.

تدخل مدير الفرقة الموسيقية.

- الموسيقى لا تجعل العيون مغمضة - قال - بل إنها فلاشات التصوير ليلاً.

- إنها الموسيقى - أصر المصور.

أنهت الجدة الجدال "لا تكن بخيلاً" - قالت للمصور - تأمل جيداً فى الوضع الممتاز الذى عليه السناتور أونيسمو سانشيث وهذا بفضل مجموعة الموسيقيين المرافقين له. وبعد ذلك قالت بلهجة حادة:

- عليك أن تدفع الجزء الذى يخصك أو أن تذهب بعيداً عنا، وليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة الضعيفة كل النفقات.

- إننى أسير نحو مصيرى بمفردى - قال المصور - فأنا لست إلا فناناً.

هزت الجدة كتفيها وانشغلت مع الموسيقى وسلمته حزمة أوراق مالية طبقًا للرقم المدون فى الدفتر.

- الحساب هو مائتان وأربعة وخمسون ورقة، قالت له - فئة كل واحدة خمسون سنتًا، وأضف إلى ذلك اثنين وثلاثين عن أيام الآحاد وأيام الأعياد بمعدل ستين سنتًا كل واحدة يكون الإجمالى مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون سنتاً.

لم يأخذ الموسيقى المبلغ.

- المبلغ المطلوب هو مائة واثنتان وثمانون بيزو وأربعون سنتًا - قال - ذلك أن الفالس أغلى.

- ولماذا؟

- ذلك أنه أكثر حزنًا - قال الموسيقى.

- إذن فعليك أن تعزف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين مقابل كل فالس أدين لك به. ونسوى الحساب بهذا الشكل.

لم يفهم الموسيقى منطق الجدة لكنه قبل بالحساب هكذا وهو يقوم بفك رزمة الأوراق المالية. وفى هذه اللحظة كانت الرياح العاتية على وشك أن تخلع الخيمة، وبعد أن سكنت سمع فى الخارج الصوت الحزين للبوم.

لم تدر إيريندرا ماذا تفعل حتى تخفى توترها. قامت بإغلاق صندوق النقود ووضعته تحت السرير، لكن الجدة أدركت

ما بها من خوف من خلال يدها وهى تسلمها المفتاح - لا تخافى - قـالت لها - هـذه الطيور عـادة مـا تكون موجـودة فى ليـالى الزوابع، ومع ذلك لم تبد منهـا بادرة اقتناع وخاصـة عندما رأت المصور وهو يحمل الكاميرا على كتفه ويغادر المكان.

- ابق حتى الصباح إذا ما أردت - قالت له - فالموت طليق السراح فى هذه الليلة.

سمع المصور صوت البومة، لكنه لم يغير من نيته.

- ابق يا بنى - أصرت الجدة - ولو كان هذا بفضل معزتك عندى.

- لكن لن أدفع للموسيقى شيئًا - قال المصور.

- ما عدا هذا - قالت الجدة - إلا هذا.

- أترين؟ - قال المصور - إنك لا تحبين أحدًا.

- إذن ابتعد - قالت - يا من ولدت يوم نحس!

كانت تشعر أنها مسـتغلة، ولهذا ظلت تصب عليه اللعنات فى الوقت الذى تسـاعـدها فـيـه إيرينديـرا على النوم " ابن الأم الملعونة، ما الذى يعرفـه ابن الساقطة هذا عن قلوب الآخرين" لم تهتم إيرينديرا وذلك لأن صـوت البومة كان ينادى عليـها بإصرار فى اللحظات التى تسكن فـيها الرياح. كـانت تشعـر بالرهبة من

جـراء الحيـرة. الجدة دخـلـت السرير سـيـراً على نفس الخطوات المعهودة فى المنزل الكبير القـديم. وفى الوقت الذى كانت الحفيدة تقوم فيه بالتهوية عليـها تجاوزت الجدة حالة الحنق والغيظ وعادت تسترد تنفسها الطبيعى.

- عليك بالاستـيقاظ مبكراً - قالت - وذلك حـتى تقومى بغلى مياه الحمام الخاص بى وبه الأعشاب قبل أن يأتى الناس.

- حاضر يا جدتى.

- وفى الوقت الباقى أمامك عليـك بغسل الملابس الداخلية المتسخة الخاصة بالهنود وبذلك نخصم المزيد من حسابهم للأسبوع القادم.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريندبرا.

- ونامى ببطء حتى لا تتـعبى فغداً الخـميس هو أطول يوم فى الأسبوع.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى الطعام للنعامة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريندبرا.

تركت المروحة عند رأس السرير وقامت بإشعال شمعتين من الشموع أمام الصندوق الذى به رفـات الموتى، ولما كانت الجدة قد نامت فقد أصدرت لها هذا الأمر متأخرة.

- لا تنسى إشعال شموع الأماديسيين.

- حاضر يا جدتى.

كانت إيريnديرا تعرف أنها لن تستيقظ، ذلك أنها بدأت تهذى. سمعت عواء الرياح حول الخيمة، لكنها لم تعرف هذه المرة أيضًا زوبعة تعاستها. أخذت تحملق فى الظلام حتى أخذ صوت البومة يتردد من جديد، وأخيراً تغلب حبها للحرية على الأسر السحرى لجدتها.

لم تكد تسير خمس خطوات خارج الخيمة حتى وجدت المصور الذى يحزم حاجياته على الشبكة الخلفية للدراجة. كانت ابتسامته الماكرة مثاراً لتهدئتها.

- أنا لا أعرف شيئًا - قال المصور - وأنا لم أر شيئاً ولن أدفع للموسيقيين شيئاً.

ودعها ودعا لها بالبركة بإيماءة معروفة، اتجهت إيريnديرا جريًا نحو الصحراء وقد حزمت أمرها بشكل نهائى. واختفت فى ظلمة الرياح متجهة صوب صوت البومة.

فى هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطة المدنية على الفور. وعندئذ قفز قائد الحامية المحلية من على سريره المعلق، فى السادسة صباحًا عندما أظهرت له رسالة التوصية التى وقعها السناتور. كان والد عليس ينتظر على الباب.

- كيف تريدين منى قراءتها، اللعنة - صاح القائد - إننى لا أعرف القراءة.

- إنها رسالة توصية من السناتور أونيسمو سانشيث - قالت الجدة.

قام القائد بسحب بندقية معلقة بالقرب من السرير ولم يوجه المزيد من الأسئلة، وأخذ يصيح موجهًا أوامره لأتباعه، وبعد خمس دقائق كان الجميع على متن شاحنة حربية صغيرة، أخذت تنهب الأرض متوجهة إلى الحدود، وكانت الرياح تهب فى الاتجاه المعاكس، الأمر الذى أدى إلى إزالة أى آثار للهاربين. القائد يجلس فى المقعد الأمامى إلى جوار السائق وخلفهما الهولندى ومعه الجدة. وفى كل مقعد من مقاعد العربة هناك أحد الجنود المسلحين.

أوقفوا قافلة الشاحنات المغطاة بالقماش العازل، بالقرب من القرية عندئذ قام عدد من الرجال الذين يسافرون مختبئين تحت الأغطية بتصويب مدافعهم الرشاشة وبنادق القتال على الشاحنة العسكرية، سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المكان الذى وجد فيه شاحنة زراعية صغيرة محملة بالعصافير.

استأنف القائد سيره قبل الإجابة.

- لسنا جواسيس على أحد - قال باستياء - إننا مهربون.

رأى القـائد المدافع والدخـان يخرج من فـوهاتهـا وهى تمر بالقرب من أمام عينيه فرفع ذراعيه وابتسم.

- عليكم أن تسـتحـوا بعض الشيء - صـاح فيـهم - ولا تسيروا هكذا فى وضح النهار.

كانت الشاحنة الأخيرة تحمل لافتة علقت على الجزء الخلفى تقول : "أفكر فيك يا إيريندير" . الرياح تزداد قوتها كلما تقدموا نحو الشمال، وأخـذت حرارة الشمس ترتفع ووصل الأمر إلى أن أصـبح من العسـير التنفس بـسبب الحـر والتراب داخل الشـاحنة المغلقة.

كـانت الجدة هى أول من لمح المصـور: كان يغـالب الرياح فهو يأخذ الاتجاه الذى هم فيـه، ولم يكن معه أى وسيلة للحماية إلا منديلاً ربطه على رأسه.

- ها هو هناك - أشارت إليـه - إنه متواطئ معـهما، هذا الذى ولد يوم شؤم.

أمر القائد واحداً من أتباعه بأن يتولى أمر المصور.

- أمسك به وانتظر فى هذا المكان - قال - سوف نعود.

قفـز الجندى من مكانه ونادى على المصور مرتين ليـتوقف. لم يسـمعـه المصور نظراً لأن الـرياح كانت تهب فى اتجـاه عكس

الصوت، وعندما مرت به الشاحنة لوحت له الجدة بإشارة فيها ألغاز، إلا أنه فسرها على أنها تحية، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً، لم يسمع الطلقة، طار فى الهواء وسقط ميتاً على الدراجة وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يعرف من أين أتت.

قبل منتصف النهار، بدأوا يلاحظون وجود الريش الذى يطير فى الهواء، كان ريش عصافير جديدة، تعرف عليها الهولندى لأنه يخص عصافيره التى نتفت الرياح ريشها، فقام السائق بتصحيح المسار وداس على بدال البنزين بقوة ليزيد من سرعة السيارة، وقبل أن تنقضى نصف الساعة لمحوا الشاحنة الصغيرة فى الأفق.

ولما رأى عليس ظهور السيارة العسكرية فى مرآة الشاحنة بذل جهده لزيادة فارق المسافة، لكن الموتور كان قد وصل إلى أقصى طاقته. كانا قد رحلا دون نوم وقد استسلما للإرهاق والعطش. كانت إيرينديرا تنام على كتف عليس، فاستيقظت مذعورة. إذ رأت السيارة العسكرية التى أصبحت قام قوسين منهما، وبعزيمة بريئة أخذت المسدس من الشنطة الأمامية فى الكابينة.

- لن يفيد شيئًا - قال عليس - إذ كان يخص فرانسيس دراك.

قـامت بالدق عليـه عـدة مـرات ثم ألقت به من النافـذة. تقدمت الدوريـة العسكرية الشاحنـة الصغيـرة المتهالـكة والمحملة بالعصافـير التى تنتف الرياح ريشها، ثم قامـت الشاحنة العسكرية بالدوران قليلاً لتغلق الطريق أمام الشاحنة الصغيرة.

* * *

تعرفتُ عـليها فى هذه الفـترة التى كـانت تعتـبر من أزهى عصورهما رغم أنه لم يكن من المستحب التعرض تفصيليًا لحياتهما إلا بعد ذلك بأعوام طويلة. كـان هذا عندما غنى رفائيل إسكالونا أغنية تعرض فيها للنتيجة الرهيبة للدراما، وبدا لى أن من المناسب سرد ذلك. لقـد كنت أبيع الموسوعات وكتب الطب فى مـحافظة "ديو أتشا"، كما أن البارو ثيبيدو ساموديو هو الآخر يطوف بتلك النواحى لبيع ماكـينات الجيلاتى المصنوع من البيرة، فأخـذنى معه فى الشاحنة التى يقودها وطفت معه بقـرى الصحراء، وكان هدفه أن يحدثـنى عن شىء ما. وتحدثـنا كثيـراً عن أمور لا قـيمـة لها وتناولنا الكثيـر من البيرة دون أن نعرف المكان والزمـان الذى نعبر فيـه الصحـراء ونصل إلى الحدود، ها هى خيـمة الحب المتـجولة هناك وقد علقت عليها لافتات تقول: "إيرينديراهى الأفضل" كان الطابور الطويل والمتعرج والذى يضم رجالاً من مختلف السلالات والطبقـات يبدو كأنه حـية مكونة من فـقرات إنسانيـة، نائمة فى المناطق الخلوية والميـادين وبين المحـلات المتـراصة والأسـواق التى

يملؤها ضـجيج البـشر ثم تخـرج من شوارع تلك المدينة الـوعرة المليئة بالمهربين الذين حطوا فيها بصـفة مؤقتة. كان كل شارع كأنه مكان مفتوح للمغامرة، وكان كل منزل بمثابة (كانتين)، وكل باب ملجأ للمتهربين من التجنيد. كـانت أصوات المقطوعات الموسيقية غير المفهومة والنداءات بصوت مرتفع كلها تشكل ضجيجًا مزعجًا وسط الحر المهلك.

بين هذا الجـمع ممّن لا وطن لهم، وهؤلاء الذين يطلـبون الرزق أيًا كان مصدره كان "بلاكمان" الطيب، يتكئ على منضدة وهو يطلب حية حقيقية ليـجرب على نفسه الترياق الذى اخترعه. كانت هناك المرأة التى تحولت إلى عنكبـوت لأنها عصت والديها، وكانت تقبض من كل من يريد لمسها خمسين سنتًا حتى يتأكدوا أن ليس هناك خدعة. وترد على الأسئلة التى توجـه إليها حول سبب شقائها. كـان من بين الجمهور أيضًا أحد مبعـوثى الحياة الخالدة، وكان يـعلن قرب مـجىء الوطواط النجمى الطيـار وبما ينفثـه من كبريت سوف يؤثر على نظام الطبيعـة وسوف يجعل أسرار البحار تطفو على السطح.

كان المكان الـوحيد الذى يتـميـز بالهدوء هو حى التـسامح الذى يأتى إليـه بقـايا ضـجـيج المدينة، هناك نسـاء قـد أتين من مخـتلف الجـهات يتـثاءبن وهن جـالسات فى صـالونات الرقص المهجورة. كن قد نمن القيلولة وهن جالسات دون أن يوقظهن أحد

ليمارس الحب معهن، وظللن ينتظرن الخفاش النجمى تحت المراوح ذات الأجنحة والمعلقة فى السماء المنبسطة. نهضت واحدة منهن فجأة وتوجهت إلى إحدى الطرقات الممتلئة بزهور البنفسج التى تطل على الشارع. كان الراغبون فى لقاء إيريندريا يمرون هناك.

- لنر - صاحت فيهم - ما هو الذى عند تلك وليس عندنا نحن؟

- إنها رسالة توصية من السناتور - صاح أحدهم.

خرجت نساء أخريات إلى الطرقة وقد شد انتباههن الصياح والضحكات.

- منذ أيام الطفولة وهذا الطابور لا زال هناك - قالت إحداهن - تصورى أن يقوم كل واحد منهم بدفع خمسين بيزو.

- فقالت التى خرجت أولاً مقررة :

- بالنسبة لى سوف أذهب لأرى ما الذى عليه ابنة السبعة أشهر هذه.

- وأنا أيضًا - قالت أخرى - وهذا أفضل من البقاء هنا وتسخين مكان الجلوس مجانًا.

انضم إليهن نساء أخريات وهن فى طريق الذهاب وعندما وصلن إلى خيمة إيريندريا كن قد كوّنَّ فرقة مليئة بالجلبة ودخلن

عليها دون إذن. وأفزعن بضرباتهن الرجل الذى وجدنه وهو يقوم بالتمتع بأفضل شىء يمكن أن يجلبه له المال الذى دفعه، وأمسكن بسرير إيريندرا وخرجن به كأنه محفة إلى الشارع.

- إن هذا عدوان - كانت الجدة تصيح - أيتـها القافلة غير الأمينة يا لكن من هجامات.

ثم توجـهت إلى الرجال الذين كـانوا فى الطابور - وأنتم أيها الذكـور، أين هى رجولتكم التى سمحت بهـذا العدوان على مخلوقة ضعيفة - إنكم مخنثون.

ظلت تصيح بـأقصى ما يصل إليـه صوتها وتـقوم بتوجـيه ضربات بهراوتها لهؤلاء الذين هم بالقـرب منها، لكن غضبها تاه وسط صيحات الجمهور واستهزائه.

لم تستطع إيريندرا الفرار من هذه المهزلة والسخرية ذلك أن جـدتها كـانت تربطها بسلسلـة كلب فى أحد أجناب السـرير منذ محاولة الفـرار. لكن لم يمسسها أحد. لقـد طافوا بها وهى على سريرها المغطى بالنامـوسية فى الشوارع المزدحمـة وكأنهم يطوفون رمزيًا بالتـائبة المقيدة بالسلاسل ثـم يضعونها فى النهـاية فى غرفة للحريق وسط الميدان الكبـير. كانت إيريندرا منكفئة على نفـسها وتغطى وجـهـها لكن دون أن تبكى، وهكـذا ظلت تحت وطأة حرارة الشمس وهى تعض - خـجلاً وغيظًا- سلسلة الكلب التى

تمثل مصيرها المؤلم حتى جاء أحد الناس وترفق بها ووضع قميصًا عليها.

كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيتهما فيها، لكنى عرفت بعد ذلك أنها بقيت فى هذه المدينة المطلة على الحدود تحت حماية السلطات المحلية حتى أنفقت الجدة كل ما لديها من أموال وعندئذ تركتا الصحراء واتجهتا صوب البحر. كان من النادر أن يرى وفرة هائلة من ممالك الفقراء. كان الأمر عبارة عن طابور طويل من العربات التى تجرها الثيران حيث وضع فوقها نسخ مقلدة وغير جيدة من الأشياء التى لم تنج من الكارثة التى حلت بالمنزل الكبير. ولم يقتصر الأمر على التماثيل النصفية الإمبراطورية والساعات الغربية بل أيضًا كان هناك بيانو، وكذلك ماكينة ذات مقبض ومعها اسطوانات الزمن الذى مضى. تولت قافلة من الهنود عملية الحمل كما تولت فرقة موسيقية الإعلان عن وصولها المظفر إلى القرى.

كانت الجدة تسافر وهى موضوعة على محفة مزينة بزهور ورقية وهى تقوم بمضغ الحبوب التى تستخرجها من كيسها وتحميها من الشمس مظلة كنسية. كان حجمها الضخم قد زاد وذلك لأنها كانت تضع تحت البلوزة صديرى من قماش قلوع المراكب تحفظ فيه سبائك الذهب كأنها طلقات مرصوصة فى حزام لحمل الذخيرة. كانت إيريندرا إلى جوارها ترتدى لباسًا زاهى الألوان

ومعلقة حولها شرائط الزينة، لكن لا زالت سلسلة الكلب مربوطة فى خلخال رجلها.

- ليس من حقك الشكوى - قالت لها الجدة عند الخروج من المدينة الحدودية - فعندك ثياب كأنك الملكة وسرير فاخر وفرقة موسيقية خاصة وأربعة عشر هنديًا فى خدمتك، ألا يبدو لك هذا رائعًا؟

- بلى يا جدتى.

- وفى اليوم الذى أقضى نحبى فيه - واصلت الجدة - فلن تكونى تحت رحمة الرجال فسوف يكون لك مسكنك الخاص فى مدينة هامة، سوف تكونى حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل، إلا أنها لم تعد تتحدث عن الدين القديم الذى تتعقد تفاصيله وتزداد قيمة أقساطه، كما تعرضت التجارة لبعض العثرات، ومع ذلك لم تتنهد إيريnديرا بشكل يعكس ما تفكر فيه. لقد أذعنت صاغرة لعذاب السرير وسط الملاحات ووسط سبات القرى المطلة على البحيرات وعلى السرير النقال المصنوع من القماش فى مناجم التلك، بينما تقوم الجدة بتعداد ملامح رؤيتها المستقبلية كأنها تقرأ الطالع من خلال أوراق الكوتشينة. وذات مساء، بعد الخروج من شعب ضيق، تنسما رياحًا تحمل أكاليل الغار القديمة وسمعا جلبة

تشبه الحوار الذى يدور فى جامايكا وشـعرتا بشغف بالحياة وبعقدة فى القلب. ها هما قد وصلتا إلى البحر.

- ها هو أمامك - قالت الجدة وهى تتنفس الضوء الشفاف للكاريبى بعد أن قضينا نصف الحياة فى المنفى - ألا يطيب لك؟

- بلى يا جدتى.

قاموا بنصب الخيمة، قـضت الجدة ليلتها وهى تتحدث دون أن تحلم وأحيانًا تخلط ذكرياتهـا بشفافية رؤيتها المسـتقبلية ونامت على غير العادة ثم استيـقظت وقد هدأت بصور البحر، ومع ذلك فعندما كانت إيريnديرا تقوم بمساعدتها فى حـمامها عادت لتتحدث عن تصوراتها للمستقبل، وكـان حديثًا شغوفًا لدرجة أنه بدا وكأنه هذيان السهاد والأرق.

- ستكونين مالكة عظيمة الشأن - قالت لها- وسيدة عريقة النسب، ويحـرمك من تحـمينهن، وسـوف تحظين بتـقدير وكـرم الكبار فى السلطة - وسـوف يقوم قباطنة السـفن بإرسال "كروت بوستال" لك من كل موانئ العالم.

لم تكن إيريnديرا تسـمعـهـا، كانت الميـاه الدافئـة والمعطرة بالأعشاب تنساب فى البانيو عـبر قناة تتغذى من الخارج، وكانت إيريnديرا تأخذ المياه بكوب من ثمرة التوتوم دون أن تتنفس وتصب الماء على الجدة بيد وتقوم بتصبينها باليد الأخرى.

- وسوف تطوف سمعة منزلك بكل مكان ابتداء من الكاريبى حتى ممالك هولندا - كانت تقول الجدة - وسوف يكون أكثر أهمية من منزل الرئاسة ذلك أنه فى هذا البيت سوف تتم مناقشة الشئون الحكومية وسوف يتم تحديد مصير الأمة.

وفجأة انقطعت المياه الآتية من الخارج فخرجت إيرينديرا من الخيمة لتستطلع الأمر، فوجدت أن الهندى المكلف بصب المياه فى المزراب كان يقوم بتقطيع الأخشاب فى المطبخ.

- لقد انتهت المياه، ويجب تبريد المزيد منها.

توجهت إيرينديرا إلى الفرن حيث كانت هناك حلة أخرى كبيرة الحجم وبها الأوراق المعطرة بعد غليها، فغطت يديها بخرقة من القماش وتأكدت من إمكانية رفع الحلة دون مساعدة الهندى.

- اذهب أنت - قالت له - سوف أقوم أنا بصب الماء.

انتظرت حتى خرج الهندى من المطبخ وعندئذ دفعت الحلة وهى تغلى من على النار وكلفها ذلك الكثير من الجهد حتى وصلت إلى المكان الذى تصب فيه المياه، وعندما تهيأت لصب المياه المغلية فى المجرى المؤدى إلى البانيو صاحت جدتها من داخل الخيمة.

- يا إيرينديرا

صاحت وكأنها تراها، فزعت الحفيدة من الصيحة وندمت على فعلتها فى الحال.

- أنا قادمة يا جدتى - قالت - إننى أقوم بتبديد المزيد من المياه.

فى هذه الليلة ظلت تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل، بينما تغنى الجدة وهى نائمة مرتدية الصديرى المحشو بالذهب، تأملتها إيريندیرا وهى فى سريرها بعينين نفاذتين كأنهما عينا قط فى الظلام، ثم قامت كأنها غريق بوضع يدها على صدرها وعيناها مفتوحتين ثم نادت بأعلى صوت.

- يا عليس.

استيقظ عليس فجأة وهو فى المنزل المحيطة به حديقة البرتقال. كان قد سمع صوت إيريندیرا بوضوح شديد لدرجة أنه بحث عنها فى ظلمة الحجرة. وبعد هنيهة من التأمل قام بلف ملابسه وأخذ حذائه ثم غادر غرفة النوم، كان قد عبر الشرفة عندما فاجأه صوت والده.

- إلى أين أنت ذاهب؟

رآه عليس وكأنه معرض لضوء أزرق تحت ضوء القمر.

- إلى هذه الدنيا - أجاب.

- أنا لن أمنعك هذه المرة - قال الهـولندى - لكنى أحذرك من شيء: سوف تحل عليك لعنتى فى أى مكان تذهب إليه. فقال عليس:

- ليكن هذا.

شعـر الأب بمفاجأة فى رد ابنه، وشـعر بشىء من الفـخار لعزيمته وتصميمه فتابعه وهو يسير فى حديقة البرتقال التى يغمرها ضوء القمر بنظرة أخذت تنفرج أساريرها شيئًا فشيئًا. كانت امرأته خلفه جمـيلة كعادة بنات جلدتهـا من الهنديات، تكلم الهولندى عندما أغلق عليس الباب الكبير.

- سوف يعود - قـال - وقد علمته الحـياة، وسوف تكون عودته أسرع مما تتصورين.

- إنك شديد الفظاظة - تنهدت - لن يعود أبدًا.

لم يسـأل عليس هذه المرة عن الوجـهة التـى ذهبت إليهـا إيريندير فعـبر الصحـراء وهو يختـبئ فى شاحنات مرت عـرضًا وأخذ يسرق ليأكـل وينام، وكثيراً ما سرق لمتعـة المخاطرة - حتى وجد الخـيمة فى قـرية أخرى من القرى المطلة على البـحر، ومن هناك كانت ترى المبـانى الزجاجيـة الفخمـة لمدينة تملؤها الأضواء حيث تسمع أصوات التحية الليلية التى تصدرها السفن المبحرة إلى جـزيرة "أروبا". كـانت إيريـنديرا تنام وهى مـربوطة بالـسلسلة

وتأخذ فى رقدتهـا وضع الغريق الذى يطفو على السطح تتـقاذفه الأمواج، وهو نفس الـوضع الذى كانت عليه عنـدما نادته. ظل عليس يتأملهـا لمدة طويلة دون إيقاظهـا لكنه تأملها بتمـعن شديد حتى استيقظت. وعندئذ تـبادلا القبلات فى الظلام وأخذ يداعب أحدهمـا الآخر دون عجلة من الأمر. وأخـذا يخلعان ملابسهـما رويدًا رويدًا ويعيشان الحنان الصامت والسـعادة البريئة لدرجة كانا معها يشبهان الحب نفسه أكثر من أى وقت مضى.

فى الطرف الآخـر من الخـيمـة تقلبت الجـدة وهى نائمـة وأخذت تهذى.

- كان ذلك فى الأيام التى وصلت فـيه السفينة اليـونانية - قال - كان طاقمًـا مجنونًا يجعل النساء سعـيدات، ومقابل الحب هو قطع الإسفنج وليس المال. كـانت قطعا إسفنجية حـية أخذت تسير بعد ذلك وحدها فى أرجاء المنازل وهى تئن مثل المرضى فى المستشفيات وتدفع الأطفال للبكاء حتى تشرب دموعهم.

بعد ذلـك تحركت كأن هـناك دافع داخلى ثم جلست على السرير.

- كان ذلـك عندما وصل هو - يا إلهى - صـاحت - إنه أكثر قوة وضخامة وأكثر رجولة من أماديس.

أما عليس الذى لم يبد اهتمامًـا بهذيانها حتى تلك اللحظة فقد حاول الاخـتباء عندما رأى الجدة جالسـة فى السرير. فهدأت إيريندير من روعه.

- اهدأ - قـالت له- إنها عنـدما تصل إلى هذا الجـزء من الحلم تجلس فى السرير لكنها لا تستيقظ.

نام عليس على جانبه.

- أنا كنت أغنى فى تلك الليلة مع البحارة وفكرت أن ذلك ربما كان هزة أرضية.

- استـمرت الجـدة - وظن كل الناس هذا الأمر ذلك أنـهم فروا وهم يصيحون، وقد ملكت الضحكات لُبهم. لكن لم يبق إلا هو تحت سقف. إننى أتذكره كأنه بالأمس وكنت أنا أغنى الأغنية التى كان جميع الناس يرددونها فى ذلـك الزمان بما فى ذلك الببغاوات فى أفنية المنازل.

ولما كـان من الممكن الغناء فقط فى الأحـلام، فإنهـا غنت سطور مرارتها:

سيدى، سيدى، أعد إلىّ براءتى القديمة

حتى أتمتع بحبك مرة أخرى من البداية

فى هذه اللـحظة أخـذ عليـس يصـغى لذكـريات الجـدة وحنينها.

- ها هو هناك - كانت تقول - وهو يحمل ببغاءً على كتفه وبندقية من الطراز القديم لقتل آكلى لحوم البـشر، كان مجيئه مثل

مـجيئ "غـواترال" إلى "لاس غواياناس" أمـا أنا فقـد شعـرت برائحة المـوت فيه عندمـا وقف أمامى ورأيت كل النـساء من كل الأمم، وبذلك لا يمكن أن أقول لـك من واقع خبرتى أنك أكـثر النساء رفعة وودًا وجمالاً على هذه الأرض.

ثم عـادت لترقـد من جديد وبدأ يصـدر عنها صـوت بكاء ورأسـها على المخـدة - ظل عليس وإيريnديرا فـترة طويلة وهمـا صامـتان غارقـان فى الظلمة بسبب التنـفس غير المنتظم للعـجوز النائمـة. وفجـأة سألت إيريnديرا بصـوت واضح ونبـرة لا خوف فيها.

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذته المفاجأة، فلم يعرف بماذا يجيب.

- من يدرى - قال - هل تجرؤين أنت؟

- أنا لا أستطيع - قالت إيريnديرا - ذلك لأنها جدتى.

وعندئذ لاحظ عليس مرة أخرى الجسم الضخم النائم وكأنه يقوم بقياس حجم الحياه فيه ثم قال مقرراً.

- من أجلك يمكننى أن أفعل أى شىء.

* * *

اشترى عليس رطلاً من مبيد لـقتل الفئران وأذابه فى كريمة ومربى الفراولة ثم أفرغ هذه الكريمة القاتلة فى قالب للحلوى كان

قد أخـرج منه حشـوته الأصلية، وبعـد ذلك وضع فوق الـقالب طبقـة سميكة من الكريمة وأخـذ يسويها بالمعلقة حـتى أضاع كل الآثار المتعلقة بالعملية. وأكمل الخدعة باثنين وسبعين شمعة وردية اللون.

اعتدلت الجدة على العرش وأخذت تلوى الهراوة عندما رأته يدخل الخيمة وهو يحمل قالب الحلوى الخاص بالحفلة.

- أيها الوقح - صـاحت - كيف تجـرؤ أن تضع قدمك فى هذا المنزل اختبأ عليس خلف وجهه الملائكى.

- أنا هنا من أجل طلب الصفح - قال - يوم عيد ميلادك.

خارت قوى الجدة أمام كذبته الحقـيقية فأمرت بإعداد المائدة وكأن الأمر هو عـشاء حفلة عرس. وأجلست عليس عـلى اليمين بينما إيريندير تقوم بخدمتهمـا. وبعد إطفاء الشموع بنفخة واحدة قوية قطعت قالب الشيكولاتة إلى قطع متماثلة وقدمت قطعة منها لعليس.

- إن الرجل الذى يستطيع أن يجـعل الآخرين يسامـحوه له نصف الجنة - قالت - أقدم لك أول قطعة فهى للسعادة.

- أنا لا أحب الحلويات - قال - بالهناء والشفاء لك.

قدمت الجـدة قطعة أخـرى لإيريندير فأخذتهـا إلى المطبخ وقذفت بها فى صندوق الزبالة.

أكلت الجدة باقى قالب الحلوى وحدها، فكانت تضع القطع بكاملها فى فـهما وتبلعـها بدون مضغ وهى تتلـذذ بالطعام وتنظر إلى عليس من علـوية المتـعة، وعـندما لـم يتبـق شىء فى الطبق الخاص بها أخذت القطعـة التى رفض عليس تناولها. وبينما تقوم بمضغ آخر قطعة كانت تأخـذ البقايا والفتافيت بأصابعهـا وتضعها فى فمها.

كانت قد أكلت زرنيخًا يكفى لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك بدأت تعزف على البـيانو وأخذت تغنى حـتى منتصف الليل ثم نامت سـعيدة وعاشـت الحلم المعتاد. أمـا الشىء الجديد فقد كان بعض الحشرجة فى التنفس.

كانـت إيرينديرا وعليس يراقبـانها وهمـا فى السريـر الآخر وكانا ينتظران آخر أنفـاسها، لكن الصوت ظل حيًا كـعادته عندما بدأت تهذى.

- لقد أطار صوابى، يا إلهى لقد أطار صوابى - صاحت - كنت أضع نبوتين غليظين خلف باب غرفـة النوم حتى لا يستطيع الدخول، كـما وضـعت التسـريحة والمنضـدة أيضًا خلف الـباب وفوقها الكراسى، لكن ضربة واحدة بخـاتمه كانت كافية للإطاحة بكل هذا، فـقد نزلت الكراسـى وحدها من فـوق المنضدة، أمـا المنضدة والتـسريحة فقـد ابتعدتا، وكذلك خـرج النبوتان من بين الفتحات.

كـانت إيريندرا وعليس يتـأملانهـا وقد أخـذت علامـات الاستـغراب تزداد رويدًا رويدًا توافقاً مـع عمق الهذيان ودراميـته وتحول إيقاع الصوت إلى إيقاع حميم.

- كنت أشـعر أننى سـأموت وأنا غـارقة فى عـرق الخوف وأتضرع وأنا فى الـداخل أن يفتح الباب دون فـتح وأن يدخل هو دون دخول وألا يذهب أبدًا لـكن ألا يعود مطلقًا حـتى لا أضطر لقتله.

ظلت تجسـد الدراما الخـاصة بهـا لعدة سـاعات، وصلت خلالها إلى سـرد أدق التفاصيل كأنها عـادت لتعيش نفس الموقف فى الحلم، لكنهـا قبل شـروق الشمس تقلبت فى الـسرير لتـأخذ وضعًـا مريحًا فكانت حركـتها كأنهـا هزة أرضية وتهدج صـوتها إيذانًا بوشوك بكائها.

- لقد حـذرته، وضحك منــى - كانت تصـيح - وعدت للتحذيـر وعاد للضحك حتى فـتح عينيه المفزوعـتين وقال: آه يا ملكة آه يا ملكة، لكن الصـوت لم يكن يخرج من فـمه، بل كان يخرج من ضربة السكين التى فى حنجرته.

شعـر عليس بالرعب لهـذا الاستـدعاء الرهيب للذكـريات الذى تقوم به الجدة فأمسك بيد إيريندرا.

- أيها العجوز القاتلة صاح متعجبًا.

لم تولى إيريNديرا أى اهتمام ذلك أنه فى هذه اللحظة أخذت خيوط الفجر تظهر ودقت الساعة الخامسة فى مختلف الساعات.

- اذهب قالت إيريNديرا - سوف تستيقظ.

- إنها حية ومليئة بالحياة كالفيل - تعجب عليس - هذا مستحيل

حدجته إيريNديرا بنظرة قاتلة

- الموضوع - قالت - هو أنك لا تجدى فى محاولة قتل أى إنسان.

تأثر عليس كثيراً بقسوة التأنيب وخرج هارباً من الخيمة، استمرت إيريNديرا فى مراقبتها للجدة النائمة وهى تكن لها الكراهية الخفية وتشعر بالغيظ من الإحباط كلما زادت خيوط نور الصباح وازدادت شقشقة العصافير ثم رمقتها بابتسامة راضية.

- حفظك الله يا ابنتى.

والتغيير الوحيد الذى لوحظ هو عدم الانتظام فى الخطوات اليومية المعتادة. كان يوم أربعاء إلا أن الجدة أرادت أن ترتدى لباس الأحد وقررت ألا تستقبل إيريNديرا أى زبائن قبل الحادية عشرة وطلبت منها أن تطلى لها أظافرها بلون أحمر قانى وأن تقوم بتصفيف شعرها على طريقة الأحبار والأساقفة.

- لم أعش قبل ذلك مثل هذه الرغبة فى التقاط صورة لى - قالت متعجبة.

بدأت إيرينديرا فى تصفيف شعر الجدة لكنها عندما وضعت على رأسها المشط ذا الأسنان الواسعة وجدت بينها خصلة من الشعر، وقامت مفزوعة بإظهارها للجدة التى قامت بفحصها وحاولت أن تنتزع خصلة أخرى بأصابعها، وبقيت خصلة طويلة من الشعر فى يدها فألقت بها على الأرض، ثم عادت لتجرب مرة أخرى منتزعة خصلة أكبر بكلتا يديها وهى تكاد تموت ضحكًا وتقوم بإلقاء الشعر فى الهواء بفرحة وسعادة غير مفهومة حتى أصبحت رأسها كأنها ثمرة جوز مقشرة.

لم تعرف إيرينديرا أى شىء عن عليس إلا بعد أسبوعين عندما سمعت صوت البوم خارج الخيمة، كانت الجدة قد بدأت تعزف على البيانو وكانت مستغرقة فى ذكرياتها لدرجة أنها لم تكن تعى ماحولها حولها. وتضع على رأسها باروكة من الريش ذى الألوان الزاهية.

لبّت إيرينديرا النداء، وعندئذ لاحظت الفتيل الذى يخرج من صندوق البيانو ويمتد عبر الأعشاب والحشائش ويتوه فى الظلام، جرت إلى حيث عليس واختبأت إلى جواره بين الشجيرات ورأى كلاهما وهما، يضغطان على القلب، ذلك

اللهب الأزرق الذى ذهب عبر الفتيل ماراً بالمنطقة المظلمة ودخل إلى الخيمة. ثم قال عليس :

- ضعى يديك على أذنيك.

فعل كلاهما ذلك ولكن دون حاجة، فلم يقع أى انفجار، أضيئت الخيمة من الداخل من جراء اشتعال سريع انفجر صامتًا ثم اختفى فى شكل عمود دخان لبارود مبلل. وعندما جرؤت إيريندير على الدخول معتقدة أن الجدة قد ماتت وجدتها وقد تفسخت باروكتها وأصبحت البلوزة مهلهلة لكنها أكثر حيوية من أى وقت مضى إذ كانت تعمل على إخماد النيران باستخدام بطانية.

هرب عليس مستغلاً صيحات الهنود الذين أصابتهم الحيرة، ولا يدرون ماذا يفعلون، وذلك من جراء الأوامر المتناقضة التى كانت تصدرها الجدة. وعندما استطاعوا السيطرة على اللهب وتهوية الخيمة من الدخان كان الوضع يشبه عملية غرق سفينة.

- يبدو أنها من فعل ذلك الملعون - قالت الجدة - فالبيانو لا ينفجر بمحض الصدفة.

حاولت طرح كل الاحتمالات التى أدت إلى هذه الكارثة الجديدة' لكن تهرّب إيريندير وموقفها غير الواضح جعل الأمور غير جلية فى نظر الجدة، لم تجد أى مسلك مريب فى تصرفات

الحفيدة ولم تتذكر وجود عليس. وظلت مستيقظة حتى الفجر وهى تطرح الافتراضات وتقوم بحساب الخسارة - نامت سويعات بشكل متقطع - وفى صباح اليوم التالى قامت إيريندیرا بمساعدتها فى خلع الصديرى الذى به أسياخ الذهب. وجدت بقابيق على كتفيها من جراء الحريق، كما وجدت صدرها وقد احترق الجلد وظهر اللحم "هذا هو السبب الذى جعلنى لا أنام مرتاحة - قالت هذه العبارة فى الوقت الذى تقوم فيه إيريندیرا بوضع بياض البيض على الحروق - كما أننى حلمت حلمًا غريبًا". حاولت التركيز لاسترجاع الحلم واستطاعت استحضار ذلك فى مخيلتها مثلما تفعل أثناء أحلامها. قالت:

- الحلم هو وجود طاووس على سرير أبيض.

شعرت إيريندیرا بالمفاجأة، لكنها استعادت فى الحال التعبيرات المعتادة على وجهها.

- إنها بشرى طيبة - كذبت - الطواويس فى الأحلام هى حيوانات تعبر عن طول العمر.

- ليسمع الله منه - قالت الجدة - لأننا عدنا من جديد من نقطة الصفر. عليك البدء من جديد.

لم يبدُ على إيريندیرا أى تأثر، فخرجت من الخيمة وهى تحمل الضمادات فى طبق كبير وتركت الجدة وصدرها ملطخ

ببياض البيض، أما رأسها فكانت مغطاة بالخردل، كانت تضع المزيد من بياض البيض فى الطبق، تحت الظلة المصنوعة من سعف النخيل والتى كان الفراغ الذى تحتها يستخدم كمطبخ. وفى هذه اللحظة ظهرت عيون عليس خلف الستائر وهى تنظر إليها مثل أول مرة من خلف سريرها. لم تفاجأ بل قالت له بصوت متعب.

- الشيء الوحيد الذى فعلته هو أنك أسهمت فى زيادة ما علىّ من ديون.

ظهرت اللهفة والشغف فى عيون عليس وظل جامدًا بلا حراك ينظر فى صمت لإيرينديرا ويراها وهى تقوم بتكسير البيض بإيقاع يشير إلى الاحتقار الكامل وكأنه غير موجود. بعد هنيهة تحركت العيون وأخذت تطوف فى أرجاء المطبخ من الحلل والمطبقيات الخشبية والأطباق وسكين لتقطيع الذبائح. نهض عليس دون أن ينطق بشيء كما هى عادته ودخل تحت الظلة وأخذ السكين.

لم تنظر إليه إيرينديرا لكنها قالت له بصوت خفيض وهو يخرج من تحت الظلة:

- خذ حذرك فقد جاء لها نذير الموت، إذ حلمت بطاووس يقف على سرير أبيض.

رأت الجدة عليس يدخل ومعه السكين، فبذلت كل جهدها لتنهض دون الاعتماد على العصا ورفعت ذراعيها، وصاحت:

- هل جننت أيها الفتى؟

قفز عليس فـوقها وطعنها طعنة قـوية فى صدرها العريان، فصدر عن الجدة أنين وألقت بنفسها فوقه وحاولت خنقه بذراعيها الغليظتين اللذين تشبهان قوائم الدب.

- يا ابن الساقطة - أخذت تصيح - لقـد تأخرت كثيراً فى اكتشاف أن لك وجه ملاك خائن.

لم تستطع الجدة أن تنطق بـأكثـر من هذا، ذلك أن عليس استطاع أن يحرر يده التى تحمل السكين وعاجلها بطعنة أخرى فى الضلوع، فصدر عـنها أنين أشد فظاعة، وأمسكت بـالمعتدى بمزيد من القوة، فـعاجلها عليس بضربة لا رحـمة فيهـا فكان أن خرج الدم منها باندفاع شديد تطايرت بقع منه على وجهه: كان دمًا كأنه الزيت لامعاً وأخضر اللون وكأنه عسل النعناع.

ظهـرت إيريندبرا فى المدخل وهـى تحمل الـطبق فى يدها، ولاحظت صراعاً تخيم عـليه جرأة إجرامية. كانت الجـدة ضخمة تئن من الألم والغـيظ، فأحكمت يدها على جـسم عليس. غطى الدم الأخضر ذراعيها وأوراكها ورأسها الحليق. كانت تتنفس فتبدو كأنها الكير، وبين كل نفس وآخـر تظهر أول بوادر الحشرجة، كل ذلك كان يخـيم على الجو. استطاع عليس أن يفك قـيد يده التى تمسك بالسكين مـرة أخرى وقام بشـق بطنها فكان أن تفـجر الدم

وغطاه باللون الأخضر حتى أخمص قدميه، بينما الجدة تحاول استنشاق الهواء الذى كانت فى حاجة إليه لتواصل الحياة لكنها سقطت على بطنها. خلّص عليس نفسه من اليدين المترهلتين ولم يدخر وقتًا فقام بطعن الجسد الضخم الطعنة الأخيرة.

عندئذ وضعت إيريندير الطبق على منضدة ومالت على الجدة وأخذت تتفحصها جيدًا دون أن تلمسها. وعندما تأكدت أنها ماتت اكتسى وجهها بملامح إنسان ناضج كأنه لم تمض عليه عشرون سنة من الحظ التعس. وبحركات سريعة ومحدودة أخذت الصديرى الذهبى وخرجت من الخيمة.

ظل عليس جالسًا إلى جوار الجثة وقد أجهده الصراع، وكلما أخذ ينظف وجهه من هذه المادة الخضراء الحية كانت تزداد لدرجة بدا أنها تفور من أصابعه. ولم يع جيدًا لما هو عليه إلا عندما رأى إيريندير وهى تخرج من الخيمة حاملة معها الصديرى.

ناداها صائحًا لكنه لم يتلق أى إجابة، أخذ يزحف حتى مدخل الخيمة ورأى كيف أن إيريندير أخذت تجرى نحو شاطئ البحر فى اتجاه معاكس لاتجاه المدينة. وعندئذ بذل آخر ما عنده من جهد ليلحق بها وأخذ ينادى عليها بصيحات تعبر عن فقدان الأمل، فلم تعد صيحات العاشق بل صيحات الابن. لكن

الإرهاق الرهيب الناجم عن قيامه بقتل امرأة دون مساعدة أحد قد تغلب عليه. فأدركه الهنود الذين كانوا يعملون لحساب الجدة فوجدوه ملقى على الشاطئ ووجهه إلى الأرض وهو يبكى من الخوف والوحدة.

لم تسمعه إيريندرا، كانت تسابق الريح لدرجة أنها تسبق الأيائل، ولم يكن هناك أى صوت فى العالم قادر على إيقافها، مرت وهى تجرى دون أن تلتفت بالبخار الناجم عن الملاحات ومناجم التلك وبالمساكن القائمة وسط البحيرات حتى انتهى كل ما يتعلق بالبحر، وظلت كذا حتى وصلت إلى الصحراء. لكنها واصلت جريها وهى تحمل الصديرى الذهبى إلى ما وراء الريح الساخنة وأوقات الشفق التى تطول وتطول، ولم يعد أحد يدرى عنها شيئاً، كما لم يعثر على أى أثر، ولو ضئيل لتعاستها.



الصيف السعيد للسيدة / فوريس

(١٩٧٦)

عندما عدنا إلى المنزل فى المساء وجدنا ثعبانًا بحريًا ضخمًا معلقًا من رقبته فى إطار الباب. كان أسود اللون فسفوريًا، بدا لنا أنه تعويذة سحرية للغجر. كانت عيناه مفتوحتين وبهما حياة، أما أسنانه فبدت كأنها منشار صغير على فكين أصابهما الإعياء. كان عمرى آنذاك تسعة أعوام؛ شعرت بخوف شديد أمام هذا الشكل الذى يثير الهذيان لدرجة ذهب معها صوتى. لكن أخى الذى يصغرنى بعامين انتزع أنابيب الأوكسجين والقناع وزعانف العوم وخرج مذعوراً وهو يصيح صيحة فزع. سمعته السيدة/ فُورِبس وهى على السلم الحجرى المتعرج الذى يمتد على طول الأرصفة ابتداء من المرسى وحتى المنزل. فأدركتنا وجاءت وهى تلهث وقد علت الزرقة وجهها. وبمجرد أن رأت الثعبان مدقوقًا على الباب، عرفت سبب الرعب الذى نحن فيه. عادة ما كانت تقول بأنه إذا ما كان هناك طفلان مجتمعين فكلاهما مذنبان بما قد يفعله كل واحد منهما على حدة. وعلى ذلك نهرت كلينا بسبب صيحات الفزع التى صدرت عن أخى وظلت تؤنبنا على عدم قدرتنا على السيطرة على أنفسنا. تحدثت إلينا بالألمانية وليس بالإنجليزية، كما كان ينص العقد الذى وقع معها لتعمل كمربية. وربما كان ذلك

لأنها كـانت مذعـورة هى الأخرى لكنهـا تقاوم الاعـتراف بمشاعرها، لكنهـا عادت لتتحدث بإنجليزية غـير مستقيـمة وعادت إلى هوسها التربوى بمجرد أن استعادت شجاعتها.

- إنهـا سـمكة "أبو مـرينا" الهـيلينيـة - قـالت - هكذا يسمونها فقد كان قدماء الإغريق يقدسونها.

وفجأة ظهر "أوريسـتى" ذلك الفتى من أبناء المنطقة الذى يعلمنا السباحة فى المياه العميقة.

ظهـر بين الشجـيرات الخـاصة بـنبات الكبـار. يضع قناع الغوص على جبـهته ويرتدى بنطلون مسـباحة قصيـر وحزامًا من الجلد وقد علق به ست نصال مختلفة الأشكال والأحجام ذلك أنه لا توجد لديه طريقـة أخرى للصـيد تحت الماء إلا الصراع جـسدًا لجسـد مع الحيوانات البـحرية. يبلغ العـشرين من العمـر، وكان يقضى أغلب وقته تحت الماء لدرجة بدا لنا مـعها أنه حيوان بحرى ذلك أن جسـده كان ملطخًـا بالبقع النـاجمة عن شـحم الموتور. وعندمـا رأته السـيدة/ فُـوربس لأول مـرة قـالت لوالدى إنه من المستحيل أن يتصـور المرء إنسانًا أجمل منه، ومع ذلك لم يشفع له جماله ووسـامته من تعرضه للعـقاب: فقد كان عليـه أن يتعرض لتأنيب وجـه إليه باللغة الإيطاليـة لفعلته بتـعليق "أبومرينا" على الباب وليس لديه أى مبرر اللهـم إلا إدخال الرعب على الأطفال.

وبعد ذلك أمرت السيدة فوريس أن يرفع الثعبان البحرى بحرص واحترام، فهو حيوان أسطورى، ثم طلبت منا أن نرتدى ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ما أمرتنا به فى الحال، وحاولنا ألا نرتكب أية أخطاء ذلك أنه بعد أسبوعين من العيش فى ظل نظام السيدة/ فُورِيس كنا قد تعلمنا أن أصعب شىء هو أن يحيا المرء. وبينما نأخذ دشًا فى الحمام غير المضاء لاحظت أن أخى لا زال يفكر فى "أبومرينا". قال لى: "كانت عيناه تشبه أعين البشر"، كنت على اتفاق معه فيما يقول لكننى جعلته يظن عكس ذلك واستطعت تغيير الموضوع حتى انتهيت من حمامى. لكن عندما خرجت من تحت الدش طلب منى أن أبقى لأرافقه. فقلت له:

- لم تغرب الشمس بعد.

قمت بفتح الستارة، كان الوقت خلال شهر أغسطس يرى عبر النافذة السهل الحار المقوس فى الجانب الآخر من الجزيرة، الشمس متوقفة فى السماء.

- ليس لهذا السبب - قال أخى - إننى خائف من الخوف.

ومع ذلك فعندما جلسنا إلى مائدة الطعام بدا هادئًا وقام بفعل كل شىء بدقة استحق عليها تهنئة خاصة من السيدة/ فوريس بالإضافة إلى درجتين أخريين لصالحه خلال هذا الأسبوع.

أما بالنسبة لى فقد خصمت منى درجتين من الدرجات الخمس التى كانت من نصيبى ذلك أننى سارعت فى خطاى فسُمع وقع قدماى، ووصلت إلى المائدة وأنا غير منتظم الأنفاس. وإذا ما حصلنا على خمسين درجة يكون من حقنا قطعتا حلوى لكن كلانا لم يتجاوز الخمس عشرة نقطة. كان الأمر مؤلمًا حقًا ذلك أننا لم نتذوق حلو "البودين" فى مكان آخر أشهى من الذى كانت تعده السيدة/ فوربس.

كان العشاء يبدأ بأن نقف أمام الأطباق الخالية من الطعام لنتلو الصلوات والأدعية. لم تكن السيدة/ فوربس كاثوليكية. لكن العقد المبرم معها كان يفرض عليها أن تجعلنا نصلى ست مرات فى اليوم. كما تعلمت صلواتنا للوفاء بذلك. ثم نجلس ثلاثتنا ونحن نكتم أنفاسنا، بينما تقوم هى يفحص دقيق وشامل لكل تصرفاتنا. وعندما تتأكد من أن كل شىء على ما يرام وبالشكل المطلوب تقرع الجرس الصغير، وعندئذ تدخل "فوليبا فلامينيا" الطباخة وهى تحمل شوربة الشعرية التى عهدناها منذ زمن طويل خلال هذا الصيف الممل.

عندما كنا مع والدينا بمفردنا، كان الطعام مهرجانًا. فكانت فوليبا فلامينيا تقوم بتقديم الأطعمة وهى تُقاقى مثل الدجاج وتقدم الطعام بغير نظام ثابت مما يثير البهجة. ثم تجلس بعد ذلك على المائدة وينتهى بها الأمر أن تأخذ شيئًا من أطباقنا جميعًا. لكن منذ

أن تولت السيـدة/ فوربس أمرنا، تقوم فـولبيا بتقـديم الطعام فى صمت مهيب لدرجة أننا كنا نسمع صوت الشوربة وهى تغلى فى شكل فقاعات داخل السلطانية. كـنا نتناول طعام العشاء وظهورنا مستقيمة مسـتندة على مسندة الكراسى، ونقوم بالمضغ عشر مرات على أحد الأشداق أخرى مثلهـا على الشدق الآخر دون أن تفارق عيـوننا هذه السيدة الصارمـة والنحيفـة والتى وصلت إلى خريف العمـر، إذ كانت تتحـدث من خلال ذاكرتهـا عن دروس المدنية، كانت دروسًا تشبه قـداس الأحد لكن ليس بها أى عزاء مثل غناء الناس فى القداس.

فى اليوم الذى وجدنا فـيه الثعبان البحرى مـعلقًا فى الباب تحدثت إلينا السيـدة/ فوربس عن الواجبات المقـدسة نحو الوطن، بينما فولبيا فلامينيا تكاد تطير وتطفو فى الهواء الذى يملأ الصوت جنباته، وتقوم بتقديم قطعـة فيليه - بعد تناول الشوربة - وقد تم شواؤها على الفـحم، كانت قطعة لحم بيـضاء لها رائحـة رائعة. وبالنسبة لى فمنذ تلك اللحـظة كنت أفضل السمك على أى طعام آخر من الطيـور أو الحيوانات، وكانت هذه الذكـرى الخاصة التى أحملهـا فى منزلنا فى "غواكـامايال" بمثابـة شىء يثلج صدرى. لكن أخى رفض الطبق دون أن يتذوقه.

- لا أحبه - قال.

قطعت السيدة/ فوربس درسها

- لا يمكن لك أن تعـرف ذلك - قالت له - فلم تتـذوقه بعد.

وجهت إلى الطباخة نظرة تحذير لكن بعد فوات الأوان.

- إن "أبو مرينا" هو أفضل سمك فى الدنيا يا بنى - قالت له فولبيا فلامينيا - جربه وسترى صدق ما أقول.

لم يطرأ أى تغيير على السيدة/ فوربس. أخذت تقص علينا - بمنهجيتـها غير الرحيمـة - أن "أبو مرينا" هو طعام الملوك فى العصور القديمة وأن المحاربين كـانوا يتصارعون من أجل الحصول على مـرارة هذه السمكـة ذلك أنها تنفث فـيـهم شجـاعة تفـوق الخيـال. وبعـد ذلك أخذت تكرر علينا كـعادتهـا فى هذه الفـترة القصيـرة معنا أن المذاق الطيب ليس صفة لازمة، كـما أنها لا يتم تعلمهـا فى أى مرحلة من مراحل العـمر، بل يجب فرضـها منذ الطفولة. وبالـتالى ليس هناك أى مبـرر لعدم الإقـبال على تناول الطبق. أما أنا الذى كنت قد جـربت "أبومرينا" دون أن أعرف ما هو، أصبحت أعيش حالة النقـاش: فمن جانب أراه جميل الطعم رغم أنه حزين بعض الشىء لكـن صورة الثعبـان وهو معلق على طوق الباب كانت أكبر من شهيتى المفتوحة. بذل أخى أقصى جهد له مع أول لقمة من الطبق لكنه لم يستطع تحمله: تقيأ.

- اذهب إلى الحمـام - قالت له السيدة/ فـوربس حراك - ونظف نفسك جيداً ثم عد لتناول الطعام.

شعـرت بكرب شديد من أجله ذلك أننى كـنت أعرف كم كان يتكلف من الجـهد وهو يعبر وسط أرجـاء المنزل وقد أوشكت الشـمس على المغيب، ثم يبـقى وحيـدًا فى الحمـام طوال الوقت الضرورى لتنظـيف نفسه. لكنه عـاد سريعًا وهـو يرتدى قميـصًا نظيفًـا، كان منتـفخ الوجه ولم تكد رعـشة الخوف قـد زالت عنه بعد، وقاوم الامتحان الخاص بمسألة النظافة جيدًا، وحينئذ أخذت السيـدة/ فوربس قطعة من "أبومـرينا" وأمرت بمواصلة العـشاء. أخذت أنا قطعة ثانية ووضعـتها فى فمى رغم أنفى. أما أخى فلم يمد يده على أى شىء حتى على طاقم الشوك والملاعق.

- لن آكل هذا الطبق - قال.

كان واضحًا فى حزمه، لدرجـة أن السيدة/ فوربس تفادت ذلك.

- حسن - قالت - لكن لن تتناول الحلو.

أدت الراحة التى شـعر بها أخى إلى تشـجيعى، فـوضعت الشوكـة والسكين متعامـدتين فوق الطبق علامة على الانتـهاء من الطعام كما علمتنا السيدة/ فوربس، ثم قلت:

- وأنا أيضًا لن أتناول الحلو.

- ولن تشاهدا التليفزيون - أجابت هى.

- ولن نشاهد التليفزيون - قلت أنا.

وضعت السيدة/ فـوريس الفوطة على المائدة ونهض ثلاثتنا للصـلاة. وبعـد ذلك طلبت منا الذهاب إلى حـجـرة نومنا وهى تحـذرنا أننا يجب أن نخلد للنوم فـى الفتـرة التى تحـتـاجهـا هى للانتـهاء من تناول طعـامها. هكـذا تم محو كل الدرجـات التى حصلنا عليـها. ولن نستطيع التلذذ بتناول حلو الكريمـة أو قالب الفانيليا أو بسكويت البرقوق اللذيذ إلا بعـد حصولنا على عشرين درجة. وهذا الصنف الأخـير من الحلويات لم نعثر على مـثيل له طوال حياتنا.

• الوصول إلى هذه القطعية كان مـؤكدًا، لكنها مسألة وقت، فلمدة عام كـامل كنا ننتظر بفارغ الصبر هذا الصـيف الحار الطليق في جزيـرة "بانتيـلاريا" الواقعة فـى أقصى الجبـهة الجنوبـية من صقلية. وكان صـيفًا طليقًا خلال الشـهر الأول حيث كان والدينا معنا. إننى لازلت أتذكـر، حتى اليوم، فـيما يشـبه الحلم، ذلك السهل المشمس من الصخور البـركانية وذلك البحر الخالد، وذلك المنزل المدهون بالجـير القـوى الألوان حـتى غطى طبقـة الطوب، والذى كنا نرى من نوافـذه أثناء الليل الـساكن الومـيض المتـلألئ للفنارات المطـلة على سـواحل أفـريقـيـا. كنت أقـوم مع والدى بالغوص فى الأعماق الموجودة حول الجزيرة، واكتشفنا سلسلة من الطوربيدات الصفراء التى سقـطت فى العمق منذ الحرب الأخيرة. كنا قد انتشلنا جرة إغـريقية يبلغ طولها متراً تقريبـاً وعليها أكاليل

تقادمت وأصابهـا العطب. كان بداخلها بقايا نبيـذ لا يعرف أحد إلى أى زمن يعود. كان نـبيذًا مُسمـمًا. ثم قمنا بالاستـحمام فى منطقة هادئة تنبـعث منها الأبخرة. كـانت مياههـا ثقيلة يكاد المرء يسير فـوقها. لكن الاكتشـاف الأغرب بالنسبة لنا تمثل فى فـولبيا فلامينيا. كانت تبـدو كأنها أسقف معبد، تسير وحولهـا مجموعة من القطط تضـيق عليها الطـريق الذى تسير فـيه، وتقـول إنها لا تأوى هذه القطط حبـاً منها للحيوانات، لكن حـتى تحول دون أن تأكلهـا الفئـران. وفى المساء عندمـا كان والدينا يشـاهدان برامج تليفزيونية للكبار تأخذنا فولبيا فلامينيا معها إلى المنزل الواقع على بعد أقل من مائة مـتر من منزلنا وتقوم بتعليـمنا كيفيـة تمييز أنواع الأصوات التى تسـمع من بعيـد والأغانى وصوت الريـاح المتقطع القادم من تونس. كان زوجها رجلاً أكثـر شبابًا منها بكثير، وكان يعـمل طوال الصيف فى الفنادق الـسيـاحيـة الكائنة على الطرف الآخر من الجزيرة، يعود إلى المنزل للنوم فقط. أما الفتى أورستى فيعيش مع والده فى مكان أبعد قليلاً، وكان يظهر دائمًا أثناء الليل وهو يحمل حبل سمك وشبكة بهـا الجمبرى الذى انتهى للتو من صيده ثم يعلق كل ذلك فى المطبخ حتى يقوم زوج فـولبيا فلامينيا ببيعه للفنادق فى اليوم التالى. بعد ذلك يضع بطارية الغوص على جبـهته ويأخذنا لنـصطاد الفئران الجبليـة الكبيرة كـأنها الأرانب، كانت تعـيش على فضـلات المطابخ، وأحيانًا كنـا نعود إلى المنزل

بعـد أن يـكون والدانا قـد خـلدا للنوم. ولم يكن الـنوم يداعب جفوننا بسبب الأصوات الناجمـة عن معارك تدور بين الفئران فى الأفنية من أجل الفوز بالبقـايا. ورغم هذا فقد كان أحد المكونات الغامضة الجميلة فى صيفنا السعيد.

أما قـرار التعاقـد مع مربية ألمانيـة فلم يدر إلا بخلد والدى أحد كتاب منطقة الكاريبى، كثيـر الخيلاء قليل الألمعية. كان رماد المفاخـر الأوروبية قد ملك عليـه جماع عـقله وكان مـيالاً للتنكر لأصوله وجذوره سـواء على صفحات كـتبه أم فى الحياة اليـومية وفرض على نفسه وهمًا هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه. أما أمى فقد ظلت دائمًـا المرأة المتواضعة مثلما كان علـيه حالها وهى تمارس وظيفة المعـلمة فى أقاصى "غواطيرا" ولم يخـطر ببالها أن تطوف بخلد زوجها فكرة إلا وكـانت من وحى الإلهام. وبهذا لم يسأل كل منهما نفسه ويحكم قلبه حول نمط المعيشة التى سنعيشها مع "مساعدة عسكرية" من دورموند، تبـذل ما فى وسعها لتعلمنا بالقوة العادات المـهجورة عن المجتمع الأوروبى بينمـا يقوم والدينا مع أربعين مؤلفًا مـن مؤلفى العصر بالتنزه على ظهر عبـارة ثقافية لمدة خمسة أسابيع بين جزر بحر إيجه.

وصلت السيدة/ فوربس فى السـبت الأيخر من شهر يوليو على متن مركب صغير وعادى قادمة من باليرمو، ومنذ أن رأيناها لأول مرة شـعرنا بأن البـهجـة قد ولت عنا. جـاءت وهى تلبس

حذاء برقبة يشبه أحذية الميليشيات وترتدى فستانًا ياقته كبيرة ومتعانقة وسط هذا الحر. أما شعرها فقد كان قصيراً كأنه شعر رجل يضع قبعة من اللباد. كانت رائحتها تشبه رائحة بول الرجال " كل الأوروبيين رائحتهم هكذا وخاصة فى الصيف" قال لنا والدى. "إنها رائحة الحضارة". لكن خلافًا لمظهرها العسكرى فالسيدة فوربس كانت مخلوقًا نحيف الجسد ربما كان يثير شفقتنا إذا ما كنا كباراً فى السن أو كان عندها بقايا حنان. أصبحت الدنيا غير الدنيا. فالساعات الست التى كنا نقضيها فى البحر والتى كانت منذ بداية الصيف ممارسة دائمة للخيال أصبحت ساعة واحدة لا تبديل فيها كأنها الرتابة نفسها. عندما كنا برفقة والدينا نتمتع بكل ما نريد من وقت لنسبح مع أورستى وقد شعرنا بالدهشة أمام الفن والجرأة التى يواجه بها الأخطبوط البحرى وهو فى مكمنه وقد اعتلته الأحبار والدم وليس فى يده إلا سكاكين المصارعة التى يحملها. وبعد ذلك ظل يأتى فى الحادية عشرة وهو على متن اللنش الصغير، كما كان يفعل دائمًا. لكن السيدة/ فوربس لم تكن تسمح له أن يمكث معنا، أكثر من الوقت المحدد لحصة الغوص ولو لدقيقة واحدة. منعتنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فولبيا فلامينيا ذ لك أنها تعتبر ذلك وداً زائداً عن الحد مع العامة. واضطررنا أن نخصص الوقت المتبقى من صيد الفئران فى قراءة تحليلية لأعمال شكسبير. ولما كنا قد تعودنا سرقة ثمار المانجو

ومطاردة الكلاب حتى قتلها بالحجارة فى الشوارع الحارة لغواكامايال كان من المستحيل علينا تصور شىء أكثر فظاعة من حياة الأمراء هذه.

لكن سرعان ما أدركنا أن السيدة/ فوربس لم تكن صارمة مع نفسها مثلها هو الحال معنا. وذلك أول شرخ فى سلطاتها. كانت - فى البداية - تظل على الشاطئ تحت الشمسية الملونة وهى ترتدى ملابس البحر وتقرأ قصائد لشيلر بينما يقوم أورستى بتعليمنا الغوص، وبعد ذلك تقوم بإعطائنا دروسًا نظرية حول السلوك الاجتماعى ويمتد الدرس ساعات وساعات حتى يحين وقت الغذاء.

طلبت ذات يوم من أوريستى أن يحملها فى اللنش إلى المحلات السياحية التابعة للفنادق ثم عادت وقد اشترت لباس بحر من قطعة واحدة لونه أسود متموج كأنه جلد سبع البحر، لكنها لم تنزل البحر أبدًا، إذ كانت تأخذ حمامات شمسية على الشاطئ بينما نقوم نحن بالعوم. ثم تقوم بتجفيف عرقها بالفوطة دون أن تصب الماء على نفسها من الإناء الذى تحمله. وبعد ثلاثة أيام كانت تبدو وكأنها جمبرى إحمّر لحمه من الحر وتحمل رائحة حضارتها لدرجة لا يمكن التنفس معها.

كانت تقضى الليل فى استرخاء، فمنذ أن بدأ حكمها كنا نشعر بخطوات تدور فى المنزل المظلم وتتحسس طريقها وسط الظلام وقد أصاب ذلك أخى بالقلق. وفكر أن تكون هذه هى

خطوات الغرقى تطوف بالمنازل وهى حكايات طالما قصتها علينا فوليبا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أنها السيدة/ فوربس إذ كانت تقضى الليل تمارس الحياة العادية لامرأة تعيش بمفردها. هى نمطية الحياة التى تؤنب نفسها عليها أثناء النهار. وفى فجر أحد الأيام فاجأناها وهى فى المطبخ ترتدى قميص النوم الذى يشبه قميص الطالبات. تقوم بإعداد الحلوى اللذيذة وكان كل جسدها قد تلطخ بالدقيق حتى وجهها، تتناول كأسًا من النبيذ البرتقالى ويعتريها نوع من عدم الدقة والتردد كان السبب فيه الاشمئزاز الذى عليه السيدة/ فوربس الأخرى. ومنذ هذه اللحظة عرفنا أنه بعد أن نذهب إلى حجرة نومنا لم تكن تخلد هى للنوم، بل كانت تنزل للسباحة خلسة، أو أن تظل فى الصالة حتى ساعات متأخرة من الليل تشاهد الأفلام الممنوعة على الصغار فى التليفزيون بينما تتناول قوالب كاملة من الحلوى وتشرب زجاجة كاملة من نبيذ خاص احتفظ به والدى للمناسبات الخاصة. كانت تناقض كل ما تتحدث به عن التقشف والاتزان فى السلوك بأن كانت تلتهم القطع التهامًا وبشغف لا حدود له. ثم كنا نسمعها بعد ذلك تتحدث وحدها وهى فى حجرتها، إذ كانت تقوم بقراءة متأنية بالألمانية لفقرات كاملة.

كنا نسمعها وهى تغنى وتنتحب فى سريرها حتى الصباح. ثم تظهر بعد ذلك على مائدة الإفطار وقد تضخمت عيناها من

كثرة البكاء وتزداد حزنًا وتشددًا. فـارقتنا السعادة والمرح أنا وأخى لكننى كنت على استـعداد لتحملها حتـى النهاية ذلك أننى أعرف أن حجتها هى التى ستتغلب على حججنا. أما أخى فقد دخل فى مواجهة معها بكل حدة طابعة وتحول الصيف السعيد إلى جحيم. وكانت واقعة "أبو مرينا" هى النقطة التى طفح معها الكيل، ففى تلك الليلة، وعندما نحن فى سريرنا نسمع الحـركة الدائبة للسيدة فـوربس، فى هذا المنزل النائم. قـال أخى بكل ما فـيه من عـزم النقمة:

- سوف أقتلها.

كانت مفـاجأة لى، ليس للقرار فقط، بل للتـوافق العجيب ذلك أننى كنت أفكر فى هذا الأمر منذ العشاء. ومع ذلك حاولت كبح جماحه. فقلت:

- سوف يقطعون رقبتك.

- لا توجد مقـصلة فى صقلية - قال - كـما أنه لن يعرف أحد من القاتل.

كان يفكر فى الجـرة التى انتشلت من الماء والتى لا زال فى قاعها بـقايا النبيذ السام. كان والدى يحـتفظ بها وذلك لأنه يريد تحليله لمعرفـة طبيعة ذلك الـسم الذى لا يمكن أن يكون قد تكون بمرور الزمن. واستـخدام هذا السم لقتل السيـدة/ فوربس هو أمر

غاية فى السهولة ولن يفكر أحد فى الأمر إلا على أنه حادثة أو انتحار. والخلاصة أنه عند الفجر وعندما تسقط فريسة السهاد نقوم بأخذ السم الذى فى الجرة ونخلطه بزجاجة النبيذ الجيد الخاص بوالدى، وطبقاً لما سمعنا فإن هذه الجرعة تكفى للقضاء على حصان.

كنا نتناول الإفطار فى المطبخ فى تمام التاسعة، وكانت السيدة/ فوربس هى التى تقوم بنفسها بإعداده لنا، نتناول فيه الخبز المسكر الذى تأتى به فولبيا فلامينيا مبكراً وتضعه فوق الفرن. وبعد ذلك بيومين أى بعد أن وضعنا السم فى الزجاجة، وبينما نتناول طعام الإفطار ألمح لى أخى بعينه لندرك ونحن غير سعيدين أن الزجاجة المسممة ظلت كما هى لم تُمس. كان ذلك يوم الجمعة وظلت الزجاجة طوال نهاية الأسبوع دون أن يقنص منها شىء، لكن السيدة/ فوربس شربت ليلة الثلاثة نصف الزجاجة وهى تشاهد الأفلام الفاضحة فى التليفزيون.

ومع كل هذا حضرت كعادتها اليومية طعام الإفطار صباح الأربعاء. كان وجهها مثل العادة وجه امرأة قضت ليلة تعسة. أما العينان فقد كان يطوف بهما شغف واضح أخذ يزداد عندما وجدت فى سلة الخبز المسكر رسالة تحمل طوابع ألمانية. قرأت الرسالة وهى تتناول القهوة رغم أنها كررت علينا كثيراً أنه لا يجب فعل ذلك. وأثناء القراءة كانت تكسو وجهها انفراجة مؤقتة

تنقلهـا لهـا الكلمات المكـتوبة. وبعـد ذلك انتـزعت الطوابع من الظرف ووضعتها فى السلة مع الخبز المتبقى وذلك لتكون جزءاً من مجـموعـة الطوابع الخاصة بزوج فـولبيـا فلامينيـا. ورغم الفكرة السيئة التى أخذناها عنها منذ البداية رافقتنا فى رحلة الغوص ذلك اليوم وظللنا نسبح فى بحـر خفيف المياه حتى انتهـى الأوكسجين فى الأنابيب، وعدنا إلى المنزل دون درس السلوكيات الاجتماعية. كانت السـيدة/ فوربس مـعتدلة المزاج ذلـك اليوم أضف إلى هذا أنها بدت أثناء العشـاء وهى أكثر حيوية عن ذى قـبل. لم يتحمل أخى حـالة فقـدان الأمل. فعندمـا تلقـينا الأمر بالبـدء فى تناول العشاء بطبق شوربة الشعرية أزاح الطبق بطريقة استفزازية. وقال:

- لقد سئمت هذه المياه المخلوطة بالديدان.

كان الأمر بمثابة إلقاء قنبلة على المائدة - انتفخ وجه السيدة/ فوربس وتوترت شفـتاها وانطبقت فوق بعضـها إلى أن زال دخان الانفجـار وكست الدموع زجـاج نظارتها. ثم رفعـتها عن عـينها وجففتها بالفوطة ثم وضعتها على المائدة قبل أن تنهض وهى تشعر باستسلام لا فخار فيه.

- افعلا ما شئتما - قالت - فأنا غير موجودة.

دخلت إلى غرفـتها منذ السابعـة. لكنها خرجت منهـا قبل منتصف الليل وقد ظنت أننا خلدنا إلى النوم فرأيناها وهى ترتدى

قميص نوم الطالبات تتجه إلى المطبخ ثم تعود إلى غرفة نومها وقد حملت معها نصف قالب من الشيكولاتة والزجاجة التى تبقى بها ما يزيد قليلاً عن أربعة قراريط من النبيذ المسموم. شعرت لحظتها برعشة الأسى.

- مسكينة يا سيدة / فوربس - قلت.

لم يكن أخى يتنفس بشكل هادئ. قال:

- المساكين هم نحن إذا لم تمت هذه الليلة.

عادت تتحدث وحيدة فى تلك الليلة وظلت هكذا لفترة غير قصيرة وأنشدت لشيلر بصوت عال وكأنها أصيبت بجنون مفاجئ وأنهت إنشادها بصيحة دوت فى أرجاء المنزل، ثم تنهدت كثيراً بعد ذلك حتى وصلت التنهدات إلى أعماق روحها وأخذت تصدر صفيراً حزينًا ومستمراً كأنها قارب تتقاذفه الأمواج. وعندما استيقظنا كنا نشعر بالإرهاق بسبب التوتر والسهاد، كانت الشمس تدخل عبر النافذة فى شكل حزمة ضوء، إلا أن البيت بدا وكأنه غارق فى صمته. عندئذ أدركنا أن الساعة قد اقتربت من العاشرة ولم يوقظنا أحد بناء على عادة السيدة/ فوربس. فلم نسمع صوت المياه وهى تنساب بقوة من "السيفون" إلى المرحاض فى الثامنة صباحًا، ولم نسمع صوت حنفية حوض الغسيل أو صوت "شيش" النوافذ وهو يرفع ولم نسمع وقع حديد حذائها أو

الضربات الثلاث القاتلة على الباب بكف يدها. وضع أخى أذنه على الحائط وكتم أنفاسه حتى يتمكن من سماع أى مؤشر للحياة فى الحجرة المجاورة، وفى النهاية صدرت عنه تنهيدة الشعور بالحرية.

- انتهى الأمر ! - قال- الشيء الوحيد الذى يسمع هو صوت البحر.

أعددنا إفطارنا قبل الحادية عشر بقليل، ثم نزلنا بعد ذلك الشاطئ ونحن نحمل اثنتين من الأنابيب لكل واحد منا بالإضافة إلى اثنتين آخريين كاحتياطى، وذلك قبل مجيئ فولبيا فلامينيا بمرافقيها من القطط، لتقوم بتنظيف المنزل. كان أوريستى فى الميناء يقوم بتنظيف سمكة وزنها ستة أرطال اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة/ فوربس حتى الحادية عشرة، ولما ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر، وقصصنا عليه، بالإضافة إلى ذلك، أنها كانت تبكى فى الليلة السابقة وهى جالسة على مائدة العشاء، وربما نامت نومًا غير طبيعى، وفضلت البقاء فى السرير. لم يهتم أوريستى كثيراً بالشرح وذلك ما كنا نتوقعه وذهب بنا لنغوص فى أعماق البحر لما يزيد عن الساعة بقليل. وبعد ذلك طلب منا أن نذهب لتناول الغذاء، ثم ذهب فى اللنش ليبيع السمكة لأحد الفنادق السياحية. ودعناه ونحن على السلم الحجرى وجعلناه يظن أننا متوجهين إلى المنزل حتى اختفى عن ناظرينا، وبعد ذلك

وضعنا أنابيب الأوكسجين وعدنا نسبح دون إذن من أحد.

كان الجو غائمًا، وكانت تشم رائحة الرعد القاتم فى الأفق، لكن البحر كان ساكنًا وشفافًا، وكان مكتفيًا بضوئه هو. قمنا بالسباحة على السطح حتى خط الفنار المسمى "بانتيلاريا" ثم انحرفنا بعد ذلك وسرنا مائة متر على اليمين ثم قمنا بالغوص فى المكان الذى اعتقدنا أننا رأينا فيه صف الطوربيدات الحربية فى بداية الصيف.

كانت هناك ستة طوربيدات مدهونة باللون الأصفر وعليها أرقاماً مسلسلة وملقاة فى الأعماق البركانية فى نظام لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة. وبعد ذلك واصلنا الطواف حول الفنار بحثًا عن المدينة الغارقة التى حدثتنا عنها فولبيا فلامينيا كثيراً، لكن لم نعثر لها على أثر. وبعد ساعتين صعدنا إلى سطح المياه بعد أن اقتنعنا أن ليس هناك المزيد من الأسرار، ولم يتبق معنا إلا القليل من الأوكسجين.

كانت قد بدأت عاصفة من عواصف الصيف ونحن نسبح، البحر هائج وهناك أسراب من الطيور الآكلة للحوم، تحوم وهى تصيح صياحًا حاداً مقتتلة حول بقايا الأسماك الملقاة على الشاطئ، لكن ضوء المساء لم يكن قد بدأ بعد، كما أن الحياة جميلة بدون السيدة/ فوربس. ومع ذلك عندما انتهينا من صعود

السلم الحجرى رأينا المنزل وأمامه جمع غفير، وسيارتى بوليس، عندئذ أدركنا جيدًا حقيقة ما فعلناه. ارتعد أخى وحاول الرجوع عن دخول المنزل.

- أنا لن أدخل المنزل - قال.

أما أنا فقد كنت أخمن تخميناً غامضاً يقول بأنه لو شهدنا الجثة مجرد مشاهدة فسوف ننجو من أى شبهة.

- كن هادئًا - قلت له - عليك أن تتنفس بعمق وفكر فى شىء واحد : نحن لا نعرف شيئًا.

لم يهتم بنا أحد، تركنا أنابيب الأوكسجين والأقنعة والزعانف على الباب الرئيسى ودخلنا الردهة الخلفية حيث كان هناك رجلان يدخنان وهما جالسان على الأرض إلى جوار سرير نقال. عندئذ أدركنا أن هناك عربة إسعاف على الباب الخلفى وبعض العسكريين المسلحين بالبنادق. أما الصالة فكانت هناك نساء الجوار وهن يصلين بلغتهن المحلية، كن جالسات على الكراسى التى رصها إلى جوار الحائط، بينما الأزواج قد وقفوا فى الفناء وهم يتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموت. ضغطت بقوة على يد أخى التى كانت جامدة وسرت فيها رعشة برودة، ودخلنا المنزل عبر الباب الخلفى. كانت حجرة نومنا مفتوحة وهى على نفس الحالة التى تركناها عليها. أما حجرة السيدة/ فوربس فكانت

هى الحجرة التالية وكان بها أحد الرجال المسلحين يراقب المدخل، لكن الباب كـان مفتوحـاً. تطلعنا إلى الداخل ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ولم نكد نفعل ذلك حتى خرجت فولبيا فلامينيا من المطبخ كأنها السهم وأغلقت الباب وهى تصيح صيحة مفزعة.

- بحق الله يا أبنائى لا تنظروا إليها !

كانت صيحتها متأخرة، فلن ننسى طوال حياتنا ما رأيناه فى تلك اللحظة الخـاطفة، كان هناك رجـلان يرتديان ملابس مـدنية ويقومان بقياس المسافة بين السـرير والحائط بينما يقوم آخر بالتقاط الصـور بكامـيـرا لها كم أسـود مـثل المصـورين الذين يطوفـون بالحـدائق. لم تكن السـيدة/ فـوربس على السـرير غـير مـرتب الفراش، كانت ملقاة على جانبها بعض الشىء على الأرض وهى عريانة وغارقـة فى بركة دماء جافة كانت قـد غطت أرض الحجرة بالكامل، كما كـان جسمها تغطيـه طعنات مختلفة، كانت سـبعة وعشرين طعنة قاتلة، وانطلاقًا مـن كثرة الطعنات وحدتها يلاحظ أنها عـوملت بقسوة بسـبب حب لا يعرف الكلل، وأن السـيدة/ فوربس قـد تلقت هذه الطعنات بنفس الشـغف دون أن تصيح بل كانت تبكى وهى تنشـد لشيلر بصوتها العذب الذى يشـبه صوت الجندى وعلى وعى كـامل بأن ذلك هو الثـمن الحتـمى لصيـفهـا السعيد.



جئت لأتصل بالتليفون فقط

(١٩٧٨)

ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع وعندما كانت ماريا لوث ثربانتس تسافر وحدها تعرضت السيارة التى استأجرتها لعطل فى صحراء "مونيغروس". كانت مكسيكية، تبلغ من العمر سبعًا وعشرين عامًا، جميلة وجادة، وقد حازت قبل سنوات نصيبًا من الشهرة كممثلة لأدوار مختلفة. متزوجة بواحد ممن يؤدون الألعاب السحرية فى الصالونات، وفى ذلك اليوم كانت عائدة إليه بعد زيارة قامت لبعض أقربائها فى سرقسطة، وبعد ساعة من النداءات غير المجدية على السيارات المارة والشاحنات التى تمر مندفعة وسط عاصفة المطر أشفق عليها سائق أتوبيس متهالك. وحذرها إلى أنه لن يذهب بعيدًا.

- لا يهم - قالت ماريا - إن ما أريده فقط هو الاتصال بالتليفون.

كان ما تقول صحيحًا، إذ هى فى حاجة إلى التليفون لتبلغ زوجها أنها لن تصل قبل السابعة مساءً، تبدو كأنها طائر مبلل وهى ترتدى معطفًا من المعاطف الطلابية وتلبس حذاء مخصصًا للشاطئ خلال شهر أبريل، كما كانت خائفة لأنها لم تأخذ حذرها وتحمل معها مفاتيح السيارة. كانت هناك امرأة تسافر إلى

جوار سـائق ذى هيئة عـسكرية لكنه حسن التصـرفات إذ أعطاها فوطة وبطانية وبحث لها عن مكان بجانبه، وبعد أن جففت نفسها بعض الشىء جلست والتحـفت البطانية وحاولت إشعال سـيجارة من السجائر القليلة التى نجت من مياه المطر. وبينما تدخنان فتحت ماريا باب الحـوار لتفـرج عن نفسـها بالكلام. صوتهـا أعلى من صوت المطر وإيقـاع صوت الأتوبيس. قـاطعتهـا المرأة وهى تضع سبابتها على شفتيها. وهمست لها.

- إنهن نائمات.

نظرت ماريا من أعلى كـتفها ورأت أن الأتوبيس كـان مليئًا بنساء ذوات أعمار متقدمة وأوضاع اجتماعية مختلفة. كُن نائمات وهن يلتحفن بطانيات مماثلة لتلك التى معها. أصابت ماريا عدوى راحتهن فتمكنت من مقعدها وتركت نفسها لصوت المطر. وعندما استيقظت كان الظلام مـخيمًا وتحولت زذاذات المطر إلى نتف ثلج تهـبط بهـدوء. لم تدر كم من الوقت نـامت أو فى أى مكان من العالم هى موجودة. كانت جارتها فى المقـعد تتخذ موقفًا حذراً. سألت ماريا :

- أين نحن.

- وصلنا - أجابت المرأة.

دخل الأتوبيس الفناء المبلط بالحجارة، وهو فناء مبنى ضخم ومظلم بدا على شكل دير أقـيم وسط غابة من الأشجار العـالية،

أما المسافرات فقد كانت تسقط عليهن أشعة ضوء لمبة واحدة فى الفناء، وظللن ساكنات حتى جاءت المرأة ذات الشكل العسكرى وأشارت إليهن بالنزول فى نظام وكأنهن فى حضانة للأطفال. كن كبيرات فى السن وكن يتحركن فى ظلمة الفناء ببطء لدرجة بدين معها صوراً من صور الأحلام. كانت ماريا آخر من تركت الأتوبيس وفكرت أنهن راهبات. لكنها أخذت تستبعد هذا الظن عندما رأت بعض النساء وهن يرتدين الزى ويستقبلن المسافرات على باب الأتوبيس ويقمن بتغطية رؤوسهن بالبطانيات حتى لا تبتل، ثم يقمن بصفهن صفًا واحداً على طريقة الهنود ويربتن عليهن دون التوجه بالحديث إليهن. وبعد أن ودعت ماريا جارتها فى المقعد أرادت أن ترد لها البطانية، لكن الأخرى قالت لها بأن تغطى بها رأسها حتى تتمكن من عبور الفناء ثم تسلمها فى البوابة.

- هل سيكون هناك تليفون؟ سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - سيرشدنك عن مكانه.

طلبت من ماريا سيجارة أخرى فأعطتها باقى العلبة بالسجائر المبتلة. "سوف تجف فى الطريق" قالت لها. لوحت المرأة بيدها مودعة وهى على سلم الأتوبيس وقالت لها بصوت مرتفع "حظًا طيبًا" أخذ الأتوبيس طريق الخروج دون أن تتمكن من أكثر من هذا.

بدأت ماريا تجرى صوب مـدخل المبنى، فحـاولت إحدى الحارسات إيقـافها بتربيتـة صارمة، ورغم ذلك لجأت إلى صـيحة مكتومـة : "قلت توقفى!" نظرت ماريا من تحت البطانيـة فرأت عينين جـامدتين وسـبابة صارمـة تشيـر إليها أن تلـتزم الطابور، فـأطاعت، وعندما دخلـت دهليز المبنى انفـصلت عن البـاقيـات وتوجهت للبواب لتسـأل عن تليفون، فجعلتهـا إحدى الحارسات تعود مرة أخرى إلى الطابور وهى تربت على كتفـها كما تقول لها بتلطف شديد.

- من هنا يا جميلة، التليفون من هنا.

واصلت مـاريا مثل باقى النسـاء سيـراً عبـر ممر مظلم وفى النهاية دخلت عرفة نوم جماعيـة حيث قامت الحارسات باسترجاع البطانيـات وبدأن فى توزيع الأسرة. كانت هـناك امرأة، بدت فى عين ماريا مختلفة وأكثر إنسـانية ومختلفة عن الباقيات، هذه المرأة تقـوم بمراجعـة الطابور على أسـاس قائمـة من الأسمـاء تحملهـا وتضاهيها بالأسماء المكتوبة على قطعـة كرتونية مثبتة بواسطة خيط على ملابسهـن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئـت بأنها لا تحمل إثبات شخصيتها.

- الأمر هو أننى جئت لأتصل بالتليفون - قالت ماريا.

وقامت بـسرعة شـديدة لإيضاح بأن سـيارتهـا تعطلت فى الطريق، وأن زوجـها الذى يقـوم بألعـاب السحـر فى الحفـلات

ينتظرها فى برشلونة وذلك حتى يفى بثلاثة من التزاماته تمتد حتى منتصف الليل، وأنها لذلك تريد إبلاغه بأنها لن تصل فى الوقت المناسب لمرافقته. كانت الساعة قد اقتربت من السابعة، ومن المفترض أن يغادر المنزل فى غضون عشر دقائق. وكانت تخشى أن يقوم هو بإلغاء كل ارتباطاته بسبب تأخيرها. بدا أن الحارسة تصغى إليها باهتمام.

- ما هو اسمك؟ سألتها.

ذكرت لها ماريا اسمها بالكامل وهى تصدر تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تعثر على الاسم بعد مراجعة القائمة عدة مرات. فسألت مستفسرة من إحدى الحارسات، لكنها هزت كتفيها دون أن تنطق بشىء.

- إننى جئت إلى هنا لأتصل بالتليفون فقط - قالت ماريا.

- وهو كذلك يا حلوة - قالت لها الرئيسة، وأخذتها إلى سريرها بعذوبة شديدة تفقدها مصداقيتها وواقعيتها - إذا ما تصرفت جيداً ستتمكنين من الاتصال بالتليفون بمن تريدين، لكن ليس الآن - غداً.

طرأ خاطر فى عقل ماريا فى هذه اللحظة جعلها تفهم لماذا كانت النساء فى الأتوبيس تتحركن وكأنهن فى قاع جدول. لقد تم إعطاؤهن المنومات، أما هذا القصر المظلم ذو الأسوار السميكة

المبنية من الحجارة والسلالم المتجمدة فلم يكن فى الحقيقة إلا مصحة للأمراض العقلية. فشعرت بالفزع وفرت هاربة من حجرة النوم، لكنها قبل أن تصل إلى الباب قابلتها حارسة ضخمة الجثة وعاجلتها بضربة قوية كلها غلظة فطرحتها أرضًا وأفقدتها القدرة على الحركة بليّ ذراعيها.

نظرت إليها ماريا وقد أعجزها الرعب.

- بحق الله - قالت - أقسم لك بأمى الميتة أننى جئت لأتصل بالتليفون.

كان كافيًا أن ترى وجهها لتعرف أن لا ملاذ أمام هذه الجثة الضخمة الغبية التى كن يطلقن عليها "هُريقلة" نظرًا لقوتها غير العادية. كانت توكل إليها المهام الصعبة لدرجة أن اثنتين من السجينات لقيتا حتفهن خنقًا بذراع الدب القطبى هذا، والمدرب على فن القتل سهواً. وتم حل القضية الأولى على أنه حادث، أما الحالة الثانية فكانت غير واضحة، وتم توجيه اللوم والتحذير لهريقلية، وأنه فى المرة القادمة سوف تتعرض للمساءلة الدقيقة. والصورة الشائعة عنها هو أنها تلك النعجة الضالة التى تنسب إلى عائلة ذات ألقاب كثيرة، تاريخها ملىء بالحوادث المشبوهة التى وقعت فى أكثر من مصحة عقلية فى أسبانيا.

وحتى تنام ماريا أول ليلة حقنوها بنوم. وقبل شروق الشمس أيقظتها الرغبة فى التدخين فوجدت نفسها مربوطة من

يديها ورجليها فى السرير. لم يلب أحد صيحاتها. وفى الصباح وبينما لم يجد الزوج أى أثر لها فى برشلونة، أخذوها إلى العيادة ذلك أنهم وجدوها وهى غارقة فى بحر من البول والبراز.

لم تدر كم من الوقت استغرقته عندما تنبهت من سباتها. لكن الدنيا كانت فى هذه اللحظة ينبوع حب، فقد كان على رأس سريرها رجل عجوز أثرى يسير على أطراف قدميه وله ابتسامة ناعمة، ومن خلال لمستين حانيتين أعاد إليها فرحة الحياة، كان مدير المصحة.

وقبل أن يقول لها شيئاً أو حتى يحييها طلبت منه ماريا سيجارة فأعطاها واحدة مشتعلة وأهداها باقى العلبة. فأجهشت ماريا بالبكاء.

- انتهزى الفرصة الآن لتبكى كما تشائين - قال لها الطبيب بصوت يبعث على النوم - فالدموع هى أفضل علاج.

بكت ماريا تفضفض عن نفسها دون حرج، ولم تكن قد فعلت ذلك أبداً وهى مع عشاق الصدفة الذين صادفوها، وخاصة فى فترة الاسترخاء التالية لممارسة الحب. وبينما كان الطبيب يستمع إليها كان يقوم بتمشيط شعرها بأصابعه ويقوم بإزاحة المخدة عن أنفها حتى تتنفس بشكل أفضل، وأخذ يساعدها وهى غارقة فى حيرتها، ويتمتع فى ذلك بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما أبداً.

ولأول مرة فى حـياتهـا تشعر أن هناك من يفـهمـها، وأن الرجل الذى ينصت إليـهـا يـفعـل ذلك من أعـمـاق روحـه دون انتظار للمقابل، وهو ممارسـة الحب معها. وبعد سـاعة طويلة من البكاء بحرارة طلبت منه الموافقة على أن تتصل بزوجها تليفونيًا.

اعـتدل الـطبيب فى مـهـابة تليق بمنصـبـه. "ليس الآن يا مليكتى، قال لها ذلك وقد ربت على خـدها برقة لم تشعر بمثلها من قبل" سـيتم كل شىء فى وقتـه، كما باركهـا كأنه رجل دين وهو على الباب واختفى للأبد.

- ثقى فى - قال لها.

تم تسجـيلها مساء ذلك اليـوم فى المصحة، وأخذت رقـمًا مسلسلاً وأضيف إلى جـوار اسمها تعليقًا سطحيًـا يتعلق بغموض المكان الذى جـاءت منه والشكوك حول حـقيـقتـها. وفى نهـاية التعليق هناك عبارة كتبها المدير بخط يده " حالة هياج".

وكما توقعت ماريا كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة فى حى "أورتا" نصف سـاعة مـتأخرًا عن الوقـت المتفق عليه ليفى بالارتبـاطات الثلاثة. هذه هى المرة الأولى التى لا تأتى فى موعدها طوال ما يقـرب من عامين من بداية الزواج الحر الذى تم الاتفاق عليـه جيدًا. وفهم هو أن الـتأخير بسـبب غزارة المطر الذى نزل على المنطقة فى نهاية ذلك الأسـبوع، لكنه قبل أن ينزل ترك رسالة علقها فى الباب يوضح فيها مساره فى تلك الليلة.

وفى الحفلة الأولى كان الأطفال جميعهم قد ارتدوا قناع الكنغر وبذلك تخلى عن اللعبة المعتادة وهى لعبة الأسماك غير المرئية، فلم يتمكن من القيام بها دون مساعدتها. أما الحفلة الثانية فكانت فى منزل سيدة عجوز تبلغ الثالثة والتسعين من العمر جالسة على كرسى متحرك. كانت هذه العجوز تفخر بأنها احتفلت كل عام بعيد ميلادها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وفى كل مرة تتعاقد مع ساحر مختلف. كان يشعر بالقلق بسبب تأخير ماريا ولم يستطع التركيز فى الألعاب التى تتسم بالبساطة. أما الحفلة الثالثة فكانت هى التى اعتاد المشاركة فيها كل ليلة والمكان هو عبارة عن مقهى تعزف فيه الفرق الموسيقية فى شارع/ لاس رامبلاس. وقد أدى النِّمر المعتادة دون أى إلهام، أمام مجموعة من السياح الفرنسيين الذين لم يصدقوا ما يرونه ذلك أنهم كانوا يقاومون الاعتقاد فى السحر. وكان يقوم بالاتصال بمنزله بين كل لعبة وأخرى، وانتظر بلا أمل، أن تجيب على اتصالاته. وفى آخر مرة لم يستطع كبح جماح قلقه فى أن شيئًا سيئًا قد حدث لها.

عندما عاد إلى المنزل وهو يقود الشاحنة الصغيرة التى قام بإعدادها لتتناسب مع العروض فى الأماكن العامة شهد جمال الربيع متمثلاً فى النخيل المصطف فى طريق/ جراثليا. وسيطرت عليه فكرة أخذت تلح عليه وهى كيف يمكن أن تكون المدينة بدون ماريا. ضاعت آخر آماله عندما وجد الورقة التى تركها على

الباب كـما هى. كـان القلق قد استـبد به لدرجـة أنه نسى إعداد وجبة الطعام للقط.

عندما أقوم الآن بكتابة الاسم أدرك أننى لا أعـرف ما اسمه فى الحـقيـقـة. ذلك أننا فى برشلونة كنا نعـرفه بـاسمـه المهنى/ ساتورنو السـاحر. كان رجلاً ذو طبـيعة غـريبة، ولم يكن به أى ذكاء اجـتمـاعى إلا أن الظرف والحساسـية فى التـصرفـات اللتان تنقصـه توجدان بشكل زائد فى ماريا. كانت هى التى تـأخذ بيده فى هذا المجتـمع الملىء بالكثير من الأسـرار والذى لم يخطر ببال أحد منه أن يتـصل تليفونيًا بآخـر بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته. لكـن ساتورنو فعلها وقـد وصل للتو للمنزل، ولم يكن يريد أن يتذكر ذلك الموقف. وعلى هذا اكتفى بالاتصال بسرقسطة حيث ردت عليـه إحدى الجدات وهى شـبه نائمة ودون أن تشـعر بأى خوف، وقالت له بأن ماريا رحلت بعد تناول الغداء. ولم ينم أكثر من سـاعة حتى الفجر، ورأى أثناء النوم حلمًا طينـيًا - شهد فـيه مـاريا وهى ترتدى فـستـان زفـاف مكون من القـصاصـات ومخضب بالدماء. واستيـقظ وهو على يقين بأنها عادت وتركته، وهو الآن يعيش وحده فى هذا العالم الواسع بدونها.

كانت قد فعلت تلك الفعلة قبل ذلك ثلاث مرات مع ثلاثة من الرجال وكان هو واحد من هؤلاء الثلاثة خـلال الخمسة أعوام الأخيرة، قـد تركته فى مدينة "المكسـيك" بعد مضى سـتـة أشهر

على تعارفهما عندما كانا فى قمة السعادة وهما يعيشان حباً مجنوناً فى حجرة حمام فى مستعمرة أنثوريس. وذات صباح كانت ماريا قد غادرت المنزل قبل الشروق وتركت كل متعلقاتها بما فى ذلك خاتم زيجتها السابقة وكذا رسالة تقول فيها بأنها، بعد ليلة من الممارسات الزائدة عن الحد والتى لا يمكن الإفصاح بها، غير قادرة على تحمل تبعات ذلك الحب الذى لا يقف عند حد. وفكر ساتورنو أنها ربما عادت إلى زوجها الأول الذى كان أحد تلاميذها فى المدرسة الثانوية، وتزوجت به خفية لأنه لم يبلغ سن الرشد ثم تركته من أجل آخرين بعد عامين من اللا حب. لكن ليس هذا هو ما حدث، لقد عادت إلى منزل والديها وذهب ساتورنو إلى هناك ليبحث عنها بكل السبل. أخذ يرجوها، دون أن يضع أية شروط، ووعدها بأكثر مما هو قادر على الوفاء به، لكنه لم يجد إلا الصد الذى لا يلين: "هناك أنواع من الحب قصيرة العمر وأنواع أخرى طويلة العمر". قالت له واختتمت حديثها بلا رحمة "كان ذلك الحب من النوع القصير العمر". استسلم أمام قوة إرادتها، ومع ذلك فذات صباح وهو بالتحديد يوم القديسين، وعندما كان عائداً إلى حجرته وهو يشعر باليتم بعد عام من النسيان، وجدها نائمة على الكنبة الكائنة فى الصالة وهى تحمل باقة الورد وذيل فستان الزفاف يمتد كأنها عروس لم تدخل الدنيا بعد.

قصت عليه ماريا الحقيقة، وهى أن خطيبها الجديد رجل أرمل ليس عنده أولاد يعيش حياة سهلة ومستعد للزواج عن طريق الكنيسة الكاثوليكية، هذا الرجل تركها وهى ترتدى فستان الزفاف وتنتظره فى مذبح الكنيسة. وقرر والدها إتمام الحفل. فواصلت هى معهما اللعبة، فرقصت وغنت وشربت حتى سكرت وهاجمها إحساس رهيب بتأنيب الضمير، ذهبت فى منتصف الليل لتبحث عن ساتورنو.

لم يكن فى المنزل، لكنه وضع المفاتيح فى إحدى إصص الزهور الكائنة فى الممشى حيث كانا يضعانها دومًا. كانت هى هذه المرة التى استسلمت له بلا قيد أو شرط "والآن إلى متى؟" سألها. فأجابت عليه ببيت من الشعر لفينثيوس دى موراليس :

" الحب خالد ما دام مستمراً" وبعد ذلك بعامين كان الحب لا يزال خالداً.

بدا أن ماريا نضجت! إذ تخلت عن أحلامها بأن تكون ممثلة وكرست نفسها له سواء فى ممارسته لمهنته أم فى السرير. وفى نهاية العام الماضى كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة فى بربيجان، وعندما عادا تجولا فى برشلونة فأعجبتهما المدنية لدرجة أنهما اشتريا شقة فى حى قطلانى محض هو حى "أورتا" إنه حى كثير الضوضاء، كان المنزل الذى هما فيه بلا بواب، إلا أن به مساحة

تكفى لخمسة أبناء، كانت تلك هى السعادة الممكنة حتى قامت هى فى نهاية الأسبوع واستأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقربائها فى سرقسطة على وعد بأن تعود فى السابعة من مساء الاثنين، لكن لم يظهر لها أى أثر حتى فجر الخميس.

وفى يوم الاثنين من الأسبوع التالى اتصلت شركة التأمين على السيارة المؤجرة تليفونيًا بالمنزل لتسأل عن ماريا "لا أعرف شيئًا" قال ساتورنو "ابحثوا عنها فى سرقسطة" ثم وضع السماعة، وبعد ذلك بأسبوع ذهب أحد رجال البوليس وكان يرتدى زيًا مدنيًا إلى منزله ليبلغه بأنهم وجدوا السيارة، وقد جردت من كل شىء، فى طريق فرعى بالقرب من قادش، أى على بعد تسعين كيلوا مترًا من المكان الذى تركتها فيه ماريا. وكان رجل البوليس يريد أن يعرف المزيد من التفاصيل عن عملية السرقة هذه. كان ساتورنو يقوم بتقديم الطعام للقط، ولم يكد ينظر إليه وهو يقول لرجل البوليس بألا يضيعوا الوقت ذلك أن امرأته قد هربت من المنزل وهو لا يعرف مع من هربت أو إلى أين ذهبت. كان على هذه القناعة لدرجة أن رجل البوليس شعر بالحرج واعتذر له عن كثرة أسئلته. وأعلن حفظ القضية.

داهمت ساتورنو الغيرة من أن تقوم ماريا بالهرب من المنزل فى عيد القيامة فى "كاداكيس" حيث كانت روسا ريجاس قد دعتها لممارسة رياضة الإبحار بالمراكب الشراعية. كنا فى

"ماريتيم" البار الشعبى الشهير المليء بالضوضاء الكائن فى "لاجوش دبين" وذلك فى فترة مغيب شمس الحكم الفرنكوى. وكنا نجلس على مائدة مصنوعة من الحديد، وكذلك كراسى من نفس المادة، كان المكان يستوعبنا نحن الستة بالكاد، لدرجة أننا كنا نشعر بأننا محشورون كأننا عشرون فرداً. وبعد أن انتهت علبة السجائر الثانية خلال ذلك اليوم وجدت ماريا نفسها بدون كبريت. وفجأة امتدت ذراع نحيفة مليئة بالشعر القوى، وفى المعصم سوار من البرونز الرومانى، وفتحت لنفسها مكانًا وسط الجموع الجالسة حول المنضدة وأعطتها الكبريت. أما هى فقد شكرته دون أن تنظر إليه لكن ساتورنو الساحر رآه، كان شابًا يافعًا نحيفًا وأمردًا شاحب اللون شحوب الموت، وكان شعره طويلاً يمتد فى حزمة سوداء حتى خصره. أما زجاج البار فلا يكاد يقاوم غطرسة الربيع إلا أن الفتى كان يرتدى نوعًا من البيجامات الشعبية المصنوعة من القطن الخام وحذاءًا مثل أحذية العمال.

لم يرياه بعد ذلك اليوم إلا فى نهاية الخريف، وذلك فندق صغير تباع فيه القشريات والرخويات البحرية فى منطقة "بارثيلونيتا" وهو يرتدى نفس الطقم الواسع الانتشار، كذلك كان شعره فى الضفيرة الطويلة بدلاً من الحزمة. حياهما وكأنه يحيى أصدقاء قدامى، وبناء على شكل تقبيله لماريا ومبادلتها له زادت شكوك ساتورنو فى أنهما كانا يتواعدان سراً. وبعد ذلك بعدة أيام

وجد بمحض الصدفة اسمًا جديدًا ورقم تليفون جديد وقد دونتهما ماريا فى النوتة المنزلية. وأسهمت الغيرة غير الرحيمة فى تخمينه لمن يكون الاسم والرقم. وأدى العثور على المفكرة الشخصية للدخيل إلى التأكد من كل شىء : العمر اثنين وعشرين عامًا، هو ابن وحيد لأسرة غنية يتمثل عمله فى إعداد ديكورات فترينات العرض، ويشتهر بأنه شاذ جنسيًا وأنه ذا سمعة معترف بها فى قدرته على تسلية السيدات المتزوجات مقابل أجر مادى، ومع ذلك استطاع ساتورنو أن يتحمل هذه الغيرة حتى الليلة التى لم تعد فيها ماريا إلى المنزل. وعندئذ أخذ يتصل به تليفونيًا كل يوم، وكان يتصل، فى البداية، بمعدل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحًا وحتى فجر اليوم التالى. ثم أخذ يتصل به كلما وجد أمامه الفرصة مهيأة لاستخدام التليفون. ولما لم تكن هناك إجابة زادت تعاسته وعظم شقاؤه.

وفى اليوم الرابع رد عليه صوت أندلسية كانت تقوم بأعمال النظافة "لقد خرج الأستاذ" قالت له هذه العبارة بكثير من الغموض لتزيد من جنونه. فلم يستطع ساتورنو مقاومة فضوله بسؤالها عما إذا كانت قد رأت الآنسة ماريا هناك على سبيل الصدفة.

- لا تعيش هنا أى امرأة اسمها ماريا - قالت له المرأة - تعرف أن الأستاذ أعزب.

- أنا أعرف - قــال لها - إنها لا تعيش هناك ولكن أحــيانًا تذهب إلى المكان، أليس كذلك؟

اغتاظت المرأة

- من الذى يتحدث؟

وضع ســاتورنو الســماعــة، وبدا نفى المرأة كــأنه المزيد من التأكيد على أن ما يتصوره ليس مــجرد شكوك، بل حقيقة لا مراء فيها. فـفقد سيطرته على نفسه، وأخذ خــلال الأيام التالية يجرى اتصالات بكل من يعــرفهم فى برشلونة واستــعمل فى ذلك نظام التــرتيب الأبجدى. لم يقــده أحد لشىء، لكن كل مكالمة كــانت تزيد من تعــاسته، ذلك أن هوس الغــيرة عنده كــان معــروفًا لدى السهارى الدءوبين فى "لاجوش دبين" وكانوا يرددون عليه ببعض العبــارات الساخــرة التى كانت تزيد من عــذابه. وفى هذه الآونة أدرك أنه إلى أى مدى يعيش وحيدًا فى هذه المدينة الجميلة المجنونة والصعبة المنال والتى لن يكون سعيدًا فيها أبدًا، وفى الفجر، وبعد أن وضع الطعام لــلقط أمسك بقلبه حــتى لا يموت واتخــذ قرارًا بنسيان ماريا.

لم تكن ماريا قــد تعودت بعد على الحــياة فى المصحــة بعد مرور شهــرين، كانت تعيش على القليل من جــراية السجن وهى تســتخــدم طقم الطعــام المربوط إلى المنضــدة المصنوعــة من ألواح

الخشب غير الناعمة وعيناها ثابتتان على صورة الجنرال فرانكو التى كانت تسيطر على حجرة طعام، من العصور الوسطى، تتسم بالكآبة. كانت فى البداية تقاوم ساعات الوعظ الدينى بروتينيتها الغبية من صلوات الفجر والظهر والمساء، وكذلك بعض التراتيل الكنسية الأخرى التى تغطى معظم الوقت. وكانت ترفض اللعب بالكرة فى الفناء أو العمل فى ورشة الزهور الصناعية التى تقوم على رعايتها مجموعة من السجينات باهتمام بالغ. وفى الأسبوع الثالث أخذت ماريا تنضم رويداً رويداً للحياة فى الدير، وعلى حد قول الأطباء فإن البداية عندهن واحدة، وبعد ذلك ينخرطن فى صفوف المجتمع المحيط بهن.

كانت تجد حلاً لمشكلة السجائر خلال الأيام الأولى بواسطة إحدى الحارسات التى تبيعها بسعر مرتفع، وأدت حاجتها للسجائر إلى إقلاقها عندما انتهى ما معها من النقود القليلة. وكان عزاؤها بعد ذلك تدخين السجائر المصنوعة من ورق الصحف التى تقوم بصناعتها بعض السجينات باستخدام "السبارس" التى تجمعها من القمامة. وقد وصلت رغبتها الشديدة فى التدخين إلى نفس درجة رغبتها فى الاتصال بالتليفون، وكانت البيزيتات القليلة التى جنتها من المشاركة فى إعداد الزهور تشكل نوعاً من المسكنات قصيرة المفعول.

إن أقصى شيء هو العزلة أثناء الليل. فكانت الكثيرات من السجينات تمكثن يقظات فى الظلام مثلها لكن دون أن تجرؤ واحدة

منهن على شيء، فها هى هناك الحارسة الليلية التى تراجع البوابة الموصدة بواسطة سلسلة وقفل. ومع ذلك، اشتد بها الضيق ذات يوم فسألت بصوت واضح حتى تسمعها جارتها فى السرير.

- أين نحن؟

أجابها الصوت الحاد والواضح للجارة.

- فى أعماق الجحيم.

- يقولون إن هذه هى أرض عربية - قال صوت آخر بعيد رن فى فراغ حجرة النوم - ولابد أن يكون هذا الكلام سليماً، ففى الصيف وعندما يطلع القمر تسمع الكلاب وهى تنبح على البحر.

سمع صوت السلسلة وهى تدور فى الحلقة وكأنها خطاف لأحد المراكب التى تستعد للرسو أو الإبحار، ثم فتح الباب، كانت الحارسة الشديدة هى الكائن الوحيد الذى يبدو حيًا فى هذا الصمت المفاجئ. أخذت تروح وتغدو من طرف لآخر فى حجرة النوم. أصاب الخوف ماريا وكانت هى الوحيدة التى تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول لها فى المصحة عرضت عليها الحارسة الليلية بوضوح ودون لف أو دوران أن تنام معها فى حجرة الحراسة. وقد بدأت عرضها بإيقاع يشير إلى مصلحة محددة:

مبـادلة الحب بالسجـائر والشيكولاتة أو أى شىء آخـر. "سيكون لك كل شئ". كانت تقـول لها وهى خائفـة "وستكونين المليكة المسيطرة". وأمام رفض مـاريا تغيرت الطريقة عند الحارسـة. فقد كانت تترك لها عبارات مكتوبة تعـبر لها عن حبها، تحت المخدة، أو فى جيوب البـيجامة أو فى الأماكن الأخـرى التى قد لا تخطر على البال. كـانت رسائل استعـجال وفيـها وله يمكن أن يلين له الحجر. منذ ما يقرب من شهر وهى تبـدو أنها استسلمت للهزيمة وهى تلك الليلة التى دبرت فـيها الواقـعة التى جرت فى حـجرة النوم. وعندما تأكدت أن كافة السجـينات نائمات اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست فى أذنها بكل العبارات الرقيقة وهى تقبل وجهـها ورقبتـها التى توترت من الرعب وتجمدت أطرافـها. ولما تصـورت الحارسـة أن حالـة الجمـود التى عليـها مـاريا لا ترجع للخوف بل لأنهـا تشعر بالمتعة جـرؤت على الذهاب إلى أبعد من هذا، وعندئذ سددت لها ماريا ضربة بظهـر يدها جعلتها تطير إلى السرير المجـاور، نهضت الحـارسة مغـتاظة وسط الضـجيج الذى أحدثته السجينات.

- يا ابنة الساقطة - صاحت - سوف نهلك هنـا جميعًا فى حظيرة الخنازير هذه حتى تصابين بالجنون من حبك لى.

هل الصيف، دون أن يعلن عن نفسه، يوم الأحد الأول من شهر يونيـو، وكان من الضرورى اتخاذ إجـراءات عاجلة ذلك أن

السجينات كن يشعرن بالحر ويخلعن المعاطف الصوفية أثناء القداس. كانت ماريا تتسلى بمشاهدة المريضات وهن عاريات وتقوم السجينات بسوقهن كأنهن دجاج أعمى. ووسط هذا الهرج والمرج حاولت أن تحمى نفسها من الضربات الطائشة، ودون أن تدرى وجدت نفسها بمفردها فى مكتب خال وجهاز تليفون يدق دون توقف وبه زر الطلب. أخذت ماريا السماعة دون تفكير وسمعت صوتًا بعيدًا وضاحكاً يتسلى وهو يقلد خدمة الساعة التليفونية:

- أنها الساعة الخامسة والأربعون واثنتان وتسعون دقيقة - ومائة وسبعة من الثوانى.

- أيها الشاذ جنسيًا - قالت ماريا.

وضعت السماعة وهى تشعر بروح الدعابة. كانت على وشك الانصراف عندما أدركت أنها أمام فرصة ذهبية لا تتكرر. وعندئذ ضربت أرقامًا ستة، بسرعة وتوتر، ولم تكن متأكدة أن الرقم الذى طلبته هو رقم المنزل. انتظرت وقلبها يدق بعنف، سمعت الجرس المعتاد بصوته الحزين، يدق مرة ثم اثنتين ثم ثلاثة وسمعت بعد ذلك صوت الرجل شريك حياتها وهو فى المنزل بدونها.

- حسن؟

كان عليها الانتظار حتى تنقضى خنقة الدموع التى تكونت فى حنجرتها.

- أيها الأرنب - يا حياتى - تنهدت.

هزمتها الدموع، وعلى الطرف الآخر من الخط كان هناك صمت وجيز يتسم بالفزع والصوت الذى أصابته الغيرة بالتوتر.

- أيتها القحبة !

ووضع السماعة بعنف.

فى هذه الليلة - خلال نوبة حادة - قامت ماريا بإنزال صورة جنرال الجنرالات وألقت بها بكل ما أوتيت من قوة على أرض الحديقة ووقعت غارقة فى دمائها. كان لا زال بها بعض الغيظ لتواجه الحارسات اللاتى حاولن السيطرة عليها دون جدوى بأن وجهت لهن بعض اللكمات حتى رأت "هُريقلية" واقفة على الباب وهى معقودة الذراعين تنظر إليها، عندئذ استسلمت،ومع ذلك جررنها حتى عنبر المجنونات الخطرات وضربنها بخرطوم مياه قوى وقمن بحقنها فى فخذها بمادة "التربنتين". وقد أدى الحقن إلى تورم حال دون قدرتها على المشى وأدركت ماريا أن ليس هناك شىء فى هذه الدنيا يحول دون العمل على الفرار من الجحيم. وفى الأسبوع التالى وعند العودة إلى حجرة النوم الجماعية نهضت على أطراف قدميها وضربت على مكان إقامة الحارسة الليلية.

كان السعر الذى تطلبه مـاريا هو الدفع مقدمًا وهى أن تقوم بتوصيل رسالة إلى زوجها فوافقت الحارسة طالما أن الاتفاق بينهما يظل فى طى الكتمان، وحـذرتها بسبابتهـا التى تصلبت من شدة التأكيد.

- إذا ما عُرف عن الأمر شىء فسوف تموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الـساحر إلى المصـحة العقليـة للنساء يوم السـبت التالى وهو يركب شـاحنته الصـغيـرة المهيـأة لألعاب السحر وسط الجماهير وذلك ليحتـفل بعودة ماريا. فاستقبله مدير المصحـة بنفسه فى مكتـبه النظيف والمرتب وكـأنه مركب هارب. وأبلغه برقة عن حالة زوجته. فلا أحد كان يعرف من أين أتت أو كيف أو متى ذلك. إن أول البيانات الخاصـة بتسجيلها فى الدفاتر الرسميـة قام هو بنفسه بتـدوينها عندما التقى بـها، وبعد ذلك تم إجـراء تحـرٍ فى نفس اليـوم لم يسـفـر عن أى شىء. وعلى أى الأحوال فإنّ كل مـا كان يهم المدير هو معرفة الكيفـية التى عرف من خلالها ساتورنو المكان الذى فيه زوجته. فما كان من ساتورنو إلا حماية الحارسة.

- لقد أبلغتنى شركة التأمين على السيارة بذلك - قال.

فما كـان من المدير إلا القبول راضيًـا بالإجابة "لست أدرى كيف يقومون بالتأمـينات حتى يعرفوا كل شئ" قال ثم ألقى نظرة على ملفها الموجود على منضدة مكتبه واختتم حديثه قائلاً:

- الشيء الوحيد المحقق هو خطورة حالتها.

كان مستعداً للموافقة على زيارته لها مع الأخذ فى الاعتبار المحاذير اللازمة إذا ما وافق ساتورنو الساحر على الالتزام بما يملى عليه وذلك حرصاً على مصلحة زوجته وخاصة فيما يتعلق بمعاملتها للحيلولة دون إثارة هيجانها الذى أصبح يتكرر بكثرة وخطورة فى الفترة الأخيرة.

- إنه لأمر غريب - قال ساتورنو - كانت دائماً حادة المزاج، لكنها كانت تسيطر على نفسها.

أومأ الطبيب إيماءة العارف بكل شيء "هناك سلوكيات تظل ساكنة لسنوات طويلة ثم تنفجر بعد ذلك ذات يوم". قال " وعلى أى الأحوال فإن حظها الطيب جعلها تأتى إلى هنا ذلك أننا متخصصون فى حالات تتطلب العزيمة الصلبة" وفى النهاية حذره من الهوس الذى تبديه ماريا بالتليفون.

- عليك مسايرتها - قال.

- اطمئن يا دكتور - قال ساتورنو وهو يبدى مرحه - إن ذلك هو تخصصى.

كانت صالة الزيارات خليطاً من السجن وكرسى الاعتراف، وكانت هى غرفة الدردشة القديمة فى الدير، لم يكن دخول ساتورنو هو تفجر الفرحة التى كان كلاهما فى انتظارها. كانت

ماريا واقـفة فى وسط الصـالون إلى جوار منضـدة صغـيرة وإلى جوارها مقعـدين واثنين من الأصص دون ورود. كان من البديهى أنها كانت جـاهزة لترحل عن المكان وهى ترتدى معطفـها المحزن بلون الفراولة وتلبس حذائها العـجيب الذى أعطى لها على سبيل الشفـقة. كـانت هيريقليـة تقف ولا تكاد تلمح فى أحـد الأركان وهى معقودة الذراعين، لم تتـحرك ماريا عندما رأت زوجها وهو يدخل، لم يبـد أى انفـعال عـلى وجهـهـا الذى لا زالت به آثار الكدمات، تبادلا القبلة الروتينية.

- كيف حالك - سألها.

- سعيدة بأنك جئت فى النهاية أيها الأرنب - قالت - كان ذلك هو الموت.

لم يسعفهما الوقت للجلوس فـقد غرقا فى الدموع وقصت عليه ماريا مآسى الدير ووحشيـة الحارسات والطعام الذى لا تقبله الكلاب والليـالى الطويلة التى تنقضى دون أن تـغمض لهـا عين بسبب الرعب.

- أنا لا أعرف كم يومًا قضيتها هنا، أم هل كانت شهوراً أم أعـوامًا، لكننى أعـرف جيـداً أن كل يوم هو أسوأ من الآخـر - قالت ذلك وتنهدت من أعـماقها- أعتقد أننى لـن أعود كما كنت سابقًا.

- ها قد انتهى كل شئ - قال العبارة وهو يداعب ببنان أصابعه البثور والندب التى فى وجهها - سوف أظل أحضر كل سبت وأكثر من ذلك إذا ما سمح لى المدير بهذا، وسوف ترين أن كل شىء سوف يكون على ما يرام.

حدجته بنظرة من عينيها الفزعتين، فحاول ساتورنو استخدام فنونه السحرية، فأخذ يقص عليها فى أسلوب صبيانى الأكاذيب الكبرى ورواية مخففة عن تشخيص الطبيب "وإيجازاً للقول" اختتم "لا زالت أمامك بعض الأيام حتى تستردى عافيتك تمامًا" عندئذ فهمت ماريا الحقيقة.

- بحق الله يا أرنبى ! قالتها بمرارة - لا تقل لى أنك أيضًا تظن أننى مجنونة!

- كيف يخطر لك هذا على البال ! قال ذلك وهو يحاول الابتسام - الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تظلى هنا بعض الوقت، وهذا يعنى أنك فى ظل ظروف أحسن بالطبع.

- لكنى أقول لك أننى جئت إلى هنا للاتصال بالتليفون - قالت ماريا.

لم يعرف كيف يكون رد فعله إزاء هذا الهوس المخيف، فنظر إلى هيريقلية، فانتهزت هى هذه النظرة لتشير إليه بساعتها أن زمن الزيارة قد انتهى. أدركت ماريا الإشارة فنظرت إلى الخلف

ورأت هيريقلية فى حالة استعداد لهجوم وشيك، وعندئذ أمسكت بكل قوة برقبة الزوج وأخذت تصيح وكأنها مجنونة حقيقية، فأبعدها عنه بكل حب قدر الإمكان وتركها تحت رحمة هيريقيلية التى هاجمتها من الخلف ولم تدع لها فرصة، كرد فعل، حتى لوت ذراعها بيدها اليسرى وطوقت بيدها الحديدية الأخرى رقبتها وصاحت فى ساتورنو الساحر.

- اذهب من هنا !

هرب ساتورنو الساحر فزعًا.

كان قد استرد أنفاسه من الرعب الذى عاشه فى الزيارة السابقة، فعاد يوم السبت التالى إلى المصحة وهو يحمل القط، وقد ألبسه ثوباً مماثلاً لما يلبسه هو: زرد مكون من اللونين الأحمر والأصفر مثل الساحر الكبير ليوناردو والقبعة الطويلة كأنها الكأس وجاكتة عريضة الياقات فى الصدر وكأنها من أجل الطيران. دخل وهو يقود شاحنته الصغيرة حتى داخل الفناء، وهناك قام بأداء الألعاب السحرية الطريفة واستمر فيها لمدة ثلاث ساعات وقد سعدت السجينات وهن فى الشرفات وأعربن عن سعادتهن بصيحات متنوعة وهتافات غير مناسبة - شهدن جميعهن العرض ما عدا ماريا " فلم ترفض فقط استقبال الزوج، بل رفضت أن تراه من الشرفة، شعر ساتورنو بأنه أصيب بطعنة قاتلة.

- إنه رد فعل تقليدى - قال المدير معزياً - وسوف يذهب عنها.

لكن رد الفعل لم يتغير أبدًا، فبعد الكثير من المحاولات لرؤية ماريا وعمل المستحيل حتى تستقبل رسالة منه ذهبت جهوده سدى، فقد عادت إليه الرسائل أربع مرات وهى مغلقة ودون أى تعليق. تخلى ساتورنو عنه زياراته لكنه ظل يترك على بوابة المستشفى كمية من السجائر دون أن يعرف فيما إذا كانت تصل إلى ماريا أم لا، حتى هزمه الواقع.

لم يعرف عنه بعد ذلك أى شىء - باستثناء أنه تزوج بأخرى وعاد لبلده. وقبل أن يترك برشلونة ترك القط وهو شبه ميت من الجوع إلى خطيبة صدفة، وقد وعدت هذه الخطيبة بأن تظل على إرسال السجائر إلى ماريا، لكنها اختفت هى أيضًا. وتتذكر "روسا ريجاس" أنها رأت فى محلات "الكورت إنجليز" هذه الخطيبة منذ حوالى اثنتى عشر عامًا وكان رأسها حليقًا، وترتدى معطفاً برتقالى اللون ينتمى إلى إحدى الطوائف الشرقية. وكانت حاملاً فى شهرها الأخير. وقد قصت عليها بأنها ظلت ترسل بالسجائر إلى ماريا طالما سمحت لها الظروف. وكانت تتدخل فى حل بعض المسائل العاجلة المتعلقة بها حتى وجدت المستشفى وقد تحول إلى أنقاض. وكأنه ذكرى سيئة لتلك الأيام الكئيبة. بدت ماريا فى نظرها وقد اكتست بالحيوية فى آخر مرة

رأتها وقد زاد وزنها بعض الشيء وسعيدة بالسلام الذى يخيم على الدير. ذهبت إليها فى ذلك اليوم وهى تحمل القط وذلك لأن المال الذى تركه لها ساتورنو من أجل إطعامه قد نفذ.

رحلة طيبة يا سيدى الرئيس

(١٩٧٩)

كـان جالسًـا على المقعـد الخشـبى تحت الأوراق الصفـراء للحديقة الخالية، يتأمل البجع الذى تعلوه طبقة من التراب، يضع كلتا يديه على قـمة العصا ذات المقـبض المستدير والمكسو بالـفضة وهو يفكر فى الموت. فـعندمـا جاء إلى جـنيف لأول مرة كـانت البحيرة هادئة ورقراقة، كما كـانت طيور النورس المستأنسة تقترب لتنقـر طعامـهـا من الأكفّ. ونساء للإيجـار كـأنهن أشبـاح فى السادسة مساء وهن يرتدين فساتين بها كرانيش مصنوعة من قماش من القطن الأبيض الشـفاف ويضـعن على رؤوسهـن قبعـات من الحرير. أمـا الآن فالمرأة الوحيدة التـى يمكن أن يراها على مرمى البصـر هى بائعة الزهور فى الميناء الصغـير الخالى من البـشر. لا يكاد يصدق ما أحدثه الزمن من خراب ودمار ليس فقط فى حياته بل فى الدنيا كلها.

كان مجرد فرد آخر من أفـراد المدينة من هؤلاء المشاهير غير المعروفين يرتدى حلة لونها كحـلى بخطوط بيضاء، أما الصديرى فكان من الديبـاج، كما كـان يضع قبعـة سميكة مـثل تلك التى يضعهـا القضاة المحالون للتـقاعد، شاربه قوى وكث، أمـا شعره فيـميل إلى الزرقة وبه تموجات رومـانسية ويداه كيـدى عارف آله

وترية، وفى بنصر اليد اليسرى، يضع خـاتم الترمل وعيناه تلمعان بالسعادة، أما الشيء الوحيد الذى لا يدل على حالته الصحية فهو ترهل الجلد، لكن رغم بلوغه الثـالثة والسبعين من العـمر كان لا يزال يتمتع بشياكة واضحة. ومع هذا ففى ذلك الصباح كان يشعر بتباعده عن كل ما يتفاخـر به المرء. فها هى أعوام المجد والجاه قد ولت ولا مناص من ذلك ولم يتبق إلا أيام انتظار الموت.

عاد إلى جنيف بعد حـربين عالميتين وذلك بحـثًا عن علاج ناجح لألم لم يستطع الأطباء فى "مارتينيكا" تحـديد ماهيته. كان من المقرر أن يمكث خمـسة عشر يومًا كـحد أقصى، لكن ها هو يقضى سبعـة أسابيع فى إجراء فحوصات مـضنية تؤدى إلى نتائج غيـر مؤكدة، ولم تبد حـتى الآن بارقة أمل فى إنهائهـا. الأطباء يتحدثون عن موطن الألم فى كل مكان، فى الكبد، وفى الكلية، وفى البنكرياس، والبـروستاتا ولم يعثـر على أثر، وظل على هذا الحال حتى ذلك الخميس الملعون حيث ضرب له واحد من الأطباء الذين يجرون له الفحـوصات- وكان أقلهم شهرة - مـوعدًا ليأتى فى التاسعة صباحًا إلى قسم الأعصاب.

المكتب يبدو كـأنه مكان لتهجـد الرهبان، والطبيب صغـير الحجم ومتجهمًا ويده اليمنى فى الجبس لكسر فى إبهامه. وعندما أطفأ النور ظهرت صورة الأشعة الخـاصة بالعمود الفقرى لكنه لم يتعرف عليـه ويدرك أن صورة الأشعة تخصه حـتى أشار الطبيب بعصا يحدد بها التحام فقرتين فى المنطقة التى توجد تحت الوسط.

- مصدر ألمك ها هنا - قال له.

لم يكن الأمر سهلاً عليه، فقد كان الألم يتنقل من مكان إلى أخر، وأحيانًا ما يبدو أن مصدره هو الأضلاع اليمنى، وأحيانًا ينظر أسفل البطن، لكنه كثيرًا ما يفاجئه بوخذة فى الحوض. سمعه الطبيب وهو صامت، لكن العصا موضوعة على الشاشة بلا حراك "ولهذا فقد بحثنا عنه فى كل مكان طوال فترة من الزمن" قال "لكننا الآن نعرف أنه هذا هو مصدر الألم" ثم وضع سبابته على الجزء العلوى من صدغه وقال:

- وبمفهوم دقيق ومحدد فكل ألم هو هنا يا سيدى الرئيس.

كان أسلوبه التشخيصى دراميًا للغاية لدرجة أن ما قاله بدا رحيمًا: فالرئيس لابد أن يجرى عملية جراحية خطيرة لا مناص منها، فسأل الطبيب عن حجم المخاطرة، فما كان من الطبيب العجوز إلا أن أغرقه بضوء القلق.

- لا يمكننا أن نحدده بوضوح - قال له.

وحتى وقت قريب، أوضح، كانت مخاطر وقوع مضاعفات جسيمة كبيرة، وخاصة إمكانية حدوث شلل بدرجات مختلفة. لكن التقدم العلمى فى الطب الناجم عن الحربين أدى إلى أن تكون هذه المخاوف تاريخًا مضى.

- كن هادئًا - استنتج - استعد للأمر، وأبلغنا، لكن لا تنس أنه كلما عجلت كان ذلك مناسبًا.

لم يكن صباحًا جيدًا حتى يهضم هذا الخبر السيئ وخاصة فى التقلبات الجوية، خرج مبكرًا من الفندق ولم يرتد المعطف، ذلك أنه رأى الشمس ساطعة من النافذة ثم ذهب بخطواته المعدودة ابتداء من "شيمين دى بوسولى" حيث المستشفى، متجهًا إلى المكان الذى يلجأ إليه العشاق فى الخفاء فى "الحديقة الإنجليزية"، أمضى فى هذا المكان أكثر من ساعة وهو يفكر فى الموت عندما بدأ الخريف. هاجت البحيرة كأنها المحيط وهبت رياح من كل مكان فأفزعت طيور النورس وأطاحت بما بقى من أوراق الشجر، نهض الرئيس وبدلاً من أن يشترى بعض الورود من البائعة قام بقطف زهرة الأقحوان من الأصص العامة ووضعها فى فتحة الزرار الموجودة فى ياقة الجاكتة. فاجأته بائعة الزهور:

- هذه الزهور ليست مشاعاً يا سيدى - قالت له وهى غاضبة - إنها ملك البلدية.

لم يولها اهتمامًا وأخذ يبتعد عنها بخطوات سريعة وهو يمسك عصاه من منتصفها وأحيانًا ما يطوحها فى الهواء بلا إيقاع ثابت. وعلى كوبرى "مونت بلانك" كانوا يسارعون بإنزال الرايات الخاصة "بالاتحاد الكونفدرالى" وقد كانت تهتز بشدة من

أثر الرياح. أما النافورة الملساء والمليئة بالرغوة فقد أطفئت قبل الوقت المحدد لها. ولم يتعرف الرئيس على الكافيتريا التى تعود عليها والكائنة على الميناء ذلك أنهم قاموا بدفع القماش الأخضر للمظلة، كما أغلقوا الشرفات المزدهرة. أما فى الصالون فقد أضيئت الأنوار رغم أننا في وضح النهار، كما أن الرباعية الوترية كانت تعزف موزار محذراً. مد الرئيس يده على اللوحة الخشبية الحاملة وأخذ صحيفة من المكان المخصص للزبائن، ثم قام بتعليق القبعة والعصا على الشماعة المخصصة ووضع نظارة القراءة ذات الشنبر الذهبى وجلس إلى المائدة الأكثر انعزالاً. وعندئذ أدرك فى هذه اللحظة مجيء الخريف. أخذ يتصفح الجرنان بادئًا بالصفحات المخصصة للأخبار العالمية، وقلما كان يجد أخباراً عن أمريكا اللاتينية، وواصل قراءته للصحيفة على عكس الترتيب المعتاد، وظل على هذا الحال حتى جاءت إليه النادلة وهى تحمل له زجاجته اليومية من المياه ماركة "إيفيان". كان قد أقلع عن عادته بتناول القهوة منذ ثلاثين عامًا وذلك بناء على تعليمات الأطباء، غير أنه قال: "إذا ما تأكدت من أننى سأموت بعد وقت محدد، فإننى سأعود إلى تناول القهوة"، وربما حانت هذه الساعة.

- أحضرى لى فنجان قهوة - قال هذه العبارة بلغة فرنسية سليمة ثم أكد : على الطريقة الإيطالية وكأنها قهوة لإحياء ميت - قالها دون أن يأخذ فى اعتباره ما تحمله العبارة من تورية.

تناول قهوته السادة، رويداً رويداً. وبعد ذلك قلب الفنجان فوق الطبق حتى تقوم رواسب القهوة بعد أعوام وأعوام بكتابة حظه فى المستقبل. هذا المذاق الذى استعاده أخرجه ولو للحظة من أفكاره السوداوية. وبعد ذلك بلحظة، وكأنها جزء من التكهن بالمستقبل، شعر بأن أحداً يتطلع إليه. وعندئذ قلب الصفحة فى حركة عفوية ونظر من فوق عدسات القراءة فرأى الرجل الشاحب وغير حليق الذقن وهو يضع قبعة رياضية ويرتدى جاكتة فروشاه متموجة، وفى هذه اللحظة أبعد ذلك الرجل ناظريه حتى لا تلتقى بعينيه.

كان وجهًا مألوفًا، فقد رآه بشكل عابر فى ممرات المستشفى ثم عاد ورآه فى يوم من الأيام السابقة وهو يركب دراجة بخارية صغيرة فى شارع "برومنياد دى لاك" بينما كان هو يتأمل البجع. لكنه لم يشعر أبداً أن أحداً تعرف عليه. إلا أنه لم يستبعد أن ما يحدث ليس إلا واحدة من الأوهام الكثيرة الخاصة بالملاحقات فى المنفى.

انتهى من قراءة الصحيفة دون عجلة من أمره وهو غارق فى المعزوفات "التشيلو" الرائعة لبراهامز إلى أن تغلب صوت الألم على المسكن الموسيقى، فتناول القرصين المسكنين وهى جرعة منتصف النهار واستخدم فى ذلك آخر جرعة ماء كانت أمامه. وقبل أن يخلع نظارة القراءة ألقى نظرة على الفنجان ليقرأ طالعه فشعر برعشة باردة : إذ كان الأمر مثيراً للحيرة.

وأخيراً دفـع الحساب ومعه بـقشيشـًا ضئيلاً ثم أخـذ عصاه وقبعـته من الشماعة وخـرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يتطلع إليه: ابتـعد عن المكان بخطوات فيها تبـختر ماراً بأصص الزهور التى حطمـتهـا الرياح وظن أنه تحرر من القـيود. لكنه سرعان مـا شعر بخطوات وراءه، فتوقف عـند الناصية ونظر إلى الخلف. فمـا كان على الرجل الذى يتـابعه إلا التوقف فـجأة حتى لا يصطدم به ونظر إليه بدهشة وهو على بعد ضئيل جداً عن عينيه.

- سيدى الرئيس - قال بصوت خفيض.

- قل لمن يدفـعون لك ألا تأخـذهم الآمال بعـيداً - قالـها الرئيس دون أن يطرأ أى تغيـر على ابتسامتـه أو صوته - أنا أتمتع بصحة جيدة.

- لا أحد يعرف هذا أفـضل منى - قالها الرجل وقـد شعر بالحرج أمـام هذا الشعـور بالجدارة التى أمـامه - إننى أعـمل فى المستشفى.

كانت النغمـة والعبارة والاستحيـاء تدل على أنه من أعماق منطقة الكاريبى.

- لن تقول لى أنك طبيب - قال له الرئيس.

- كم كنت أود ذلك يا سـيـدى - قال الرجل - أنا سـائق سيارة إسعاف.

- أنا متأسف - قال الرئيس وهو على قناعة بخطئه - إنه عمل شاق.

- ليس بنفس درجة العمل الذى تقوم به يا سيدى.

نظر إليه بلا تحفظ واتكأ على عصاه بكلتا يديه وسأله باهتمام حقيقى"

-من أين أنت؟

- من الكاريبى

- هذا ما تصورته - قال الرئيس - لكن من أى البلاد أنت.

-من نفس بلدك يا سيدى - قال الرجل ومد يده مصافحًا
- أنا أدعى هوميرو ربى

قاطعه الرئيس وهو يشعر بالمفاجأة ودون أن يسحب يده من يد الرجل.

- عجبًا - قال له - يا له من اسم طيب.

خف التوتر عن هوميرو.

- وهناك ما هو أكثر من ذلك أن اسمى بالكامل هو "هوميرو ربى دى لاكاسا"

هاجمتهما زوبعة شتوية فجأة وهما فى وسط الشارع. فشعر الرئيس بقشعريرة تسرى فى جسده وتصل إلى العظام وأدرك أنه لا يمكنه مواصلة السير دون معطف، هذه المسافة القصيرة حتى المطعم الفقير حيث اعتاد تناول طعامه.

- هل تناولت طعام الغذاء؟ سأل هوميرو.

- أنا لا أتناول طعام الغذاء أبدًا، قال هوميرو - إننى أتناول وجبة واحدة فى منزلى فى المساء.

- حاول أن تجعل هناك استثناء - قالها له بكل ما أوتى من عذوبة القول - أدعوك لتناول الغذاء.

أخذه فى ذراعه وقاده إلى المطعم الكائن فى الناحية المقابلة "اسم المطعم مطبوع باللون الذهبى على السحابة القماشية : "لوبوف كورنييه" المطعم ضيق ودافئ، ولأول وهلة بدا أنه لا توجد أماكن خالية، شعر هوميرو ربى بالمفاجأة وهو أن أحدًا لا يعرف الرئيس وواصل حتى نهاية المطعم طلبًا للعون.

- هل الرئيس لا زال يمارس مهام منصبه؟ سأله صاحب المطعم.

- لا - قال هوميرو - لقد أُقصى من منصبه.

فكانت ابتسامة الموافقة من صاحب المطعم.

- لمثل هؤلاء هناك مائدة خاصة.

قادهما إلى مكان منعزل فى آخـر الصالون حيث يمكن لها الدردشة بحرية، وشكر له الرئيس ذلك.

- هم نادرون هؤلاء الذين يعـتـرفـون بجـدارة من هم فى المنفى مثلما فعلت.

كان المطعم متـخصصًا فى طبق معـين وهو لحم ضلع الثور المشوى على الفحم، نظـر الرئيس ومدعوه حولهمـا فشاهدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمقدمة للزبائن على الموائد المجاورة. . "إنه طبق رائع" هـمـهم الـرئيس، لكننى ممنـوع من تناول مـثل هذا الطعام، ألقى نظرة ماكرة ومداعبـة على هوميرو، وغير من لهجة الحديث.

- فى الحقيقة لقد منعت من كل شىء.

- أيضًا ممـنوع عليك تناول القهـوة - قال هومـيرو - ومع ذلك تتناولها.

- هل لاحظت ذلك؟ قال الرئيس - لكن كان هذا استثناء فى يوم خاص.

فـالاستـثناء الذى حدث ذلك اليـوم لم يكن فى موضـوع القهوة فقط، بل طلب الرئيس طبق لحم الثور المشوى على الفحم

وسلاطة بقوليات طازجة دون أى متبلات اللهم إلا بعضًا من زيت الزيتــون. وطلب المدعو نفس الشيء وأضــاف إليه نصف لتــر من النبيــذ الأحمر. وبينما همــا فى انتظار الطعام أخرج هومــيرو من جيب ســترته حــافظة أوراق ليس بها نــقود وإنما مليــئة بالأوراق، وأبرز للرئيس صــورة ذهبــت ألوانهــا، لقــد تعــرف الرئيس على صورته حيث كان يرتدى قميصًا، وكان وزنه أقل، كما كان شعره وشاربه فاحمى السواد، يقف وسط مجــموعة من الشبان تصارعوا على الظهور فى الصورة. تعرف على المكان من أول نظرة وتعرف أيضًا على الشعــارات الخاصة بحملة انتخابيــة مملة، وكذلك تذكر التــاريخ المقــيت لهــا " يا للهول! " هــمهم، لقــد قلت دومًــا إن الإنسان يعتريه التقــدم فى السن فى الصورة أكثر منها فى الواقع. وأعاد إليه الصورة بإيماءة تشير إلى النهاية.

- إننى أتذكر ذلك جــيدًا - قال - كــانت هذه الصورة فى مباراة مصارعة الديكة ببلدة "ســان كريستوبال دى لاس كاساس" منذ آلاف السنين.

- إنها قريتى - قال هوميرو وأشــار لنفسه كواحد من الذين فى الصورة - هنا هو أنا.

تعرف عليه الرئيس.

- كنت صغير السن!

- نعم - قال هومـيرو - لقد رافقت سيـادتك طوال الحملة الانتخابية فى الجنوب بصفتى زعيم اللجان الطلابية.

حاول الرئيس أن يسبق التأنيب.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيدًا فيك - قال.

- على العكس من ذلـك كنت لطيـفًا مـعنا جـدًا - قـال هوميرو - لكن كان عددنا كثيراً لدرجة يصعب على المرء تذكر كل هؤلاء.

- وبعد ذلك؟

- من يعرف هذا أكثر منك يا سيدى - قال هوميرو - فبعد الانقـلاب العسكرى أجـد أنه من المعـجزات أن يكون كـلانا هنا ونحن على وشـك تناول نصف ثور. هناك الكـثـيـرون الذين لم يحالفهم نفس الحظ.

وفى هذه اللحظة قُـدمت لهم الأطباق. قـام الرئيس بوضع الفـوطة على رقبـتـه كأنهـا فـوطة لطفل، ولم يكن غـير مـعنى بالصمت المفـاجئ الذى حدث لمدعوه. "إذا لم أفـعل هذا سوف أخسـر رابطة عنق فى كل وجـبة أتناولهـا" قال - وقبـل أن يبدأ تذوق درجة الشواء وأعلن موافقته بإشارة تعبر عن تلذذه. ثم عاد لنفس الموضوع.

- الأمر الذى لا أفهمه - قال - هو لماذا لم تقترب منى قبل ذلك بدلاً من السير ورائى بهذا الشكل؟

عند ذلك قص عليه هوميرو أنه تعرف عليه منذ أن رآه وهو يدخل المستشفى عبر باب مخصص للحالات الشديدة الخصوصية. كان الوقت صيفًا وكان يرتدى حلة كاملة من كتان الكاريبى الأبيض ويلبس حذاءً ذا لونين - الأبيض والأسود - وزهرة البنفسج الحمراء فى فتحة الزرار على صدر الجاكتة والشعر الجميل يداعبه الهواء. تأكد هوميرو من أنه وحده فى جنيف ولا يساعده أحد، فقد كان يعرف بذاكرته المدينة التى درس فيها القانون. وبناء على طلبه اتخذت المستشفى الإجراءات الداخلية الأمنية للمحافظة على سرية الموضوع بشكل مطلق. وفى نفس تلك الليلة كان هوميرو قد اتفق مع زوجته لإجراء اتصال معه. ومع ذلك فقد ظل يتابعه لخمسة أسابيع متوالية محاولاً البحث عن الفرصة السانحة وربما لم يكن ليتمكن من تحيته لو لم يواجهه الرئيس.

- أنا سعيد بما فعلته - قال الرئيس - رغم أنه لا ينتابنى أى ضيق لأننى وحدى هنا.

- ليس من العدل.

- لماذا؟ - سأل الرئيس بصراحة - إن أكبر نصر فى حياتى هو أننى تمكنت من جعلهم ينسونى.

- إننا نذكرك يا سيدى أكثـر مما تتصور - قال هوميرو دون أن يخـفى تأثره - إنه لمصدر سـعـادة لى أن أراك معـافى ومليئًـا بالحيوية.

- ومع ذلك - قال دون درامية - فكل شىء يشير إلى أننى سأموت قريبًا.

- إن احتمالات نجاح العملية عالية - قال هوميرو.

صدرت عن الرئيس قفزة مفاجأة لكن لم يفقد خفة روحه.

- عجبًا ! - صاح مستـغرباً- هل لم تعد هناك أسرار طبية فى سويسرا الجميلة؟

- لا توجد أسرار تـخفى على سائق سيـارة إسعاف فى أى مستشفى فى العالم - قال هوميرو.

- إن ما أعرفه عن حالتى لم يمـض عليه إلا ساعتين ومن خلال الرجل الوحيد الذى يجب أن يعرف السر.

- على أى الأحـوال لن تموت سيـادتك بلا جدوى - قـال هوميـرو - فسوف يقـوم أحد ما بوضع سيـادتك فى المكانة التى تليق وهى النموذج الحى للجدارة.

أظهر الرئيس نوعًا من الاستغراب الكوميدى.

- شكرًا لتحذيرك - قال.

كان يأكل بنفس الطريقة التى يؤدى بها كافة أنشطته: ببطء ودقة، وفى نفس الوقت كان ينظر إلى هوميرو محدقًا فى عينيه حتى إن هذا الأخير واتاه إحساس بأن الرئيس يرى ما يفكر فيه، وبعد جدال طويل وتطرق للأيام الخوالى ابتسم ابتسامه فيها دهاء.

-لقد قررت ألا أقلق على جثتى - قال - لكننى أرى الآن أن على اتخاذ بعض التدابير علىّ طريقة القصص البوليسية حتى لا يجد الجثة أحد.

- سيكون ذلك غير مجد - قال هوميرو بفكاهة - الألغاز فى المستشفى لا تستمر أكثر من ساعة.

عندما انتهيا من تناول القهوة قام الرئيس بقراءة قاع الفنجان وعادت له القشعريرة: إذ كانت نفس الرسالة السابقة. ومع ذلك لم يطرأ أى تغيير على تعبيرات وجهه. دفع الحساب نقداً لكنه قام بالتأكد من صحة المبلغ أكثر من مرة وباهتمام زائد عن الحد، وترك بقشيشًا كان ژدل النادل عليها هو الغمغمة.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال.

- سررت بمعرفتك - قال الرئيس وهو يودع هوميرو - ليس هناك تاريخ لإجراء العملية كما أننى لم أقرر بعد إجراءها أم لا. لكن إذا ما كانت الأمور مواتية فسوف نلتقى من جديد.

- ولماذا لا يكون قبل ذلك؟ قال هوميرو - إن زوجتى "لاثارا" طباخة الأغنياء، فلا أحد مثلها يستطيع إعداد طبق الأرز

بالجمبرى ويطيب لنا أن ندعوك إلى المنزل فى إحدى الليالى القادمة.

- إن الرخويات ممنوعة بالنسبة لى لكنى سآكل ذلك الطبق بكل سرور - قال - قل لى متى؟

- إن يوم الخميس هو اليوم الذى لا أعمل فيه - قال هوميرو.

- تمام - قال الرئيس - إذن يوم الخميس فى السابعة مساء سوف أكون فى منزلك، وسوف يكون هذا مصدر سعادتى.

- سوف أمر لآخذك يا سيدى - قال هوميرو - العنوان هو فندق "دام" ١٤ شارع إندوستريا - خلف المحطة - هل هذا صحيح؟

- نعم - قال الرئيس ونهض وهو يشعر بمرض عن أى وقت مضى - على ما يبدو تعرف كل شىء حتى مقاس حذائى.

- نعم يا سيدى - قال هوميرو بمرح - المقاس هو ٤١

* * *

إن ما لم يقم هوميرو ربى بسرده على الرئيس، لكنه ظل يقصه طوال أعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع إليه هو أن هدفه الأول لم يكن بريئًا للغاية، فهو مثل غيره من سائقى سيارات الإسعاف له اتصالاته مع شركات التجهيزات الجنائزية وشركات

التأمـين لبيع بعض الخـدمات داخل المسـتشفى وخـاصة بالنسـبة للمرضى الأجانب من ذوى المـوارد الضئيلة. كانت مبـالغ ضئيلة وفوق ذلك كان عليه أن يقوم بتوزيعها بين بعض الموظفين وخاصة هؤلاء الذين يتولون التقارير السرية بشأن المرضى من ذوى الحالات الحرجة. لكنه مبلغ يعتبر عزاء لطريد لا مستقبل له ويحاول العيش ما أمكنه هو وزوجته وطفليه بمرتب بسيط جداً.

كانت لاثارا دافيس - زوجته - أكثـر واقعية إذ كانت مولدة من سان خوان فى بويرتوريكـو. قصيرة وممتلئة لون بشـرتها مثل لون الكرملة فى حالة ترسب. لها عينا كلبة جـريئة، كانتا تتسقان اتساقـًـا طيبًا مع طبـيعتـها. تعرفت على زوجـها فى قسم خـدمة المرضى المعوزين فى المسـتشفى حيث كـانت تعمل كمسـاعدة فى الشئـون العامة وذلك بعـد أن أتى بها أحد أصحـاب الأموال من بلادها للعمل كمربيـة وبعد ذلك تركها رهن الظروف فى جنيف، تزوجا على الطريقة الكاثوليكية، ورغم أنها كانت أميرة فى بلدها كانا يعـيشان فـى منزل مكون من صالة وحجـرتى نوم فى الطابق الثامن وهو مبنى مـخصص للمهاجرين الأفارقة لـيس به مصعد، لها ابنة تبلغ التـاسعة من العمـر اسمها باربارا وطفل فى السـابعة يدعى "لاثارو، تظهر عليه الأعراض الطفيفة للتخلف العقلى.

لاثارا دافـيس امرأة ذكـية، سـيئـة الطبع لكنهـا ذات قلب طيب. كانت تعتبر نفسهـا المثال الصادق لمواليد برج الثور. إيمانها

مطلق بالتنبؤات. ومع ذلك لم تحقق حلمها بكسب لقمة العيش من خلال عملها كقارئة للطالع لأصحاب الملايين، ورغم هذا تسهم فى ميزانية المنزل ببعض الأموال التى تأتيها عرضًا، وأحيانًا ما تكون مبالغ جيدة. كان ذلك من خلال إعدادها موائد العشاء لبعض السيدات الغنيات اللائى يتباهين أمام المدعوين متظاهرات بأنهن أعددن هذه الأطباق الخاصة بمنطقة الكاريبى، أما هوميرو فهو إنسان خجول للغاية ولم يستطع أن يفعل أكثر مما يقدمه، إلا أن زوجته لم تتصور الحياة بدونه، وذلك لطهارة قلبه وذكورته - سارت أحوالهما فى البداية بشكل جيد، لكن بدأت تسوء الأمور شيئًا فشيئًا بينما الأطفال فى نمو مستمر. وبالتالى فإن هوميرو عندما اكتشف وجود الرئيس بين المرضى المهمين فى المستشفى أخذت تحدوه آمال تتجاوز المعقول.

لم يتأكدا تمامًا مما سيطلبانه منه، وبأى حق سيفعلان ذلك. فكرا فى البداية أن يبيعا له إتمام إجراءات الجنازة بالكامل بما فى ذلك التحنيط وإعادة الجثة إلى الوطن. لكنهما أخذا يعيان شيئًا فشيئًا بأن الموت لا يبدو وشيكًا مثلما تصورا فى البداية. كان الشك يأكلهما من الداخل يوم تناول طعام الغداء.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن أبدًا زعيمًا للألوية الجامعية، أو أى شىء من هذا القبيل، وفى المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية كانت لحظة التقاط الصورة، التى عثر عليها فيما يشبه المعجزة وسط الملابس. والشىء الحقيقى الوحيد كان حماسه

لدرجة أجبر معها على الفرار من البلاد لمشاركته في المقاومة الجماهيرية للانقلاب العسكري، إلا أن السبب الوحيد الذي جعله يواصل العيش في جنيف بعد مرور أعوام طويلة هو فقره الروحي. وعلى ذلك فإذا ما كذب كذبة أخرى لن تتغير الأمور، فالهدف هو الفوز بكرم الرئيس.

كانت أول مفاجأة لكليهما هو أن الطريد الشهير يعيش في فندق من الدرجة الرابعة في الحي الفقير "لاجروت" محاطًا بالمهاجرين الآسيويين وفتيات الليل. وكان يأكل وحده في مطاعم الفقراء في الوقت الذي نجد فيه جنيف مليئة بالمساكن الفخمة التي تليق بالسياسيين المتقاعدين. شاهده هوميرو وهو يكرر ما فعله ذلك اليوم خلال الأيام السابقة. فقد رافقه ببصره وأحيانًا ما كان قريبًا منه بدرجة تزيد عن التصرف الحكيم سواء في نزهاته الليلية بين الحيطان الكئيبة وأصص النباتات الصفراء اللون في المدينة العتيقة. رآه وهو مستغرق في التفكير أمام تمثال "كالفينو"، وصعد خلفه، خطوة بخطوة، ذلك السلم الحجري الذي تملؤه رائحة الياسمين الخانقة، وذلك ليتأمل لحظات الغروب البطيئة من على قمة "بورج لوفور" رآه ذات ليلة وهو تحت أول قطرات المطر دون معطف وشمسية تقيه ضمن طابور من الطلاب ليشاهد حفلاً موسيقيًا "لروبينتين" "لست أدري كيف لم يصب بالبرد" قال هذه العبارة لزوجته. وعندما بدأت أحوال الطقس تتغير يوم

السبت الماضى رآه وهو يشترى معطفًا له رقبة من جلد "الفيزون" الصناعى ولم يشتر المعطف من المحلات ذات فترينات العرض الكائنة فى شارع/ رون حيث المكان المعتاد الذى يقوم الأمراء الهاربون بشراء احتياجاتهم منه، بل اشتراه من "سوق لاس بولجاس".

-إذن ليس هناك ما يمكن عمله - قالت لاثارا متعجبة عندما قص عليها هوميرو ذلك - إنه بخيل بخلاً رهيبًا وهو قادر على قبول دفنه فى مقبرة خيرية جماعية. ولن نخرج منه بشىء.

- ربما كان فقيرًا بالفعل - قال هوميرو - بعد أن قضى أعوامًا طويلة دون عمل.

- آه، أيها الأسود، هناك فرق بين أن تكون من برج الحوت الأصيل وبين أن تكون جبانًا - قالت لاثارا - فكل الناس يعرفون أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه الطريد الأكثر غنى فى مارتينيكا.

كان هوميرو الذى يكبر زوجته بعشرة أعوام قد ترعرع وهو يعيش تحت تأثير المقولة التى تتحدث عن أن الرئيس درس فى جنيف وكان أثناء الدراسة عامل بناء، أما لاثارا فقد تربت على الفضائح التى تنشرها الصحافة المعادية والتى تضخم منها الحوارات فى منازل الأسر التى تنتهج سياسة معادية له. وكانت على هذا

الحال منذ نعومة أظافرها، تقوم بتربية الأطفال، لذلك فإن هوميرو عندما جاء متهللاً لتناول طعـام الغداء مع الرئيس لم تقتنع زوجته بأنه تناول الغـداء فى مطعم مـرتفع المستـوى. فـقد ضـايقهـا أن هومـيرو لم يطلب مـن الرئيس شيـئًا مما كـان يحلم هو به مـثل الحصول على منحة دراسية لولديه، أو الحصول على وظيفة أفضل فى المستشفى. وبدا فى نظرها أن مـا حدث إنما يؤكد شكوكها فى أن الرئيس يفـضل أن يلقـوا بجـثتـه إلى النســور بدلاً من إنفـاق الفرنكـات على إجراءات جنائزية لائقـة وعودة كريـمة إلى أرض الوطن. وما زاد الطين بله هو الخبر الذى فـضل هوميرو أن يطرقه فى النهاية والمتمثل فى دعوته للرئيس لتـناول الأرز بالجمبرى مساء الخميس فى المنزل.

- هذا ما كان ينقصنا- صاحت لاثارا - وهو أن يموت هنا بالتسمم من جراء تناوله الجمبرى المحفوظ ويكون من المحتم علينا أن ندفنه وندفع فى سبيل هذا مدخرات الأطفال.

كـان وفـاؤها كزوجـة هو العنصـر الأسـاسى الذى حـسم الموقف، فـقد طلبت من إحـدى جـاراتها ثلاثة أطقم مـائدة من المعدن المطلى، وطبـقًا للسلطة مصنوعًـا من الزجاج. وطلبت من جارة أخـرى ماكينة القـهوة الكهربائيـة، ومن ثالثة مفـرشًا مطرزًا وطقم صينى لتناول القـهوة، كمـا قامت بتغيـير الستائر القـديمة ووضـعت الجـديدة مـكانهـا، وانتـزعت الكسـوة مـن على قطع

الأثاث، وأمضت يومًا كاملاً وهى تنظف البلاد وتزيل الأتربة وتغير أماكن محتويات المنزل، ووصل بها الأمر إلى نتائج عكسية إذ كان من الأولى بها إثارة استعطاف الضيف بديكور الفقر.

وفى مساء الخميس صعد الرئيس الأدوار الثمانية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلى الباب وهو يرتدى المعطف الجديد القديم والقبعة ذات اللون المائل للخضرة التى تنسب إلى أزمنة مضت، يحمل فى يده زهرة واحدة ليقدمها إلى لاثارا. تأثرت هى كثيراً بوسامته كرجل وتصرفاته كأمير، أضف إلى ما سبق أنها رأته على نفس الحال الذى تصورته، أى مزيفًا وانتهازيًا. بدا لها قليل الحياء، فقد كانت تطهو الطعام فى المطبخ والنوافذ مفتوحة حتى لا يملأ بخار طهى الجمبرى جو المنزل، وكان أول شىء فعله عند الدخول هو أن أخذ شهيقًا عميقًا وكأنه فى حالة انتعاش مفاجئة وصاح متعجبًا وهو مغمض العينين ويفرد ذراعيه: "آه، إنها رائحة بحرنا" بدا لها أكثر بخلاً مما تصورت ذلك أنه أتى لها بوردة واحدة سرقها - بلا شك - من الحدائق العامة. وبدا لها أنه سليط وذلك لنظرته التى تحمل معنى الاحتقار لقصاصات الصحف التى تتحدث عن مآثره عندما كان رئيسًا وكذا رموز وأعلام الحملة الانتخابية التى قام هوميرو بتثبيتها على حوائط المنزل بروح تعكس طيبة القلب. بدا لها أنه غليظ القلب فهو لم يقم بتحية لاثارو أو أخته بربارا رغم أنهما قاما بشراء هدية له، كما أنه أثناء تناول

طعام العشاء تحدث فى موضـوعين لا يمكن لها تحملها: الكلاب والأطفال . كرهته، ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة أهل الكاريبى فى إظهـار الاحتـرام والود، وها هى قد لبـست الحذاء الأفـريقى المعتاد فى ليالى الفرح، كـما لبست الأساور والأطواق التى تحمل صور القديسين، ولـم تفـعل أو تتلفظ بكلمة واحدة تزيد عن الحد طوال العشـاء، كانت فى وضع لا تلام فيـه على شىء: تصرفت تصرفًا سليمًا.

والواقع أن طبق الأرز بالجـمـبـرى ليس من الأطبـاق التى تحسن إعـدادها، لكنها أعدته بكل مـا تملك من استعـداد، وكان طبقًـا جيـدًا جدًا، فلقـد تناول الرئيس أكثـر من طبق، وبالغ فى الإطراء على الطعـام وأعجبـته شـرائح الموز المقلية وكـذا سلاطة الأفوكاتو. إلا أنه لـم يتفق معها فى الحـديث عن الأيام الخوالى. تحملت لاثارا الاستماع لحديثه حتى حان موعد تقديم الحلو وذلك عندمـا دخل هوميـرو فى حـارة مسـدودة - دون أن يكون هناك مبرر- تتعلق بوجود الله.

- نعم أنا أؤمن باله - قال الرئيس - لكن هذا ليس له صلة بالبشر- فدائرة اهتمامه أكبر من ذلك.

-أنا أؤمن فقط بالفلك - قـالت لاثارا وحاولت جس نبض رد فعل الرئيس - فى أى يوم ولدت سيادتك؟

- الحادى عشر من شهر مارس.

- لابد أن يكون ذلك اليوم - قالت لاثارا بقفزة فيها انتصار وسألت بتؤدة- ألن يكون هناك تجاوز عندما يجلس اثنان من برج الحوت على نفس المائدة؟

ظل الرجال يتحدثون عن الله عندما دخلت المطبخ لتعد القهوة، قامت برفع أوانى الطعام وكانت شديدة الأمل فى أن تنتهى الليلة على خير، وعندما عادت إلى الصالة وهى تحمل القهوة سمعت عبارة نطق بها الرئيس جعلتها تشعر بالحيرة.

- لا يخالجك شك فى هذا يا صديقى العزيز: إن أسوء شيء كان يمكن أن تمر به بلادنا هو أن أكونُ أنا رئيسًا.

. رأى هوميرو لاثارا وهى على الباب تحمل فناجين الصينى وماكينة القهوة التى استعارتها من الجيران، فظن أنها على وشك السقوط لفقدانها التوازن. كما حدث فيها الرئيس أيضًا "لا تنظرى إلىّ بهذا الشكل يا سيدتى" قال العبارة بنغمة مرحة "إننى أتحدث من قلبى" ثم توجه إلى هوميرو قائلاً:

- الحمد لله أننى أدفع سعرًا عاليًا لتهورى.

قامت لاثارا بصب القهوة وأطفأت اللمبة المضاءة فى وسط المائدة ذلك أنها كانت تشكل عائقًا بضوئها لمواصلة الحوار، فاكتست الصالة بضوء ضعيف حميم. ولأول مرة تبدى اهتمامها بالضيف الذى لم تغط خفة روحه على حزنه. فزاد فضول لاثارا

عندما انـتهى من تناول القـهوة وقلب الفنجـان فوق الطبق ليـقرأ طالعه.

قص الرئيس عليـها بعـد تناول العـشاء أنه اخـتار جـزيرة مارتينكا لتكون ملاذًا له وذلك لصداقته للشاعر/حاييم قيصر الذى نشر مؤخـرًا "كراسة العودة إلى مسـقط الرأس" وساعده على أن يبدأ حياة جـديدة، ثم قام هو وزوجته باستخـدام ما بقى لهـما من مال ورثته زوجته واشتريا منزلاً مـصنوعًا من الأخشاب الجيدة فى تلال "فورت دى فرانس" تغطى نوافـذه شباك معدنيـة وله شرفة تطل على البحر وقد امتلأت بالزهور البرية حيث كان النوم وسط صوت الحـشرات الليليـة والنسمـة المحملة برائحة الـعسل والرون المصنوع من قصب الـسكر الذى يبيعـه الجائلون نوعًا من المتـعة. وظل هناك هو وزوجته التى تكبره بأربعة عـشر عامًا والتى أخذت تعانى من المـرض منذ ولادتها الوحيـدة. وقد تحـصن ضد الزمن بقراءة شـغوفة ومتكررة للكـلاسيكيين من اللاتين باللغـة اللاتينية وكان على قناعـة بأن ما يفعلـه هو آخر مرحلة فى حـياته، وظل لأعوام طويلة يقـاوم الإغراءات فى القيام بمغامـرات يوحى له بها زملاؤه المهزومون.

- لكنـى لم أفض أى رسـالة - قـال - وذلك بعـد أن اكتـشفت أن أكثر الـرسائل استعـجالاً كانت لا تسـتحق ذلك فى الحقيـقة - بعد مرور أسـبوع وأنه بعد مرور شهـرين لم يعد ذلك الذى أرسلها يتذكر فحواها أو أنه حررها.

نظر إلى لاثارا وهى تشعل سيجارتها وسحبها بسرعة من بين أصابعها وأخذها ثم حبس الدخان فى حلقه. شعرت لاثارا بالمفاجأة فأخذت العلبة والكبريت لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها، "دخنى سيادتك بكل راحة، الأمر هو أننى لم أستطع المقاومة" قال لها، لكن سرعان ما أخرج الدخان من فمه فقد كان على وشك التعرض للكحة.

- لقد أقلعت عن هذه العادة منذ سنوات عديدة، لكنها لم تقلع عنى بالكامل - قال - فقد استطاعت هزيمتى فى بعض الأحيان، مثلما هو الحال الآن.

هاجمته الكحة مرتين. ها هو الألم قد عاد، نظر الرئيس فى ساعة الجيب وتناول القرصين ثم نظر إلى قاع الفنجان: لم تتغير الأمور، لكنه لم يشعر هذه المرة بالقشعريرة.

- هناك بعض من أنصارى تولوا الرئاسة من بعدى - قال.

- إنه "ساياغو" قال هوميرو.

- هو وغيره - قال الرئيس - وكلهم مثلى : قمنا باغتصاب شرف لا نستحقه بأن مارسنا مهنة ولم نكن ندرى ماذا نفعل فيها. فهناك البعض الذين يريدون السلطة لكن أغلبهم يبحثون عما هو أقل من ذلك وهو الوظيفة.

شعرت لاثارا بالغيظ.

- هل تعرف سيادتك ما يقولونه عنك؟ سألته.

شعر هوميرو بالحرج فتدخل

- إنها أكاذيب.

- هى أكاذيب وليست كذلك - قال الرئيس بهدوء سماوى
- فإذا ما كان الموضوع هو الرئيس فإن أسوأ شىء يمكن أن يتمثل فى اجتماع النقيضين: الكذب والصدق.

كان قد عاش فى مارتينيكا كل أيام المنفى ولم يكن له أى صلة بالعالم الخارجى إلا من خلال الصحيفة المحلية الرسمية، وأخذ يعيش من عائد مادى يحصل عليه من دروس بالأسبانية واللاتينية فى مدرسة رسمية، وكذلك من خلال الترجمات التى كان يكلفه بها حاييم قيصر.

الحر لا يحتمل فى أغسطس، يظل فى السرير حتى منتصف النهار وهو يقرأ تحت المروحة الكائنة فى غرفة النوم. أما زوجته فكانت تعنى بالعصافير التى كانت تربيها وهى طليقة. ورغم ذلك فعندما تشتد وطأة الحر تحمى نفسها باستخدام قبعة من القش ذات أجناب عريضة تزينها الفواكه الصناعية والزهور الحمراء. وعندما تنكسر موجة الحر كان من المناسب الترويح عن النفس بالجلوس فى الشرفة. كان يحملق دائمًا فى البحر حتى يغرق فى الظلام، أما هى فكانت على سريرها المعلق المصنوع من الخيزران وتضع على رأسها قبعة مهلهلة، كما تضع الإكسسوارات فى كل

أصابعها، وتتأمل السفن المارة "هذه السـفينة ذاهبة لترسو فى ميناء بويرتوسانـتو" كانت تقـول، "وهذه الأخرى لا تستطـيع مواصلة الإبحار لثـقل حمولتـها من الغيـينيين من أهالى "بويرتوسـانتو" تقـول: الأمر أن كل السـفن التى تعـبر كـانت، فى نظرها، من بلادها. أما هو فقد كان يتصنع عدم القدرة على الاستماع، ورغم ذلك اسـتطاعت أن تنسى وتكون فى وضع أفـضل منه إذ فقـدت ذاكرتها فى النهاية.

كانا على هذا الحـال حتى مغيب الشـمس ثم يدخلان الدار وقد أصابهـما الإعياء بسبب طنين النامـوس. وأثناء ليلة من ليالى شهر أغـسطس وبينما كان يقرأ الصـحيفة فى الشرفـة قفز الرئيس قفزة استغراب.

- عجبًا - قال - لقد واتتنى المنية فى استوريل.

فزعت زوجـته للنبأ وهى جالـسة تخفف عن نفسـها وطأة الحر. ورد النبأ فى ستة سطور على الصفحة الخامسة من الصحيفة التى تطبع على الناصية المجـاورة. كما كان ينشر فيـها ترجماته. وفـوق هذا كـان رئيس تحـريرها يتـردد عليـه لزيارته بين الحـين والآخر. والآن يقول النبأ أننى توفيت فى مدينة استوريل لشبونة، المكان الذى يرتاده الطاعنون فى السن فى أوروبا للاصطياف، كما أنه لم يزر هذا المكان وربما كان المكان الوحـيد فى العالم الذى لا

يرغب أن يموت فـيه. وبالفعل تـوفيت الزوجة بعـد عام من هذا التاريخ، وكانت فى أيامـها الأخيرة تعيش حـالة هوس تتمثل فى الابن الوحيد الذى كان قد شارك فى الإطاحة بوالده وقام شركاؤه بإطلاق النار عليه بعد ذلك.

تنهد الرئيس: "هكذا نحن ولا شىء يمكن أن يغيرنا" قال "إنها قارة مليـئة بحثالة الدنيا كلها وليس فـيها لحظة حب: إنهم أبناء الاختطاف والاغتصاب والمعـاملة الدنيئة والخداع والأعداء مع الأعـداء" ثم نظر إلى عـينى لاثارا الأفريـقيـتيـن، حيث كـانت تتفحصه بلا رحمة وحاول تهدئتها بوسائله وهو العجوز المحترف.

- إن كلمـــة المهـجن تعـنى خلط الدمـــوع مع الدم الذى يجرى، فما الذى يمكن أن نأمله من هذا الكوكتيل الكريه؟

تركتـه لاثارا جامدًا فى مكانه، وذلك بصمت القـبور الذى أصبـحت عليه. لكنهـا استطاعت أن تتـحامل على نفـسهـا قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسمية. عارض الرئيس أن يقوم هوميرو بمرافـقته إلى الفندق، لكنه لم يحل دون مـساعدته له فى الحصول على تاكسى. وعندما عـاد هوميرو إلى المنزل وجد امرأته فى شدة الغيظ.

- إن هذا هو أفـضل رئيس تمت الإطاحـة به فى العـالم - قالت - إنه ابن قحبة.

ورغم ما بذله هوميرو من جهد لتهدئتها ظلا الليل بطوله دون نوم، اعترفت لاثارا أنه واحد من أجمل الرجال الذين رأتهم ولديه قدرة هائلة على المغازلة وفحولة واضحة "إذا كان هذا هو ما عليه من الشيخوخة وسوء الأحوال فلابد وأنه أسد فى السرير" قالت لكنها كانت تظن أن هذه العطايا الإلهية لن يساء استخدامها بأن تكون غطاء مظهريًا.

لم تتحمل هوسه بأنه كان أسوأ رئيس لبلده - ولم تتحمل تظاهره بالورع، بل كانت على يقين بأنه يملك نصف ما على ظهر مارتينيكا. لم تتحمل أيضًا نفاقه فى تحقيره للسلطة، وكان واضحًا عندها أنه على استعداد للتضحية بكل شيء ليعود للرئاسة ولو للحظة، وذلك حتى يجعل أعداءه يلحسون التراب.

- كل هذا - اختتمت عبارتها - من أجل أن يرانا راكعين على قدميه.

- ما الذى يمكن أن يجنيه من وراء هذا؟ قال هوميرو.

- لا شيء - قالت - كل ما فى الأمر هو أن الدلال خصلة لا ترتوى أبدًا.

كان غيظها شديدًا لدرجة أن هوميرو لم يتحملها فى السرير معه، فذهب ليقضى ما تبقى من الليل على كنبة فى الصالة وهو يلتحف البطانية. نهضت لاثارا هى أيضًا عند الفجر، وكانت عارية تمامًا كما هى عادتها فى النوم عندما تكون فى المنزل.

أخذت تتحدث مع نفسها. وفى لحظة محت من ذاكرتها ومن ذاكرة الإنسانية كل ما يتعلق بذلك العشاء غير المرغوب فيه. فأعادت الأشياء المستعارة إلى جاراتها. وغيرت الستائر الجديدة وعادت لوضع القديمة، ووضعت قطع الأثاث فى مكانها حتى أصبح المنزل على حالة الفقر والبساطة - كما كان قبل الليلة السابقة، وأخيراً انتزعت القصاصات الصحفية والصور والمرايات والرموز الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة - وألقت بكل شىء فى سلة الزبالة - وهى تصيح:

- إلى الجحيم.

بعد أسبوع من دعوة العشاء وجد هوميرو الرئيس وهو ينتظره عند مدخل المستشفى رجاه أن يرافقه إلى الفندق. صعدا الأدوار الثلاثة حتى وصلا إلى فراغ عليه قبة تفصل المبنى عن السماء الملبدة، كما يمر من تحت هذه القبة حبل غسيل عليه بعض الملابس.

كان هناك أيضًا سرير كبير يشغل نصف المساحة الخالية، وكرسيًا بسيطًا وإبريقًا لغسل الأيدى، وحوضاً صغيراً متنقلاً لغسل الأرجل، وكذلك دولابًا متواضعًا به مرآة قديمة، لاحظ الرئيس ما على وجه هوميرو من انطباع.

- إنه نفس المكان الذى عشت فيه سنوات دراستى - قال هذه العبارة وكأنه يعتذر - وقد احتفظت به منذ "فورت دى فرانس".

أخرج شنطة من القطيفة وفرش على السرير آخر ما معه من موارد: عدة أساور ذهبية مطعمة بعضها بالأحجار الثمينة، وعقداً من اللؤلؤ بثلاث أفرع، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الثمينة، وثلاثة سلاسل ذهبية معلق بها ميداليات تحمل صور القديسين، وزوج من الحلقان الذهبية المطعمة بالزمرد، وزوج آخر من الماس وثالث من الياقوت الأحمر، وقطعتان من القطع الأثرية وعلبة من المعادن الثمينة لحفظ خصلات الشعر، وإحدى عشرة قطعة حلى بها أنواع مختلفة من المعادن الثمينة. وكذا تاج من البرلنت لابد وأنه كان للملكة. وأخرج بعد ذلك عليه علبة أخرى بها ثلاثة أزواج من الأزرار المصنوعة من الفضة وزوجين آخرين من الذهب ولكل واحد منها المشبك الخاص برابطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض. وأخيراً أخرج من صندوق للأحذية النياشين الستة التى حصل عليها: اثنين من الذهب وآخر من الفضة، أما الأخرى فهى من المعادن العادية.

- هذا كل ما تبقى لى فى هذه الحياة - قال.

لم يكن أمامه مخرج آخر إلا بيع كل ما يملك من أجل سداد مصاريف العلاج، وكان يريد أن يقوم هوميرو بهذه المهمة فى سرية مطلقة، ومع ذلك شعر هوميرو بعدم قدرته على المساعدة طالما أنه لا توجد لديه الفواتير الرسمية.

شرح له الرئيس أن هذه هى متعلقات زوجته التى ورثتها عن جدتها من العصر الاستعمارى، وهذه الأخيرة كانت قد ورثت مجموعة من الأسهم فى أحد مناجم الذهب فى كولومبيا. أما الساعة والأزرار والدبابيس الخاصة برابطة العنق فهى لى. ومن المعروف أن النياشين لم تكن لأحد قبله.

- لا أعتقد أن أحدًا يمكن أن تتوفر لديه فواتير بهذا الشكل - قال.

أصر هوميرو على موقفه.

- فى هذه الحالة - قال الرئيس بتمعن - لن يكون أمامى إلا مواجهة الموقف بنفسى.

أخذ يجمع قطع الحلى بهدوء محسوب" أرجوك أن تعذرنى يا صديقى هوميرو وذلك أنه ليس هناك فقر أسوأ من الفقر الذى عليه رئيس" . قال له "لدرجة أن محاولة التغلب على مصاعب الحياة تكتنفها التنازلات" ، وفى هذه اللحظة، رق له قلب هوميرو وأسلم له قياده.

عادت لاثارا متأخرة إلى المنزل ذلك المساء، ورأت الحلى وهى تعكس ضوء حجرة الطعام، وتغيرت ملامحها كأنها رأت عقربًا فى سريرها.

- لا تكن فظًا أيهـا الأسود - قـالت مفـزوعة - لماذا توجـد هذه الأشياء هنا؟

زاد كلام هوميرو وشرحه من قلقها، وجلست لتتأمل الحلى واحدة بعد الأخـرى وكأنها أحد خبـراء هذه المصنوعات، تنهدت فى لحظة "لابد وأن المقـابل مـبلغ ضـخم" ثم أخـذت تنظر إلى هوميرو بعد ذلك وهى لم تجد بعد مخرجًا لهذا الارتباك.

- يا للمصيبة - قالت - ما الذى يمكن أن يفعله المرء حتى يتأكد من أن كل ما يقوله هذا الرجل هو الحقيقة؟

- ولم لا؟ قال هوميـرو - لقد رأيته منذ وقت قـصير وهو يغسل ملابسه ويتركها لتجف فى الحجرة مثلما نفعل نحن بتعليقها على السلك.

- لأنه بخيل - قالت لاثارا.

- أو لأنه فقير - قال هوميرو.

عادت لاثارا لتـتفرج على الحلى، لكن بدرجة اهتـمام أقل ذلك أنها كانت تشـعر بالهزيمة. وعلى ذلك فصبـاح اليوم التالى ارتدت أفضل ما لديهـا من ثياب ووضعت الحلى التى بدت أغلى شىء فى نظرها ووضعت أكثـر من خاتم فى كل واحد من أصابع يديهـا بما فى ذلك الإبهـام، وكذلك بعض الأسـاور فى كل ذراع

وذهبت لتبـيع كل ذلك. "لنرى من الذى سيطلب من لاثارا ادفيس فاتورة" قالت وهى خارجة وقد غمرتها ابتسامة فيها شموخ. اختارت محل الذهب المناسب، ظاهره الفخامة لكنه ليس شهيراً، وكانت تعرف أن عمليات البيع والشراء تتم دون أسئلة كثيرة. دخلت المحل وهى تشعر بالفزع لكنها ثابتة الخطا.

قام أحد البائعين الذين يرتدون الزى الخاص بالمحل بإيماءة مسرحية مقبلاً يدها. كان رجلاً نحيفًا وشاحب اللون. ووضع نفسه فى خدمتها. كان داخل المحل واضحًا وضح النهار وذلك بفضل الفترينات والأضواء الكثيرة. بدا المحل كأنه من الماس. واصلت لاثارا طريقها إلا داخل المحل دون أن تنظر إلى الموظف خوفًا من أن يكشف هذه التمثيلية.

دعاها الموظف للجلوس أمام واحد من المكاتب الثلاثة من طراز لويس الخامس عشر والتى تستخدم كفترينات فردية. ثم قام بفرد منديل نظيف فوق المكتب وجلس فى مواجهة لاثارا وانتظر.

- ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدتى؟

أخذت تخلع الحلى من الخواتم والأساور والعقود والأقراط وكل ما كانت تضعه وتضع كل ما تخلعه على المنضدة فى ترتيب كأنه قطع شطرنج. إن الشيء الوحيد الذى أريده - قالت - هو معرفة القيمة الحقيقية لكل هذا.

وضع بائع الحلى العدسة على عينه اليسرى وأخذ يفحص الحلى فى صمت كأنه فى عيادة. وبعد وقت ليس بالقصير، ودون أن تتوقف عملية الفحص سأل:

- من أين أنت يا سيدتى؟

لم تكن لاثارا تتوقع سؤالاً مثل هذا.

- آه يا سيدى - تنهدت - من مكان بعيد جداً.

- أتصور ذلك - قال.

عاد إلى صمته بينما تقوم لاثارا بتفحصه بعينيها الذهبيتين الحادتين بلا رحمة. أولى الجواهرجى اهتمامًا خاصة بالتاج الماسى ووضعه فى مكان خاص بعيداً عن باقى الحلى. تنهدت لاثارا.

- إنك يا سيدى من برج العذراء - قالت.

لم يتوقف الجواهرجى عن فحص القطع.

- وكيف تعرفين؟

من خلال كينونة المرء - قالت لاثارا.

لم يعلق بشىء حتى انتهى من عملية الفحص وتوجه إليها بنفس درجة الاحترام التى بدأ بها.

- ما هو مصدر كل هذا؟

- إنه ميراث من جدتى - قالت لاثارا بصوت متوتر - ماتت العام الماضى فى باراماريبو عن عمر يناهز السابعة والتسعين.

عندئذ نظر الجواهرجى فى عينيها "أنا شديد الأسف" قال لها "إن الشىء الوحيد الذى له قيمة فى كل هذا هو الوزن" وبعد ذلك أخذ التاج بأطراف أصابعه فأخذ يعكس الضوء الشديد المنبعث من المحل.

- ما عدا هذه القطعة - قال - إنها قديمة جداً - وربما كانت مصرية، وبالتالى قد لا يمكن تقدير ثمنها اللهم إلا بسبب الحالة السيئة التى عليها الماسات، على أى الأحوال لها قيمة تاريخية.

أما باقى الأحجار المرصعة بها قطع الحلى الأخرى، من الزمرد والجمشت والأوبال والياقوت إلى غيرها فكلها فالصو "ومما لا شك فيه أن القطع الأصلية كانت ممتازة" قال الجواهرجى وهو يجمع القطع لإعادتها إليها، لكن مع توالى الأجيال ذهبت القطع الأصلية وأخذت تحل محلها قطعاً زجاجية. شعرت لاثارا بالغثيان القوى فأخذت نفساً عميقاً وسيطرت على فزعها. أخذ البائع يهدئ من روعها.

- هذا يحدث كثيراً يا سيدتى.

- أعرف ذلك - قالت لاثارا وهى تشعر بعودة الهدوء إلى نفسها - ولهذا أريد التخلص منها.

عندئذ شعرت أنها تجاوزت حدود التمثيلية وأخذت تسترد سيطرتها على نفسها. وبدون المزيد من اللف والدوران فتحت شنطتها وأخرجت الأزرار والساعة الذهبية ومشابك رابطة العنق والقلادات الذهبية والفضية ووضعت كل شيء على المنضدة.

- وهذا أيضًا؟ سأل الجواهرجى؟

- كل شيء - قالت لاثارا.

كانت أوراق العملة من الفرنكات السويسرية جديدة لدرجة أنها خشيت أن تتسخ أصابعها من أحبار هذه الأوراق. أخذت النقود دون عدها، وودعها الجواهرجى حتى الباب بنفس الطريقة التى استقبلها بها. وعندما أصبحت على الباب وهو يمسك الضلفة الزجاجية ليفسح لها الطريق قال:

- هناك شيء آخر يا سيدتى - قال - أنا من برج الدلو.

عند حلول المساء ذهبت كل من لاثارا وهوميرو إلى الفندق ومعهما ثمن الحلى. وبعد القيام بعمليات حسابية كان قد تبقى مبلغ صغير للوفاء بالمصاريف، وعلى ذلك أخذ الرئيس ينتزع بعض الحلى التى يضعها ويلقى بها على السرير بادئًا بدبلة الزواج وساعة الجيب والدبوس الخاص بالكرافتات الذى كان يستخدمه.

أعادت إليه لاثارا الدبلة.

- ليس هذا - قالت لاثارا - فتذكار مثله لا يمكن بيعه.

قبل الرئيس ذلك، ووضع الدبلة، أعادت إليه لاثارا ساعة الجيب التي كان يضعها في الصديرى "وهذا أيضًا" قالت - لم يكن الرئيس على اتفاق معها في هذا لكنها وضعت له الساعة في مكانها.

- من هو ذلك الذى يفكر في بيع ساعات في سويسرا؟

- لقد بعنا واحدة - قال الرئيس.

- نعم لكن ليس لأنها ساعة بل لما فيها من ذهب.

- هذه أيضًا ذهبية - قال الرئيس.

- نعم - قالت لاثارا - يمكن لك ألا تجرى العملية ولكن لا يمكن لك ألا تعرف كم الساعة.

ولم تقبل أن يبيع الشنبر الذهبى لنظارته رغم أنه كان لديه نظارة أخرى. وضعت القطع في يدها كأنها تزنها ثم وضعت نهاية للشكوك.

- كما أن ما معى - قالت - يكفى للوفاء بالمبلغ المتبقى.

قبل أن تخرج قامت بأخذ الغسيل دون أن تأخذ رأيه وذهبت به لتجففه وتقوم بكيه في المنزل. ركبا الدراجة البخارية.

كان هوميرو يقـوم بالقيادة أما هى فقد ركبت علـى الشبكة الخلفية وهى تحتضنه، ومنذ فـترة قصيرة أضـيئت الأنوار فى الشوارع فى ذلك المساء البنفسجى. كـانت الرياح قد قضت على آخر الأوراق الجافة وأضحت الأشـجار كأنها حجريات متنـوفة الريش، وكانت هناك شاحنة تمر من شـارع / رودانو وفيها مذياع مـرتفع الصوت أخذ يمـلأ الشوارع بالموسيقى. كـان المغنى هو "جورج براسنى" وتقول كلمات الأغنية بالفرنسية:

يا حبيبى اقبض على عصاك جيدًا، سوف يمضى الزمن من هناك، هذا الزمن البـربرى من هو من نوعـية أتيـلا، عندما يمـر حصانه لا يندفع الحب.

كان هومـيرو ولاثارا يجـريان فى صمـت وقد أسكرتهـما الأغنية ورائحة الزهور الحمراء، بعد هنيـهة بدت وكأنها استيقظت من حلم.

- يا للكارثة - قالت

- ماذا؟

- إنه العـجوز المسكين - قـالت لاثارا - يا لهـا من حيـاة تعسة!

* * *

ويوم الجمعة التالى الموافق السابع من أكتوبر أجريت للرئيس جراحة استمرت خمس ساعات، وكانت المحصلة أن كل شيء ظل على ما هو عليه سابقًا، وكان عزاؤه الوحيد هو أنه لا زال حيًا، وبعد مرور عشرة أيام نقلاه إلى غرفة مشتركة مع بعض المرضى الآخرين وأمكن لهما زيارته. كان إنسانًا آخر. فقد بعض إدراكه وبه هزال وأصبح شعره واهنًا لدرجة أنه كان يتساقط عندما يلامس المخدة. ولم يبق له من قدراته السابقة إلا مرونة الحركة فى يديه.

كانت حالته مثيرة للأسى عند أول محاولة للسير على عكازين صُمما لهذا الغرض. وكانت لاثارا تقضى الليل إلى جواره لتوفر عليه نفقات ممرضة ليلية. فى الليلة الأولى أخذ أحد المرضى فى الحجرة يئن بصوت عال طوال الليل خوفًا من الموت، وقد أدت الليالى التى لا تنتهى إلى ضرب المعاول فى مقاومة لاثارا.

خرج من المستشفى بعد أن قضى أربعة أشهر فى جنيف. قام هوميرو الذى كان يشرف إشرافاً دقيقاً على مدخراته الضئيلة، بسداد مصاريف المستشفى وحمله فى سيارة الإسعاف ومعه بعض الموظفين ليساعدوه فى الصعود به إلى الدور الثامن. وهيأوا له حجرة الأولاد اللذين لم يتعرف عليهما أبداً. وأخذ بعد ذلك يستعيد وعيه بالواقع المحيط. أخذ يهتم بتمرينات العلاج الطبيعى

متبـعاً نظاماً صارماً حتى عـاد للسير مستخـدماً عكازاً واحدًا فقط. ورغم أنه عاد لارتداء أفضل الملابس الخاصة به إلا أنه لم يعد أبدًا إلى سابق عهده سواء فى الشكل العـام أم فى الطباع. فقد أصبح شديد الخوف من الخريف الذى أخذ يعلن عن نفسه بقسوة، وكان أقسى خـريف تمر به المدينة منذ بداية القرن. قـرر العودة إلا بلاده على متن سفينة تبحـر من مرسيليا يوم الثالث عشـر من ديسمبر. كان القرار مخالفاً لنصـائح الأطباء الذين رغبوا فى الإشراف عليه لمزيد من الوقت، لكن المال الذى معه لم يكف لكل هذا، فأرادت لاثارا أن تزيد المبلغ المتبقى بشىء آخر، ولو ضئيلاً، من المدخرات المخصـصة للأبناء، غـير أنها وجـدت فى الحصالـة أقل مما كانت تتوقع، وعندئذ اعتـرف لها هوميرو بأنه أخـذ بعض النقود خلسة لاستكمال مصاريف المستشفى.

- حسـن - قالت لاثارا مـستـسلمة - لنقل أنه كـان الابن الأكبر.

فى الحادى عـشر من ديسـمبـر ذهبوا به إلى المحطة ليـأخذ القطار المتجـه إلى مرسيليـا، كانت هناك عاصـفة ثلجية عـاتية. عندما عادا إلـى المنزل وجدا رسالة وداع موضوعـة على الكومود الخاص بحجرة نوم الأطفال. ترك معها دبلة الخطوبة لباربارا ومعها دبلة زوجـته التى توفـيت، والتى لم يحاول بيـعها أبـدًا؛ كذلك الساعة من أجل لاثارا. ولما كان يوم الأحد فإن بعض الجيران من

أبناء الكاريبى عرفوا بالسر وذهبـوا إلى محطة القطار "كورنافين" وهم يحـملون بعض الآلات الـوترية من "بيـراكـروث" لم يكن الرئيس فى حالـة معنوية جيـدة. كان يرتدى المعطف غـير المهندم وشالاً رفيـعًا ملونًا يلفه حول رقبـته أهدته إياه لاثارا. ورغم هذا ظل فى آخر. كان فى العربة الأخيرة يودعـهم ملوحًا بالقبعة تحت ضربات العاصـفة الثلجية. أخذت سـرعة القطار فى الازدياد فى الوقت الذى أدرك فيه هوميرو بأن العصا لا زالت معه فجرى حتى آخر الرصيف وقذف بها بقـوة حتى يلتقطها الرئيس وهى تطير فى الهواء. لكنها سقطت بين عـجلات القطار وتحطمت. كانت لحظة رعب. كان آخـر شىء رأته لاثارا هو اليد المرتعـشة التى امـتدت لتلتقط العكاز. ولم تستطع أبدًا نسيان تلك الصورة وكذلك صورة عامل القطار الذى استطاع أن يمسك العـجوز بواسطة "التلفيحة" بعد أن غطاه الثلج وأنقذه من السقوط. جرت لاثارا، وقد أصابها الهول لما رأت، لتلحق بزوجها محاولة الابتسام بعد الدموع.

- يا إلهى - صاحت - هذا الرجل لا يموت من شىء.

وصل سليـمـاً معـافى وذلك طبـقًـا لتلغـراف شكر مطول أرسله، وطوال أكثر من عام لم يعرف عنه شئ، بعد ذلك وصلت رسـالة مكونة من ست صـفحـات مكتوبـة بخط اليد، كـان من المستـحيل التعرف عليـه، فقد عاودته الآلام بنفس القـوة والشدة المعهودتين سـابقًا، إلا أنه قرر ألا يوليهمـا أى اهتمام وأن يكرس

نفسه للحياة كيفما اتفق. وقام الشاعر حاييم قيصر بإهدائه عكازاً آخر مطعماً بالصدف، لكنه قرر ألا يستخدمه. أمضى ستة أشهر وهو يتناول اللحم بشكل منتظم كما كان يتناول بعض الرخويات البحرية وكان قادراً على تناول ما قد يصل إلى عشرين فنجان قهوة يوميًا، لكنه لم يعد يقرأ طالعه فى الفنجان، ذلك أن توقعاته تؤتى العكس تمامًا. ويوم أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر، تناول عدة كئوس من رون مارتينيكا الممتاز كان لها تأثير طيب عليه. كما عاد للتدخين، لم يكن يشعر بتحسن، لكنه أيضًا لم يشعر بأن حالته تسوء. السبب الذى جعله يكتب هذه الرسالة هو إبلاغهما برغبته فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله رغم أن ذلك قد يكون الدافع من ورائه هو الفخر التعس بأنه لم يمت فى سريره من الشيخوخة.

انتهت الرسالة مشيرة إلى الاتجاه الجديد، وكأن رحلته إلى جنيف كانت بمثابة النبوءة بما سيحدث.

ريح الشمال

(١٩٨٢)

رأيته مرة واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة. كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى. إذ كان يطارده بعض من الشبان السويديين فى محاولة منهم لإجباره على الذهاب معهم فى الثانية فجراً لقضاء بقية السهرة فى "كاداكيس" كان عددهم أحد عشر فرداً من الصعب تمييزهم عن بعضهم ذلك أن الأولاد والبنات كانوا يشبهون بعضهم البعض، يتمتعون بالجمال والسيقان غير الغليظة والشعر الطويل الذهبى اللون. أما هو فعمره لا يزيد على عشرين سنة تقريبًا، شعره مجعد، وفى خصلات مرتفعة كأنها عرف الديك، أما بشرته فهى تميل إلى السمرة والنعومة التى عليها أهل الكاريبى الذى عودتهم أمهاتهم ألا يعرضوا أنفسهم للشمس. ونظرته هى تلك النظرة العربية التى تخلب لب السويديات وربما بعد السويديين أيضًا. جعلوه يجلس على طاولة البار وكأنه دمية من تلك التى يستخدمها الكوميديون وكأنها تتحدث، وأخذوا يغنون له الأغانى الشهيرة وهم يصحبون غناءهم بالتصفيق بالأيدى، وذلك حتى يذهب معهم. كان يشعر بالفزع وهو يشرح لهم الأسباب التى من أجلها يرفض الذهاب. تدخل أحد ما صائحًا

ومطالبًا بأن يتركوه لحاله، فما كان من أحد السويديين إلا الوقوف في وجهه وهو يموت ضحكاً.

- إنه لنا - صاح - لقد وجدناه في صفيحة الزبالة.

كنت قد دخلت قبل تلك اللحظة بقليل، وكان معي بعض الأصدقاء بعد أن حضرنا الحفل الموسيقي الأخير الذي قدمه / دافيد أويستراك في قصر الموسيقي **Palau de la prusi .** واقشعر بدني مما عليه السويديون من عدم تصديق لما يقول. الأسباب التي يذكرها الفتى مقدسة عنده، فقد عاش في "كاداكيس" حتى الصيف الماضي، وهناك تعاقدوا معه ليغني أغاني الكاريبي في أحد الكانتينات من تلك التي على الموضة، واستمر في ذلك هزمته ريح الشمال، واستطاع الفرار في اليوم التالي وهو عازم ألا يعود إليها أبدًا سواء مع هذه الرياح أو بدونها، فقد كان على يقين من أنه لو عاد فإن الموت في انتظاره. كان ذلك يقينًا من ذلك النوع الذي عليه أهل الكاريبي، ومن المستحيل على "شلة" من أهل شمال أوروبا العقلانيين أن يستوعبوه وخاصة إذا ما كان مرح الصيف قد أخذ عقولهم وساعد في ذلك النبيذ القطلاني القوي والذي كان يبرز حبوبه المجنونة في القلوب.

إنني كنت أفهمه كما لم يفهمه أحد. "كاداكيس" هي واحدة من القرى الجميلة على شاطئ "كوستابرابا" ظلت تحافظ على نمطيتها وهذا يرجع - في جزء منه - إلى أن الطريق الموصل

إليهـا هو طريق الكورنيش الضيق والمتعـرج الذى يطل على هاوية بلا قرار لدرجة أن عـلى المرء أن يكون متماسكًا وقـوى الأعصاب وهو يقود بسـرعة خمـسين كيلومتـرًا فى الساعة. المنازل كـالعادة بيضاء وغـير مرتفعة وهذا شأن كل المنازل فى قـرى الصيادين فى حوض البحـر الأبيض المتوسط. أما البيوت الحـديثة فقد صمـمها مهـندسون مـشهورون احـترمـوا فى تصمـيمـهم الانسجـام بين الوحدات القـديمة والحديثـة. وعندما تبـدأ تباشيـر الصيف وهى قادمة من الصحراء الأفريقية الموجودة على الشاطئ المقابل، كانت "كاداكيس" تتحول إلى "بابل الجحيم" إذ تغُص بالسياح القادمين من كافة أنحاء أوروبا، ويظل الحال على هذا النحو، فى مقاتلتهم لأهل البلدة من أجل جنتـهم وكذا مـقاتلة هؤلاء الأغـراب الذين استطاعـوا شراء منزل هناك مـقابل سعـر معقـول فى الزمن الذى مضى، أما أثناء الخريف والربيع كانت "كـاداكيس" أكثر جاذبية، حـيث الناس يفكرون وهم خائـفون فى ريح الشـمال الآتيـة من أراضى قـاسية لا تـرحم، وهى رياح طبقًـا لأهل البلدة، وبعض الكتاب الذين أصابهم مكروه منها، تحمل معها بذور الجنون.

منذ خمسـة عشر عاماً كنت أنا واحـدًا من الحريصين على زيارة البلدة حتى تدخلت ريح الشـمال فى حياتنا. ولقـد شعرت بها قبل أن تهب. كان ذلك يوم الأحد عند ساعة القيلولة. حيث واتانى هاجس غير مفهوم بأن شيـئًا سيحدث. إذ هبطت معنوياتى

وشعـرت بالحزن دون سبب واضح، وواتانى أيضًا الإحـساس بأن أبنائى - الذين كـانت أعـمارهم آنذاك تقـل عن عشـر سنوات - يسيـرون خلفى فى المنزل بنظرات عدائية. دخل البـواب بعد ذلك بقليل وهو يحمل صندوقـاً به بعض العدة وبعض الحبـال الخاصة بالملاحة البحرية لتأمين الأبواب والنـوافذ. لم تكن حالتى النفسية مفاجأة له.

- إنها ريح الشـمال - قـال لى - فستـهب بعد سـاعة من الآن.

كان قديماً يعمل فى البـحار، طاعناً فى السن، يحتفظ من مهنتـه القديمـة بالجاكـيت الواقى من المطر وطاقيـة البحـار وكذا "الغليون" وجلده الذى تجعـد من كثرة ملامسته للـمياه المالحة فى العالـم. يسـتغل ساعـات الفراغ فى لعب الـ (Petanca الجلة) فى الميدان مع بعض من خـاضوا حروباً خـاسرة فى الماضى، ويتناول المشهيات مع السياح فى حانات الميدان إذ من سماته قدرته على أن يفهمه الآخرون وهو يتحدث بقطلانيته المتفجرة مهما كانت اللغات التى يتكلمون بها. هو شديد التباهى بمعرفته كل موانئ الدنيا لكنه لا يعرف أى مدينة من المدن الداخلية " ولا حـتى باريس عاصمة فرنسا بكل ما لها" - يقول- فهـو لا يؤمن بأى وسيلة انتقال غير البحر.

ظهرت عـليه علامـات الشيـخوخـة فجأة خـلال السنوات الأخيرة ولم يعد يخرج للشـارع إذ أخذ يقضى معظم الوقت وهو

جالس فى الجحر المخصص للبواب، كان يعيش وحيد الروح، كعادته فى العيش دومًا. يطبخ طعامه فى علبة يضعها على موقد كحولى، وهذا كان يجعلنا نتذوق جميعًا أشهى ما فى المطبخ القوطى. يولى اهتمامه بالسكان مع شروق الشمس. هو رجل خدوم للغاية لم أعرف مثله أبدًا، وطيب طيبة لا إرادية، وبه الحنان الخشن للقطلانيين. قليلاً ما يتحدث، لكن أسلوبه مباشر وصادق، وعندما يتوفر لديه الوقت يقوم بملء المطبوعات الخاصة بمسابقات الكرة لكنه نادرًا ما يذهب لإيداعها بشكل رسمى.

وبينما يقوم فى ذلك اليوم بإحكام إغلاق الأبواب والشبابيك فى محاولة لاتقاء الكارثة تحدث معنا عن ريح الشمال وكأنها امرأة بغيضة، لكن حياته تفتقر لمضمون بدونها، والمفاجأة عندى تتمثل فى أن رجلاً من رجال البحر يعمل ألف حساب لرياح تهب من الداخل.

- الأمر هو أن الريح أقدم - قال.

كان يعطى الانطباع بأن العام الذى يعيشه لا ينقسم إلى أيام وأشهر بل ينقسم إلى عدد المرات التى هبت فيها ريح الشمال. "خلال العام الماضى، وبعد ثلاثة أيام من ريح الشمال الثانية، تعرضت لآلام" قال لى ذات مرة، وربما كان ذلك يفسر عقيدته القائلة بأن الإنسان تظهر عليه علامات الشيخوخة بعد كل هبوب لهذه الرياح وكأنه تقدم به العمر عدة سنوات، أدى هوسه بهذه

الرياح إلى إيقاظ رغبتنا الشديدة فى معرفتها فى زيارة قاتلة ولذيذة.

لم ننتظر طويلاً، فلم يكد يخرج البواب حتى سمع صفيراً أخذ يزداد حدة وقوة فى كل مرة، وتحول بعد ذلك إلى ما يشبه صوت هزة أرضية، وعندها بدأ هبوب الريح، أخذت فى البداية شكل نوبات متباعدة ثم زادت فى توالى إيقاعها حتى جاءت نوبة مستمرة بدون توقف أو سكون. كانت تتسم بالقوة والفظاعة لدرجة يحسب المرء معها أن بها شيئًا غير عادى. كانت شقتنا فى مواجهة الجبل، وهذا عكس المنزل الذى كان لنا فى الكاريبى، وربما يرجع هذا إلى المزاجية الغربية التى عليها القطلانيين الخلصّ الذين يحبون البحر لكنهم لا يرونه. والخلاصة أن الرياح تضرب المنزل من الناحية الأمامية وتهدد بالقضاء على الاستحكامات المتخذة لجعل النوافذ مغلقة.

الشىء الذى لفت انتباهى هو أن الطقس ظل على حالة من الجمال الآخاذ إذ كانت الشمس ذهبية والسماء صافية. وعلى ذلك قررت الخروج إلى الشارع وبرفقتى الأطفال لنرى حالة البحر، ولا خشية فى ذلك فهم تربوا على زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبى، وإذا ما كانت هناك رياح أقل أو أكثر شدة، فهذا فى نظرنا ليس مشيراً للقلق. مررنا بجحر البواب ونحن على أطراف أصابعنا ورأيناه ثابتاً فى مكانه وأمامه طبق الفاصوليا والنقانق يتأمل الريح عبر النافذة. لم يرنا ونحن خارجين.

استطعنا السير فى حـماية جدران المنزل، لكن عندما وصلنا إلى الناصية المؤدية إلى البحر كـان علينا أن نحتضن بعضنا البعض وكأنـنا قطعة واحـدة حتى لا تجـرفنا الرياح بقوتهـا. ظللنا هكذا نتأمل بإعـجاب البـحر الساكـن الصافى وسط هذه الرياح العـاتية حتى جاء البـواب ومعه بعض الجيـران وأنقذونا. فى هذه اللحظة فقد أدركنا أن المسلك المنطقى السليم هو أن نظل فى المنزل إلى أن يشـاء الله. ولـم يكـن لدى أحـد أى فكرة عن مـتى تحـدث هذه المشيئة.

بعد يومين كان لدينا انطبـاع بأن هذه الرياح العاتية لم تكن ظاهرة أرضية بل كانت نوعاً من العدوانيـة الشخصية ترتكب ضد فرد. كان البواب يزورنا عدة مرات فى اليوم وهو قلق على حالتنا المعنوية" ويأتى لنا بفـواكه من فـواكه الموسم، وكعكًـا للأطفال، وفى طعـام الغداء يوم الثـلاثاء أهدانا أفـضل شىء فى الأطعمـة القطلانية وهو طبق أعدته فى الـصحفية التى كان يطبخ فـيها: إنه طبق الأرانب بالكاراكول. كانت حفلة بهيجة وسط الرعب.

كان ذلك الأربعـاء هو أطول أيام حيـاتى. لـم يحدث فـيه شىء إلا الرياح وهى تهب، لكنه ربما كان بمثابة الظلمة التى تسبق الفجـر الصادق. فبعـد منتصف الليل استـيقظنا جميـعًا فى لحظة واحدة وقـد هزنا صمت مطبق لـيس له مثيل إلا صـمت الموت. حتى أوراق الشجـر لم تكن تهتز واستـمتعنا بسمـاء الفجر بكل

نجومها المتلألئة، وكذا بالبحر الفوسفورى. ورغم أن الساعة كانت قبل الخامسة بقليل فقد كان الكثير من السياح يروّحون عن أنفسهم على أحجار الشاطئ وبدأوا فى إعادة تركيب قلاع المراكب بعد ثلاثة أيام من اللاحركة.

عندما خرجنا لم يجذب انتباهنا أن حجرة البواب مظلمة. لكن عندما عدنا إلى المنزل كان للهواء نفس الطابع الفوسفورى الذى عليه البحر ولا زال جحر البواب مظلمًا. استغربت وقرعت الباب مرتين، ولما لم يجب أحد دفعت الباب. أعتقد أن الأطفال رأوه قبلى وصاحوا صيحة فزع، كان البواب العجوز معلقًا من رقبته بحبل مربوط فى الدعامة الأفقية للسقف، وجثته لا زالت تتأرجح من جراء الزوبعة الأخيرة لتلك الريح. يرتدى كل ما عنده من ملابس البحارة ويعلق على ياقة الجاكتة كل ما حصل عليه من نياشين.

تركت القرية قبل الوقت المحدد ونحن فى أوج المتعة ونعيش حالة اشتياق مبكرة. وقد عزمنا على ألا نعود إليها أبدًا. كان السياح قد عادوا إلى الشارع مرة أخرى وملأت الموسيقى الميدان الذى يؤمه الطاعنون فى السن والذين لم تكن حالتهم المعنوية جيدة ليعاودوا ممارسة لعبتهم المفضلة. ومن خلال الزجاج المترب لبار "مارتيم" استطعنا أن نرى بعض الأصدقاء الذين ظلوا على قيد الحياة وقد بدأوا الحياة مرة أخرى فى الربيع الوضاء لرياح الشمال. لكن كل هذا أصبح جزءًا من الماضى.

لهذا السبب قضى الفجر الحزين فى كباريه "بوكاكثيو" ولم يستطع أحد أن يتفهم أكثر منى حالة الفزع التى يشعر بها إنسان ما وهو يعود إلا "كـاداكيس" ذلك أنه متأكـد من موته. ورغم ذلك لم تجد أية طريقة حتى يقلع السـويديون عن رغبتهم، وانتهى بهم الأمر بأن أخـذوا الفتى مـعهم بالـقوة بغيـة أن يعالجـوه من هذه الخزعبلات الأفريقية التى يؤمن بها. ووضعوه وهو يضرب بقدميه عـلامة على الرفض فى شـاحنة صغـيـرة مليئـة بالسكارى وسط تصـفيق وصـفـير الجـمهـور الذى انقـسم على نفـسه بين مـؤيد ومعارض، وبدأوا فى تلك اللحظة الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.

أيقظنى جرس التليفون صبـاح اليوم التالى. كنت قد نسيت إغلاق السيارة عندما عدت من الحفلة ولم أكن أعرف كم الساعة، لكن حجرة النوم كان يملؤها ضوء الصيف. أيقظنى الصوت الذى يصلنى عبر التليفون وبه نبرات جزع ولم أستطع التعرف عليه.

- أتذكر ذلك الفتى الذى أخذوه معهم ليلاً إلى كاداكيس؟

لم أسمع أكثـر من هذا حتى أخمن ما حـدث له بل وأكثر دراميـة ما تصـورت. فزع هذا الفتى لأن العـودة وشيكة وانتـهز فرصـة تلهى فيـها هؤلاء السويديون المعـتوهون وألقى بنفـسه فى الهوة السحيـقة والشاحنة تسير، فى محـاولة منه للهرب من موت محقق.



الفهرس



المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت: أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت . شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت . يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت . محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت: هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت · أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت · عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت · حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت . أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت. بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت · محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت: سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت: بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت · إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت · منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت: أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت · مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت · محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت · أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت · مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت · محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت · لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت · محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	جون بولكنجهورن	ت · على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت · صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢- السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣- نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوفا	ت : حسن بيومي
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : د. أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت . عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت . أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت . محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت . طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت . أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت . ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت . سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت . كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت . أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت . سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- عرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى انبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت. إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت. زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت. نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت. سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت. هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت.إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت. جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت. حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت. إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت. سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت : محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزُرْج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمي
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغي	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-امريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال احمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت. فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت. مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت. جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت. أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت. علي يوسف علي
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربي فى المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت. محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائي الغزنوى	ت. يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت. سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيث سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت. على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت. على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت رفعت سلام

٢٢٢- فرانز كافكا — رونالد جراى — ت: نسيم مجلى

٢٢٣- العلم فى مجتمع حر — بول ميرابنر — ت. السيد محمد نفادى

٢٢٤- دمار يوغسلافيا — برانكا ماجاس — ت منى عبدالظاهر إبراهيم السيد

٢٢٥- حكاية غريق — جابرييل جارثيا ماركث — ت السيد عبدالظاهر السيد

٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى — ديفيد هربت لورانس — ت طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر — موسى ماردينا ديف بوركى — ت السيد عبدالظاهر عبدالله

٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن — جانيت وولف — ت مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن

٢٢٩- مأزق البطل الوحيد — نورمان كيمان — ت أمير إبراهيم العمرى

٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر — فرانسواز جاكوب — ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١- الدراقيل — خايمى سالوم بيدال — ت جمال أحمد عبدالرحمن

٢٣٢- ما بعد المعلومات — توم ستينر — ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣٣- فكرة الاضمحلال — ارثر هرمان — ت طلعت الشايب

٢٣٤- الإسلام فى السودان — ج. سبنسر تريمنجهام — ت فؤاد محمد عكود

٢٣٥- ديوان شمس التبريزى — جلال الدين مولوى رومى — ت. إبراهيم الدسوقى شتا

٢٣٦- الولاية — ميشيل تود — ت: أحمد الطيب

٢٣٧- مصر أرض الوادى — روبين فيدين — ت: عنايات حسين طلعت

٢٣٨- العولمة والتحرير — الانكتاد — ت ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد

٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى — جيلافر - رابوخ — ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق

٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار — كامى حافظ — ت صلاح عبدالعزيز محمود

٢٤١- فى انتظار البرابرة — ج . م كويتز — ت ابتسام عبدالله سعيد

٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض — وليام إمبسون — ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى

٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١ — ليفى بروفنسال — ت: على عبدالرؤوف البمبى

٢٤٤- الغليان — لاورا إسكيبيل — ت. نادية جمال الدين محمد

٢٤٥- نساء مقاتلات — إليزابيتا اديس — ت توفيق على منصور

٢٤٦- قصص مختارة — جابرييل جارثيا ماركث — ت. على إبراهيم على منوفى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٠٧٥ / ٢٠٠٠



تضم هذه المختارات اثنتى عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى . «عينا كلب أزرق» و «الإذعان الثالث» و «ليلة طيور الكروان» ، وثلاث أخرى تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى · «قيلولة الثلاثاء» التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق ، و «الأمسية المدهشة التى قضاها بلتشار» و «جنازة الأم الكبرى» . أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين : «الموت الدائم فيما وراء الحب» وقصة «الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديرا وجدتها القاسية» . أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية «اثنتا عشرة قصة فى ترحال» على اعتبار أنها جزء من نسيج فكّر فيه المؤلف بعناية . وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التى تدور حول رؤية جارثيا ماركيث – أو إن شئت الدقة الراوى – للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل .

هذه المختارات القصصية تعكس تناغمًا عجيبًا بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية .. وتناغمًا عجيبًا فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الإسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذى هو السر الأساسى – بالإضافة إلى عناصر أخرى – فى تلك الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتّاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية .